دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد الثالث

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد الثالث

إعداد

جعفر شرف الدّين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

سورة الأنعام

٦

أهداف سورة «الأنعام»(*)

١ ـ كيف أنزلت؟

سورة الأنعام سورة مكية، وهي أول سورة مكية في ترتيب المصحف. فالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة كلّها سور مدنيّة؛ أمّا سورة الأنعام، فهي أوّل سورة مكّيّة توضع في السبع الطوال من سور القرآن الكريم.

وقد جاءت عدّة روايات تذكر فضل سورة الأنعام وتبيّن أنّها نزلت جملة واحدة مشيّعة بالملائكة.

قال الإمام الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»:

«إن هذه السورة اختصّت بنوعين من الفضيلة أحدهما أنّها نزلت دُفْعَةً واحدة، والثاني أنها شيّعها ألف من الملائكة. والسبب في ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين».

ويقول القرطبي:

قال العلماء: «هذه السورة أصل في محاجّة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومَنْ كَذّب بالبعث والنشور. وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرّف ذلك بوجوه كثيرة. وعليها بنى المتكلمون أصول الدين».

وعدد آيات سورة الأنعام (١٦٥) آية وعدد كلماتها (٣٠٥٣) كلمة.

* * *

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمد شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

٢ ـ لم سميت بسورة الأنعام

سمّيت هذه السورة بسورة الأنعام، والأنعام ذوات الخُفّ والظِّلْف: وهي الإبل والبقر والغنم بجميع أنواعها، لأنّها هي السورة التي عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد في غيرها من السور، فقد ورد ذكر الأنعام في مواضع كثيرة من القرآن عرضاً؛ أمّا سورة الأنعام، فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام استغرق خمس عشرة آية، من أول الآية ١٣٦ إلى آخر الآية ١٥٠. وقد تناول الحديث عن الأنعام في هذه الآيات من السورة جوانب متعددة، تتصل بعقائد المشركين، فبينت السورة ما في عقائدهم من الخلل والفساد، إذ كانوا يحرمون بعض الأنعام على أنفسهم، ويجعلون قسماً من الأنعام لآلهتهم وأصنامهم، وقسماً لله، ثم يجورون على القسم الذي جعلوه لله فيأخذون منه لأصنامهم.

٣ ـ تاريخ نزول السورة

نزلت سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة المحمّديّة، أي عقب أمر النبي (ص) أن يَصْدَعَ بالدعوة ويعلنها للناس بعد أن أسرَّ بها ثلاث سنين.

وتميّزت الفترة التي نزلت فيها سورة الأنعام بقسوة المشركين وعنفهم في مقاومة الدعوة الإسلامية وإنكارها، فقد بدأت الدعوة سرّاً، ثم جهر النبي (ص) بدعوته في مكة. ونزلت سورة الأنعام بعد الجهر بالدعوة بسنة واحدة، فاستعرضت الأدلة على توحيد الله وقدرته ثم ساقت أدلة المشركين وشبههم فأبطلتها وفندتها.

وقد أُخذ المشركون بالنجاح الذي صارت عليه دعوة الإسلام حتى استطاعت أن تعلن عن نفسها بعد الخفاء، وأن تتحدّى بصوت عالٍ ونداء جهير، بعد أن كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدّوا صلاتهم، ورأى المشركون أن محمداً (ص) ماضٍ في إعلان دعوته وتلاوة ما أنزل عليه من الكتاب، وفيه إنذار لهم وتفنيد لمعتقداتهم، وتسفيه لآرائهم، وإنكار لآلهتهم، وتهكّم بأوثانهم وتقاليدهم البالية، فكان منهم من يستمع للقرآن متأثراً بقوّته أو متذوّقاً لبلاغته، ومنهم من يبعد عنه خوفاً منه. يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدّية، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين، يشعرون

في أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم، ويترقبون يوماً قريباً لانتصارها وانهزامهم، ولا يجدون لهم حيلة إلاّ المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة، وبادّعائهم كذب الرسول (ص)، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئاً لأنزل إليهم الملائكة؛ وأنكر كفار مكة البعث والدار الآخرة، واستماتوا في الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم، ونسوا أن محمداً (ص) عاش فيهم عمراً طويلا لم يقل فيهم يوماً قولة كاذبة، ولم يخن فيهم يوما أمانة اؤتمن عليها، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

ولكنّهم فكروا فقط في أنّ الدعوة الجديدة يجب أن تموت في مهدها، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب.

ووجّهت الدعوة الإسلامية بهذا النضال، وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله، وكانت سورة الأنعام مثالاً لتحقيق هذه الدعوة الإسلامية في هذه الفترة. فقد جمعت العقائد الصحيحة كلها، وعُنِيَتْ بالاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شُبَهِ الملحدين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتركيز مبادئ الأخلاق الفاضلة.

٤ ـ مميزات المكي والمدني

وضع العلماء ضوابط تميّز السور المكية من المدنية، واستنبطوا خصائص الأسلوب والموضوعات التي تناولتها كل مجموعة منهما.

فمن خصائص السور المكية ما يأتي:

١ ـ الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده؛ وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء؛ وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها؛ ومجادلة المشركين، بالبراهين العقلية والآيات الكونية.

٢ ـ وضع الأسس العامة للفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣ ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجْراً للكافرين حتّى يعتبروا

بمصير المكذِّبين قبلهم، وتسلية لرسول الله (ص) حتى يصبرعلى أذاهم ويطمئنّ الى الانتصار عليهم.

٤ ـ قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يُصِخُ الآذان، ويشتدّ قرعُه على المسامع، وينبّه القلوب ويحرّك الأفئدة.

ومن خصائص السور المدنية ما يأتي:

١ ـ بيان العبادات والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢ ـ مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنّيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بَغْياً بينهم.

٣ ـ الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسياتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤ ـ طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرّر الشريعة ويوضح أهدافها.

٥ ـ خصائص السور المكية واضحة في سورة الأنعام

«سورة الأنعام مَثَلٌ كامل للخصائص المكية، إنها حشد من الصور الفنية العجيبة واللمسات الوجدانية الموحية، والمنطق الطبيعي الحي. . وهي كلّها من أولها إلى آخرها تنبض بإيقاع واحد، وتترقرق بماء واحد تفيض بينبوع زاخر متدفق».

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة، بكلّ مقوّماتها وبكلّ مكوّناتها، وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية وتطوف بها في الوجود كله، وراء ينابيع الحقيقة وموحياتها المستترة والظاهرة في هذا الوجود الكبير. إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السموات والأرض، تلحظ الظلمات فيها والنور، وترقب الشمس والنجوم، وتسرح في الجنات المعروشة وغير المعروشة، والحياة الباطلة والجارية، وتقف على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية، ثم تسبح مع ظلمات البحر والبر وأسرار الغيب والنفس؛ والحي يخرج من الميّت، والميّت يخرج من

الحي، ومع الحبة المستكنة في ظلام الأرض، والنطفة المستكنة في ظلام الرحم. ثم تموج بالجن والإنس، والطير والوحش، والأوّلين والآخرين والأحياء والأموات، والحَفَظَةِ من الملائكة على النفس بالليل والنهار..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس، وأقطار اللمس وأقطار الخيال.. ثمّ إنها اللمسات المبدعة المحيية، التي تنتفض المشاهد بعدها والمعاني، أحياء تمرح في النفس والخيال. وإذا كلّ مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر، جديد نابض، كأنما تتلقّاه النفس أول مرة، ولم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان. إلا أنّها القدرة المبدعة تتبدّى في صورة من صورها الكثيرة، فما يقدر على بث الحياة هكذا في الصور والمشاعر والمعاني، إلا الله سبحانه الذي بث في الوجود الحياة.

٦ ـ الأغراض الرئيسة لسورة الأنعام

إن الأغراض الرئيسة التي استهدفتها هذه السورة الكريمة هي تركيز العقائد الأساسية الثلاث التي كان المشركون يومئذ يتنازعون فيها، وهذه العقائد الأساسية هي:

أولاً: توحيد الله. ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهيّة، بلفت النظر إلى آثار الربوبية، وإلى صفات الله الخالق المتصرف، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك، وشبهات المشركين، وتقرير أن العبادة والتوجّه والتحريم والتحليل، إنما ترجع إلى الله.

ثانياً: الإيمان برسوله الذي أرْسَل، وكتابه الذي أنْزَل، وبيان وظيفة هذا الرسول، ورد الشبهات التي تثار حول الوحي والرسالة.

ثالثاً: الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب وعقاب وجزاء. وسوف نتناول كل غرض من هذه الأغراض بالتوضيح:

(أ) وحدة الألوهيّة:

لقد بدأت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين وعلى لسان كل رسول، تلك الحقيقة التي تؤمن بها الفِطَر السليمة ويدل عليها العالم بأرضه وسمائه. وما فيه من مخلوقات ناطقة

وصامتة ظاهرة وخفية؛ وما فيه من تحوّلات وتقلّبات ونور وظلمات؛ وهذه الحقيقة هي أن الإله الذي له (الحمد) المطلق والتنزيه الذي لا يُحَدُّ هو الله، لأنه هو الذي «خلق» وهو الذي «جعل»؛ فالخلق إنشاء وإبداع، والجَعْل تصريف وتقليب؛ والعالم أجمع في دائرتيهما؛ فلا ينفكّ شيء منه عن كلا هذين المظهرين: «خَلْق» و «جَعْل». ومقتضى ذلك أنّ المخلوق المجهول، لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيعبد كما يعبد، ويقصد كما يقصد، ذلك هو مطلع السورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾[1]. وكل ما جاء في هذه السورة إنما هو بيان وتفصيل، أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة؛ أحياناً بصفة مباشرة، وأحياناً بوسائط تقرّب أو تبعد.

وهذا هو المعنى الذي يعبّر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد الألوهيّة استدلالاً بوحدانيّة الربوبيّة، وذلك في القرآن كثير. فأوّل فاتحة الكتاب:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

وأول الكهف:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وأول فاطر:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

ولو ذهبنا نتتبّع هذا المعنى لأوغلنا في التتّبع، ورأينا الكثير من الآيات، فإن هذا هو أصل الأديان كلّها؛ وهو الحقيقة الأولى، كما تجلى ذلك في سورة الأنعام. وقد ساقت السورة عدداً من الأدلّة على توحيد الله سبحانه، فهي تلفت إلى مظاهر الملك التام، والسلطان القاهر في الخلق والتصرّف الكامل، والعلم المحيط فتقول:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الآية ١٢].

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ [الآية ٥٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الآية ٦٠].

وهي تلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من

شيء، لأنّ هذا النظر لا بد أن يثمر الإيمان بالله.

بل تلفت الإنسان إلى نفسه، ليتفكّر في داخله كيف خلق؟ وكيف يفكّر وكيف يعيش وكيف يموت؟

وبهذا، تكون الحجة عامّة، لكلّ ذي عقل سليم وفطرة صافية، وإخلاص في تطلّب الحقيقة من دلائلها المبثوثة في آفاق السموات والأرض، ولذلك يقول جل شأنه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

(ب) قضية الوحي والرسالة

كما تحدثت سورة الأنعام عن الألوهيّة والربوبيّة، ولفتت الناس إلى مظاهرهما في الخلق والتصرف والتدبير المحكم، تحدثت عن حقيقة ثانية تنبني على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى: ذلك أنّ من شأن الإله، أن يهدي عباده، ويرشدهم إلى ما تصلح به أمورهم، وتقوم عليه سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

ومن رحمة الله بعباده، أنْ أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ لهداية الناس من الضلالة إلى الهدى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد عُنِيَتْ سورة الأنعام بهذه الحقيقة، فتحدّثت، في كثير من آياتها، عن الوحي والرسالة من جوانب شتّى، بعضها يتّصل بإثبات الوحي وبيان حكمته والرد على منكريه؛ وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول وما ليس من وظيفته؛ وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الألهية، وبعضها يتعلّق بالآداب التي رسمها الله للرسول، وما ينبغي أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه. قال تعالى:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الآية ١٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

تكذيب المرسلين:

عرضت السورة لموقف المكذّبين من الرسالة، وبينت أن التكذيب سنة قديمة. فعلى الرسول أن يصبر

ويصابر، حتى لا يضيق صدره بتكذيبهم إياه، ولا ييأس من هدايتهم. وبيّنت السورة حسن عاقبة المرسلين. وسوء عاقبة المكذّبين؛ قال تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

نبوة محمد (ص):

أثبت القرآن الوحي والرسالة؛ ثم أثبت نبوّة محمد (ص) بالدليل القاطع والحجة البالغة. فقد نشأ هذا النبي يتيماً فقيراً أمّياً في بيئة مشركة جاهلة؛ فمن أين له هذا الكتاب المُحكَم الذي اشتمل على مبادئ الإصلاح العالمي كلها؟ والذي لم يستطع العلم، في أزهى عصوره، أن يهدم حقيقة من الحقائق التي جاء بها.

إن القرآن قد تحدّى العرب ببلاغته وقوّة بيانه؛ فَعَجَزوا عن الإتيان بمثله، أو بِعَشْرِ سُوَرٍ منه، أو بسورة واحدة.

وقد تحدّى القرآن الزمان كله بخلوده وصحته، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الآية ٩١].

(جـ) قضية البعث والجزاء

نزلت سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة، وأن يعلن عن العقيدة الإلهية، ويقرر حقيقة البعث والجزاء عَلَناً أمام المشركين.

وقد سلكت سورة الأنعام طرقاً شتى في الاستدلال على قضية البعث؛ فقد استدلت عليه بخلق السموات والأرض في مقدّمتها العنوانية:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

فمن خلق السموات والأرض بقدرته فهو قادر على إحياء الموتى وإعادة خلق الإنسان. فخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وكررت هذه الحقيقة وأكدت في آياتها بصور شتى؛ فذكرت أن البعث حق، وأن الله بيده الخلق، والأمر، والبدء، والإعادة، والحساب، والجزاء قال تعالى:

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الآية ١٢].

وقال سبحانه:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

وقد استدلّ القرآن في قضية البعث والجزاء، بعديد من الأدلّة، منها أن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه، والمسيء إساءته حتى يطهر المسيء من دنس النفس ويكون أهلاً لرحمة الله الكاملة، وهذان شأنان هامّان، اذ كثيراً ما يرتحل الناس عن الدنيا دون أن يسهل طريق النقاء لمن دسّى نفسه، ودون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه؛ وإذاً فلا بد من دار أخرى يلقى الإنسان فيها الجزاء أمام حاكم عادل، عليم خبير بكل ما قدّم الإنسان.

وقد تعرّض أحد القضاة الفرنسيين لتاريخ القضاء في فرنسا، وأصدر كتاباً ذكر فيه عدداً من الحالات، حكم فيها بالإعدام أو الإدانة على متّهمين، ثم برّأتهم الأيام والحقائق؛ وأحصى عدداً من الحالات، برّأ القضاء فيها متّهمين ثم أثبتت الأيام وحقائق الأحداث أنّهم مدانون.

ثم عقّب القاضي بقوله: إنه لا بدّ من جزاء وحساب أمام قاضٍ آخر، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه حادثة، في دار أخرى، ليعوّض الناس عن أخطاء القضاء في الدنيا، وليكون حكمه فيصلاً ومنصفاً للمظلومين، ورادعاً للمجرمين، وفي القرآن الكريم آيات عدة تؤكد هذا المعنى، قال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقد لوّن القرآن ونوّع في أدلّته على إثبات البعث، وعرض مشاهد القيامة واضحة للعيان. وعرضت سورة الأنعام لشأن البعث باعتباره أمراً كائناً ليس موضع إنكار، ولا محلاً لِرَيْب؛ وصوّرت فيه مواقف المشركين، وما سيكونون عليه في ذلك اليوم، كأنهم حاضرون معروضون أمام الناس، يتأمّلهم الإنسان، ويرى فعلهم وقولهم؛ قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

إلى غير ذلك ممّا تضمّنته السورة من الوصف العينيّ لمظاهر البعث الذي يأخذ القلب ويثير الوجدان.

٧ ـ قصة إبراهيم الخليل

حفلت سورة الأنعام بذكر طرف من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإبراهيم أبو الأنبياء؛ والرسول الذي دافع عن التوحيد، وتحدّى عُبّاد الأصنام، وأخذ يتأمّل بفكره في ملكوتِ السمٰوات والأرض، ليرشد قومه، عن طريق الحوار، إلى فساد اعتقادهم ودليل خطأهم في تأليه الكواكب والقمر والشمس وغيرها. جَنَّ عليه الليل، وستره الظلام، فرأى كوكباً ممّا يعبدون وهو بين جماعة منهم، يتحدّثون ويسمرون، فجاراهم في زعمهم، وحكى قولهم، فقال هذا ربي. فلما أفل هذا الكوكب، وغاب هذا النجم تحت الأفق، تفقّده فلم يجده، وبحث عنه فلم يره؛ فقال لا أحب الآلهة المتغيّرة من حال إلى حال.

ولما رأى القمر بازغاً وهو أسطع نوراً من ذلك الكوكب، وأكبر منه حجماً، وأكثر نفعاً؛ قال كما ورد في التنزيل:

﴿هَٰذَا رَبِّى﴾.

لاستدراجهم واستهواء قلوبهم، فلما

أفل هذا أيضاً واحتجب، واختفى نوره واستتر، قال كما روى القرآن الكريم، ذلك حكايةً عنه:

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)﴾.

بيّن لهم أن الله خالق الهداية، ومانح التوفيق. ثم رأى إبراهيم الشمس بازغة يتألق نورها وينبعث منها شعاعها، وقد كست الدنيا جمالاً، وملأت الأرض حياة وبهاء، وأرجاء الكون نوراً وضياء، فقال: هذا ربي، هذا أكبر من كل الكواكب، وأكثر نفعاً، وأجل شأناً، فلما أفلت كغيرها، وغابت عن عبادها، رماهم بالشرك وقال كما روى القرآن، حكاية عنه:

﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾.

فهذه الكواكب التي تنتقل من مكان إلى مكان، وتتحوّل من حال إلى حال، لا بد لها من خالق يدبرها ويحركها، وإله ينظمها ويسيّرها؛ فهي لا تستحق عبادة ولا تعظيماً.

وبعد أن أعلن إبراهيم انصرافه عن آلهتهم، وبراءته من معبوداتهم أفاض الحديث عن إخلاصه لله بعبادته وخضوعه، فقال كما ورد في محكم التنزيل:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾.

ولقد كان إبراهيم جريئاً في إعلان إيمانه، وإخلاصه لربّه، ومجادلة قومه، وإفهامهم أن غير الله لا ينفع ولا يضرّ، وأن الله وحده هو النافع الضارّ، والمعطي المانع، وهو على كل شيء قدير. وقد ناقش إبراهيم أباه، وأوضح له طريق الهدى، وأخلص الدعاء لأبيه أن يلهمه الله طريق الهداية والرشاد، فلما تبيّن لإبراهيم أنّ أباه عدوٌ لله تبرّأ منه. وهكذا كان إبراهيم عملياً في دعوته، عملياً في هجرته وعزلته.

وقد ظهرت قدرة إبراهيم وإخلاصه وتضحيته، حينما حطّم الأصنام، ولام قومه على عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وظهرت بطولة إبراهيم حينما امتحنه الله بذبح ولده إسماعيل، فامتثل إبراهيم لأمر ربّه، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات].

وصدق الأب في طاعة ربه، وصدق الابن في الوفاء والامتثال؛ وعزم الأب على ذبح ابنه، وأخلص النيّة؛ فلما ظهر منه صدق النيّة، فُدِيَ إسماعيل بكبش عظيم، وأصبحت الأضحية سُنّةً في كل عام، يذبحها الغنيّ المقتدر ويوزّع من لحمها على الفقراء وعلى الأصدقاء، ذكرى للتضحية والفداء، واقتداء بإبراهيم الخليل. وكم لإبراهيم من مواقف جليلة عظيمة في مصر، وفي فلسطين، وفي جوار بيت الله الحرام، وفي بناء الكعبة؛ وهو يخلص الدعاء لله في كل عمل. وقد مدحه القرآن، ووصفه بأحسن الصفات، إذ يقول جل جلاله:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل].

٨ ـ الوصايا العشر

افتُتِحَ الربعُ الأخير من سورة الأنعام، بالدعوة إلى عشر وصايا هي النهي عن الإشراك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهي عن قتل الأولاد مخافة الحاجة، والنهي عن مقاربة الفاحشة في السرّ أو العلن، والنهي عن قتل النفس التي حرّم الله قتلها. ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم، وإتمام الكيل والميزان؛ كما أمرت بالعدل في كل شيء؛ وأمرت بالوفاء بالعهد، والاستقامة على الصراط القويم.

الوصية الأولى: من هذه الوصايا العشر التي وردت في سورة الأنعام قوله تعالى:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الآية ١٥١]، وهي الأساس الذي يصلح عليه أمر الناس، فإنّ المجتمع الذي يقوم على إيثار الله على كلّ ما سواه هو المجتمع الفاضل المثاليّ السعيد؛ أما المجتمع الذي يشرك بالله أحداً أو يشرك بالله شيئاً، فإنه مجتمع منحلٌ، تسيّره المادة الصماء التي لا روح فيها ولا صلاح ولا قرار معها.

والوصية الثانية:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الآية ١٥١].

فالوالدان سبب في حياة الولد؛ فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما، خصوصاً في حالة الكبر والشيخوخة.

والوصية الثالثة:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الآية ١٥١].

أن قتل الإنسان لابنه اعتلال في الطبع أو خلل في العقل، فإن الولد بضعة من الوالد؛ والشأن حتى في الحيوان أن يضحي الوالد من أجل أولاده، ويحميهم، ويتحمل الصعاب في سبيلهم. وفي الحديث الصحيح، يقول النبي (ص): «إن من أكبر الكبائر أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك». إذ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود/٦].

الوصية الرابعة:

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الآية ١٥١].

والفواحش هي كل فعل تنكره العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والمجتمع الذي يؤمن بأن هناك (فواحش) يجب أن تجتنب، و(محاسن) يجب أن تلتمس، هو المجتمع السليم الجدير بالنمو والارتقاء.

الوصية الخامسة:

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾.

فالإنسان بنيان الله، ومن هدم بنيان الله ملعون، وبذلك يقرر الإسلام عصمة الدم الإنساني إلا بالحق؛ ويعتبر من يعتدي على نفس واحدة بغير حق، كأنه اعتدى على الإنسانية كلها. وهو المبدأ الذي يعتبر أن الجريمة اعتداء على المجتمع كله.

والوصية السادسة:

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الآية ١٥٢].

فاليتيم عارض يعرض في كل مجتمع، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى، وأن تحافظ على صلاحهم في أنفسهم وفي أموالهم. وعلى الوصيّ أن يعامل اليتيم كما لو كان ابناً من أبنائه؛ فيحسن توجيهه، وتأديبه، ورعايته، وكفالته؛ حتى ينشأ اليتيم مواطناً صالحاً وعضواً نافعاً.

الوصية السابعة:

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الآية ١٥٢].

فالمؤمن عادل في بيعه وشرائه يضبط الكيل، ويعطي الحق، ويأخذ الحق.

الوصية الثامنة:

﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ [الآية ١٥٢].

والعدل هو أساس الحكم السليم، العدل في القول، والعدل في الحكم، والعدل في الشهادة، والعدل في كل فعل وعمل.

الوصية التاسعة:

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الآية ١٥٢].

والوفاء خلة حميدة، وصفة طيبة من الصفات التي يتحقق بها الخير والصلاح وتستقر عليها أمور الناس.

الوصية العاشرة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الآية ١٥٣].

وهذه الوصية الأخيرة هي الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق. فهي تدعو إلى السير على طريق الله، وشرعة الله، وأوامر الله، والابتعاد عن طرق الشيطان؛ فطريق الله سبيل النجاح في الدنيا والآخرة، وفي سورة الفاتحة:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

ترابط الآيات في سورة «الأنعام»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الأنعام بمكّة بعد سورة الحِجْر، وقد نزلت سورة الحِجْر بعد ثلاث سور من سورة الإسراء، وكان الإسراء، قبل الهجرة إلى المدينة بسنة، فتكون سورة الأنعام من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لأنه فصّل فيها حكم الأنعام من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وتبلغ آياتها خمساً وستين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت سورة الأنعام دُفْعَةً واحدة في ذلك الزمن السابق، وتمتاز بطولها على كل السور المكّيّة ما عدا سورة الأعراف، فكان لها شأنها في ذلك حين نزولها، وقد اهتم النبي (ص) بها، فدعا الكتّاب فكتبوها من ليلتهم؛ والغرض منها، إثبات التوحيد والنبوّة، ودحض مذاهب المُبْطِلِين والمُلْحِدِين، وإبطال ما ابتدعوه من تحليل الحرام، وتحريم الحلال من الطيّبات، تقرّباً لأصنامهم؛ وبهذا ينحصر الغرض منها في هذين المقصدين. وقد ابتدئت بإثبات التوحيد والنبوّة، تمهيداً لمناظرة المشركين فيهما؛ وختمت ببيان أن النبي (ص) ليس في شيء منهم بعد أن قام بإبطال شبهاتهم، وأن ما أتاهم به من التوحيد هو دين أبيهم إبراهيم (ع)؛ وأن الله سبحانه وتعالى ما كان ليتركهم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز - المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

من غير تكليف، وهو لم يخلقهم عبثاً؛ وإنما خلقهم، ليجعلهم خلفاءه في أرضه.

وقد ذُكرت هذه السورة بعد سورة المائدة، لأنها من الطوال مثلها، ولأنه ذُكر فيها كثير من أحكام الحلال والحرام، كما ذُكر في سورة المائدة.

إثبات التوحيد والنبوة
الآيات [١ ـ ٧]

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾، فذكر سبحانه أنه المستحق للحمد، لأنه الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، واستبعد مع هذا أن يسوّي به المشركون أصنامهم التي لا تقدر على هذه الأشياء العظيمة؛ ثم استدل على توحيده أيضاً بخلقه الإنسانَ من طين، وبكونه لا يغيب عن علمه شيء في السماوات والأرض، وما يعمله الناس في سرهم وجهرهم، وما يكسبون من خير وشر؛ ثم ذكر أن النبي (ص) لا يأتيهم بآية من ذلك تدلّ على نبوّته، إلا أعرضوا عنها وكذّبوا واستهزأوا بها؛ وأنه سوف يأتيهم أنباءُ ما يستهزئون به، فيأخذهم بعذابه كما أخذ كثيراً من قرون قبلهم مكّنهم في الأرض مالم يمكّن لهم؛ ثم ذكر أنه بلغ من تعنّتهم على النبي (ص) أنه لو نزّل سبحانه وتعالى عليه ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

شبهتهم الأولى على التوحيد والنبوة
الآيات [٨ ـ ٣٦]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ فذكر أنهم كانوا يقولون، تعنّتاً واستهزاءً، إنه لو كان نبياً لأنزِل عليه مَلَكٌ يصدّقه في ما يدعو إليه من التوحيد والنبوة؛ وقد أجابهم تعالى بأنه لو أنْزَل عليه ملكاً ولم يؤمنوا به لعجّل بإهلاكهم، وهو لا يريد ذلك لهم، وبأنه لو أنزل ملكاً لجعله في صورة البشر ليروه ويسمعوا كلامه، فلا يصدقون أنه ملك، ويعودون إلى اقتراح ما اقترحوه؛ ثم ذكر أن تعجيل الإهلاك هو ما جرت به سُنّته في الأمم التي كانت تقترح الآيات على رُسُلِها تعنّتاً واستهزاء، ثم لا يؤمنون بها؛

وأمرهم أن يسيروا في الأرض، ليروا بأنفسهم كيف كانت عاقبتهم.

ثم بيّن لهم - بعد أن ذكر أنه لا سبيل إلى هذه الآية - آياته على التوحيد، فأمر النبي (ص) أن يسألهم لمن ما في السماوات والأرض؟ وأن يجيبهم بأن ذلك له سبحانه، وحده لا لآلهتهم؛ وبأن له ما سكن في الليل والنهار من الدواب وغيرها؛ ثم أمره أن يقول لهم: إنه لا يمكنه بعد هذا أن يتّخذ غيره سبحانه ولياً من أصنامهم، وإنه قد أمِر أن يكون أوّل من أسلم له ولا يشرك به، وإنه يخاف، إن عصاه، عذاب يوم القيامة؛ ثم ذكر أنه من يصرف عنه هذا العذاب فقد رحمه الله، وأنه إن يَمْسَسْه بِضُرٍّ فلا كاشف له غيره، وإن يمسسه بخير فهو على كل شيء قدير ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم بيّن لهم الأدلة على النبوة، فأمر النبي (ص) أن يسألهم: أي شيء أكبر شهادة؟ وأن يجيبهم بأن الله هو الأكبر شهادة لا غيره منهم ومن آلهتهم، وقد شهد له بالنبوة بما أوحي إليه من القرآن المعجز، وإذا كانوا يشهدون أن معه آلهة أخرى تساويه في الشهادة، فهو لا يشهد معهم بذلك؛ ثم ذكر أنّ أهل الكتاب يشهدون بنبوّته أيضاً، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وأن أولئك المشركين قد ضلوا وخسروا أنفسهم فلا سبيل إلى إيمانهم؛ ثم ذكر أنه لا يوجد أضل منهم لافترائهم شركاء له وتكذيبهم بآياته، وأنه سيحشرهم جميعاً ثم يسألهم عن شركائهم، فينكرون أنهم كانوا مشركين: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم انتقل إلى بيان بعض أسباب كفرهم، فذكر منها أنه جعل على قلوبهم أكنةً وفي آذانهم وقراً، وأنهم إن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها، وليس عندهم إذا جادلوا فيها إلاّ أن يقولوا إنْ هذا إلا أساطير الأولين؛ ثم ذكر أنهم ينهون الناس عن الاستماع إليه، وينأون عنه، ولا يضرّون بهذا إلا أنفسهم؛ وأنهم سيندمون عليه حينما يعرضون على النار، ويتمنّون أن يردّوا إلى الدنيا ليؤمنوا بتلك الآيات التي كذّبوا بها، ولو أنهم ردّوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكذيبهم؛ ثم ذكر من تلك الأسباب أنهم لا يؤمنون إلاّ بالحياة الدنيا، وينكرون أن يكون هناك بعث لهم؛

وذكر أنهم سيبعثون ويعرضون عليه سبحانه، فيسألهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٣٠] فيقرّون به ولا ينكرونه، ويجازيهم على هذا بإذاقتهم عذاب النار؛ ثمّ ذكر أنهم قد خسروا بإنكارهم البعث، وأنهم سيندمون حين تأتيهم الساعة بغتة وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وما أسوأها من أوزار لهم: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾.

ثم ذكر للنبي (ص) أنه يعلم أنه يحزنه الذي يقولون من أن ما أنزل عليه من أساطير الأولين؛ وأنهم لا يكذبونه بهذا، وإنما يكذبون الله، ويجحدون آياته، وأنه قد كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلُ، فصبروا على تكذيبهم حتى نصرهم الله عليهم؛ وأنه إن كان كبر عليه إعراضهم واقتراحهم تلك الآيات، فليبتغ نفقاً في الأرض أو سُلماً في السماء فيأتيهم بها إن استطاع؛ وأنه سبحانه، لو شاء لجمعهم على الهدى من غير آية من الآيات؛ ثم نهاه أن يكون من الجاهلين، فيحزن لإعراضهم، أو يطمع في استجابتهم: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)﴾.

شبهتهم الثانية على التوحيد والنبوة الآيات [٣٧ ـ ٩٠]

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾ فذكر أنهم اقترحوا عليه بعد ذلك آية عذاب، وردّ عليهم بأنه قادر أن ينزل عليهم ذلك، ولكنه لا يريد أن يهلكهم لحكمة لا يعلمها أكثرهم؛ ثم ذكر أنه ما من دابّةٍ في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالهم، لينظروا في آياتها ويتركوا ما يقترحونه من ذلك تعنتاً؛ ثم ذكر أن الذين يكذّبون بآياته في ذلك صمٌّ بكمٌ، وأنه من يشأ يضلله فلا يهتدي بآية من الآيات، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم؛ ثم ذكر لهم أن العذاب الذي يقترحونه لو أتاهم أو أتتهم الساعة، فإنهم لا يدْعون غيره ليكشفه عنهم، وينسون هنالك آلهتهم، فليؤمنوا به من غير أن يقترحوا ذلك العذاب الذي لا يدْعون فيه غيره؛ ثم ذكر أن أُمماً قبلهم اقترحوا على رسلهم مثل ذلك، ولم يؤمنوا به بعد إجابتهم إليه، فأمهلهم ومدّ لهم حبل الطغيان، ثم أخذهم بغتة فإذا هم مُبلِسُون؛ ثم ذكر أنه لو فعل بهم أكثر مما يقترحون

فأخذ سمعهم وأبصارهم؛ وختم على قلوبهم، فإنه لا يقدر غيره على رد ذلك إليهم؛ وأن ذلك العذاب لو نزل بهم فإنه لا يهلك به إلا القوم الظالمون، فليقلعوا عن ظلمهم ولا يقترحوا نزول العذاب عليهم؛ ثم ذكر أنه لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، ليبين أنهم لا قدرة لهم على إنزال تلك الآيات، فمن آمن فلا خوف عليه، ومن كذّب بآياته يمسّه العذاب بفسقه؛ ثم أمر النبي (ص) أن يخبرهم بأنه لم يقل إن عنده خزائن الله، أو إنه يعلم الغيب، أو إنه ملك، حتى يصحّ لهم أن يتعنتوا عليه باقتراح تلك الآيات، وإنّما هو رسول يتّبع ما يوحى إليه، هو من الوضوح كالفرق بين الأعمى والبصير؛ ثم أمره أن ينذرَ به الذين يخافون أن يُحشَرُوا إلى ربّهم ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع، ونهاه أن يطردهم عنه إرضاء لأولئك المتعنّتين؛ ثم ذكر أنه فتنهم بهم ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ والله أعلم حيث يضع هدايته، ثم أمره أن يكرّمهم إذا جاءوه للسلام ونحوه، بعد أن نهاه عن طردهم؛ وذكر أنه يفصّلُ الآيات في ذلك ليظهر الحق له في إيثارهم على الذين يريدون طردهم، ويستبين سبيل أولئك المجرمين المتعنّتين عليهم ثم أمر النبي (ص) أن يخبرهم بأنه نُهِي أن يعبد ما يدعون من دونه، وبأنه لا يتبع أهواءهم في اقتراح الآيات، وبأنه على بيّنة من ربّه، وقد كذبوا به مع قيام هذه البيّنة، وليس عنده ما يستعجلون به من نزول العذاب عليهم، وإنما الحكم له تعالى في أمر عذابهم، ولو أنّ عنده ما يستعجلون به لقُضي بينه وبينهم بإهلاكهم، وعند الله وحده مفاتيح الغيب، فهو الذي يعلم وقت عذابهم؛ ثمّ ذكر كمال علمه وقدرته سبحانه، وأنّه قادر على أن يبعث عليهم عذاباً من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو يَلْبِسَهُمْ شِيَعاً، ويذيق بعضهم بأس بعض؛ وأنهم كذبوا بهذا العذاب، وهو حقّ لا ريب فيه؛ ثم أمر النبي (ص) أن يخبرهم بأنه ليس بوكيل عليهم، ولكلّ نبأ وقت يحصل فيه من غير خُلف.

ثم أمر النبي (ص) إذا رآهم يخوضون في تكذيب آياته أن يعرض عنهم، حتى يخوضوا في حديث غيره؛ وأخبره بأنّ الذين يتقونه من المؤمنين ليس عليهم شيء من حساب تكذيبهم، ولكنه يعظهم بذلك تنزيها لهم عن

سماع باطلهم، ثم أمره أن يترك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً أو خوضاً في تكذيب آياته، وأن يذكّر بها قبل أن ترتهن نفس بما كسبت، ولا ينفعها من دون الله ولي ولا شفيع، ولا يقبل منها فداء عن عذابها، ولأصحابها شراب من حميم وعذاب أليم، بما كانوا يكفرون.

ثمّ أمر سبحانه، النبي (ص) أن يذكر لهم أنه لا يصح له أن يدعو من دونه ما لا ينفع ولا يضر، فَيُرَدُّ على عقبه بعد هدايته له، وأنّ هداه جلّ جلاله هو الهدى، وقد أمر هو وأتباعه أن يسلموا له، وأن يقيموا الصلاة ويتّقوه، وهو الذي يُحْشَرُون إليه، وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وإذا أراد تكوين شيء لا بد من أن يكون، وله الملك يوم يُنفَخُ في الصُورِ، عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير.

ثم نوّه بشأن إثبات التوحيد بالنظر، فذكر أنه طريق إبراهيم (ع)، وساق ما جرى بين إبراهيم وبين أبيه آزَرَ في إنكاره عليه أن يتخذ أصناماً آلهة؛ وذكر سبحانه أنه أراه ملكوت السموات والأرض ليستدل به على توحيده، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الآية ٧٦]، فلمّا غاب علم أنه لا يصلح أن يكون ربا. وكذلك نظر في القمر والشمس، وكان قومه يعبدون هذه الكواكب ويتّخذون لها تماثيل من أصنامهم، فتبرأ من عبادتها، وتوجّه بوجهه لِلّذي فطر السماوات والأرض؛ ثم ذكر أن قومه حاجّوه في ذلك؛ فأنكر عليهم أن يحاجّوه فيه بعد أن اهتدى إليه، ثم نوّه بشأن تلك الحجة النظرية التي اهتدى بها؛ وذكر أنه رفع بها درجته، ووهب له ذرية صالحة قاموا بها بعده، من إسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء؛ ثم ذكر أنّ أولئك الأنبياء هم الذين آتاهم الكتاب والحكمة والنبوة، فإن يكفر بها مشركو العرب فقد وكل بها قوماً ليسوا بها بكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

شبهتهم الثالثة على التوحيد والنبوة
الآيات [٩١ ـ ١٠٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الآية ٩١]. فذكر شبهتهم الثالثة في

إنكار التوحيد والنبوّة، وهي قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الآية ٩١] وفي هذا إنكار للتوحيد أيضاً، لأنهم لم يقدّروا الله فيها حقّ قدره، لأنه لا يليق به أن يخلقهم ويتركهم من غير أن يرشدهم، وقد أمر النبي(ص) أن يسألهم: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٩١] وذكر أنهم جعلوه قراطيس يبدون بعضها، ويخفون منها ما فيه البشارة بالنبي (ص)، وقد علموا من هذا ما لم يعلموه هم ولا آباؤهم؛ ثم أمره أن يخبرهم بأن الذي أنزله هو الله، وحينئذ يبطل قولهم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ثم ذكر أنه أنزل القرآن مصدقاً لهذا الكتاب لينذر مكة ومن حولها، وأن ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الآية ٩٢] لأنه يدعوهم إليها، ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممَن افترى عليه كذباً أو ادّعى أنه يوحى إليه، ولم يوحَ إليه شيء أو أنه يمكنه أن ينزل مثل ما أنزل الله، فكيف يفتري النبي (ص) مثل هذا الكتاب عليه؟ ثم ذكر أنهم في حال الموت يخبرهم الملائكة بأنهم سيُجْزَوْنَ عذابَ الهُونِ بقولهم عليه غير الحقّ، واستكبارهم عن آياته، وأنهم يجيئونه فرادى كما خلقهم أوّل مرة، وليس معهم ما أعطاهم من المال وغيره في دنياهم، ولا شفعاؤهم الذين زعموا أنهم شركاء فيهم.

ثم أخذ في ذكر ما يبطل هذا الزعم، فذكر أنه فالق الحب والنوى، إلى غير هذا ممّا ذكره في إثبات قدرته وعلمه وحكمته، ولا يصح معه أن يكون هناك شريك له؛ ثم ذكر أنهم مع هذا جعلوا له شركاء من الجن، وجعلوا له بنين وبنات من الملائكة وغيرهم، ورد عليهم بأنه بديع السماوات والأرض، فأنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟ إلى غير هذا مما ذكره في الرد عليهم؛ ثم ذكر أنه قد جاءهم من هذا بصائر من ربهم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وأنه كذلك يصرف الآيات حتى تصل إلى نهاية الكمال، ويزعموا أنها نتيجة دراسة وعلم، ثم أمر النبي (ص) أن يتبع ما أوحي إليه من تلك الآيات، ويعرض عن المشركين وما يقترحونه من الآيات على سبيل التعنّت؛ وذكر أنه لو شاء ما أشركوا، وأنه لم يجعله حفيظاً ولا وكيلاً عليهم، فليس عليه إلا أن يبلغهم، ثم نهاهم أن يَسُبُّوا آلهتهم، لئلا يسبّوه عَدْواً بغير علم: ﴿كَذَٰلِكَ

﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾.

شبهتهم الرابعة على التوحيد والنبوة الآيات [١٠٩ ـ ١١٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾ فذكر أنهم أقسموا به جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها، ثم أجابهم بأنه يعلم أنهم لا يؤمنون بها إذا جاءتهم وإن وقع ذلك الحلف منهم، وأنه لو جاءهم بها تتحوّل أفئدتهم وأبصارهم عنها كما تحوّلت عن الآيات التي تتلى عليهم، وأنه لو أجابهم إلى ما يطلبون وزاد عليه بأن حشر عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلاّ بمشيئته، فلا وجه لهم في تعليق إيمانهم على تلك الآيات التي يقترحونها؛ ثم ذكر سبحانه أنه كذلك جعل لكل نبيّ عدوّاً من شياطين الإنس والجن، يزخرف بعضهم إلى بعض بمثل ما زخرف المشركون بقسمهم، ليخدعوا بذلك من ينخدع بهم؛ ثم ذكر أن الدليل على صدقه قد كمل بحكمه به، وهو الحكم الذي لا يطلب بعده حكم، كما كمل بشهادة المؤمنين من أهل الكتاب به، فلا يصحّ أن يلتفت بعد ذلك إلى ما يطلبونه من تلك الآيات، وقد تمّ حكم الله بذلك صدقاً وعدلاً؛ ثم ذكر أنه لا يصح له بعد ذلك أن يطيعهم فيما يقترحون من طلب الآيات، وأنه إن أطاعهم في ذلك يضلّونه عن سبيل الحق ولا يصل إلى ما يريده من إيمانهم، لأنهم لا يتّبعون إلا الظنّ وإنْ هم إلاّ يخرصون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾.

إبطال بدعة لهم في الحلال والحرام الآيات [١١٨ ـ ١٢٣]

ثم قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ فانتقل إلى إبطال بدعة لهم في شركهم، وهي تحليل ما لم يذكر اسم الله عليه من المَيْتة ونحوها تنويعاً لضروب الكلام، وتصريفاً لفنون الجدال، وكانوا يقولون للمسلمين: إنكم تعبدون الله، فما قتله الله أحقّ أن تأكلوه ممّا قتلتموه أنتم. فأمر المسلمين أن يعرضوا عن قولهم ويأكلوا ممّا ذكر اسمه سبحانه عليه؛ ثم ذكر لهم أنه قد

فصّل لهم ما حرّم عليهم ولم يبح لهم الميْتة إلاّ عند الضرورة، وأنّ هؤلاء المشركين يريدون أن يضلّوهم عنه جلّ جلاله بأهوائهم وجهالاتهم؛ ثم أمرهم أن يتركوا ذلك الإثم، ما ظهر منه وما بطن، ونهاهم أن يأكلوا ممّا لم يذكر اسمه عليه، وحذّرهم من الاستماع إلى ذلك الجدال الذي يوحي به شياطين المشركين إليهم؛ ثم ضرب لهم مثلاً ميّز به حال المؤمنين من الكافرين، وهو أنه لا يصحّ أن يجعل من كان ميتاً بالشرك فأحياه الله تعالى بالإيمان كمن غرق في ظلمات الشرك، فصار بحيث لا يمكنه الخروج منها؛ ثم ذكر أنه في هذه الظلمات زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴿١٢٣﴾﴾.

شبهتهم الخامسة على التوحيد والنبوة الآيات [١٢٤ ـ ١٣٥]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٢٤] فذكر شبهتهم الخامسة في إنكار التوحيد والنبوة، وعاد بهذا إلى السياق الأول؛ وقد حكوا عن الوليد بن المغيرة أنه قال: والله لو كانت النبوّة حقاً، لكنت أنا أحقّ بها من محمّد، فإنّي أكثر منه مالاً وولداً. وحكوا عن غيره من المشركين، أنهم قالوا: لن نؤمن حتّى يحصل لنا مثل هذا المنصب. فأجابهم عن ذلك بأنه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الآية ١٢٤]، ثم توعّدهم بأنهم سيصيبهم صَغار عنده على ذلك التعالي، وذكر أن من يرد هدايته يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حَرَجاً، فيتعنّت بمثل ما يتعنّت به أولئك المشركون؛ ثم ذكر جلّ جلاله أن صراطه مستقيم، قد فصّله لمن يتذكرون، وأن لهم دار السلام بما كانوا يعملون؛ ثم ذكر أنه سَيَحْشُرُ أولئك المشركين من الجنّ والإنس، فيخبر الجنّ بأنهم قد أكثروا من الإضلال تبكيتاً لهم، ويبكّت الإنس على قبول إغوائهم، فيجيب الإنس بأنه قد استمتع بعضهم ببعض، وصاروا الآن إلى أجلهم الذي أجّله لهم، فيقضي عليهم بجعل النار مثواهم، وكذلك يجمع بينهم في النار، ويولي بعضهم بعضاً فيها بما كانوا يكسبون. ثم ذكر أنه

يسألهم أيضاً: ألم يأتكم رسل يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ فيعترفون بذلك ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ثم ذكر أن ذلك العذاب، إنما كان بعد بعث الأنبياء، لأنه لا يليق بعد، له أن يهلك القرى قبل تنبيهها من غفلتها، وأنّ ثوابه وعقابه على درجات بقدر الأعمال، وأنه غنيّ ذو رحمة، لو شاء لعجّل لهم العذاب في الدنيا، واستخلف من بعدهم من يشاء من خلقه، وأن ما يوعدون من ذلك لآت، وما هم بمعجزين ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

إبطال بدع لهم في الحلال والحرام الآيات [١٣٦ ـ ١٤٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الآية ١٣٦] فذكر من بدعهم في شركهم، أنهم جعلوا له سبحانه نصيبا مما ذرأ من حرثهم وأنعامهم ونصيباً لآلهتهم، فإن نما نصيب آلهتهم دون نصيبه تركوا نصيبهاً لها، وقالوا لو شاء نمّى نصيب نفسه، وإن نما نصيبه دون نصيبها قالوا لا بد لها من نفقة، فأخذوا نصيبه، فأعطوه لسدنتها. ثم ذكر منها أنهم كانوا ينحرون أولادهم لآلهتهم، وكان الرجل يقوم في الجاهلية فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرنّ أحدهم؛ ثم ذكر منها حَجْرهم لبعض أنعامهم، وتحريم ظهور بعضها، وتحريم ذكر اسم الله على بعضها، وجعل ما في بطون بعضها خالصة لذكورهم محرّماً على أزواجهم، وقتلهم أولادهم سفهاً بغير علم، وتحريمهم ما رزقهم الله من الطيبات افتراء عليه: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ثم بيّن حكمه في ذلك، فذكر أنه سبحانه هو الذي أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات، والنخل والزرع وغيرهما، وأمر الناس أن يأكلوا منها ويؤدوا حقه فيها يوم حصادها؛ ثم ذكر أنه أنشأ من الأنعام حَمولة تحمل أثقالنا، وأنشأ منها فرشاً يفرش للذبح، وأمر الناس أن يأكلوا منها ولا يتّبعوا فيها الشيطان فيما زيّنه من تلك البدع، وذكر أنه أباح من ذلك ثمانية أزواج ذكر وأنثى من كل من الضأن والمعز

والإبل والبقر، ثم توعّدهم على افتراء ما حرّموه منها، وأمر النبي (ص) أن يخبرهم بأنه لا يجد فيما أوحى إليه محرّماً من ذلك، إلاّ أن يكون ميْتة، أو دماً مسفوحاً، أو غير ذلك مما ذكره؛ ثم ذكر أنه حرم على اليهود كل ذي ظُفر وغيره مما حرمه عليهم عقاباً لهم على بغيهم، وتوعدهم إذا كذبوه في ذلك فقال ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾.

شبهتهم السادسة
على التوحيد والنبوة
الآيات [١٤٨ ـ ١٥٨]

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الآية ١٤٨] فذكر شبهتهم السادسة على التوحيد والنبوة، وهي قولهم: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء، وإذا كان ذلك بإرادته كان راضياً عنه. ثم رد عليهم بأن من قبلهم اعتمد على مثل هذا في تكذيب الرسل حتى ذاق عذابه، فعلم أنه كان واهماً. وبأنهم يزعمون ذلك من غير أن يكون عندهم به علم، وبأن الحجة البالغة لله عليهم بمعجزاته التي أيد بها رسله، وبأنه لا أحد يشهد لهم على زعمهم أن الله حرّم ما حرّموه على أنفسهم؛ ثم أمر النبي (ص) أن يتلو ما حرّمه عليهم من الشرك به وما ذكر معه؛ وذكر أن هذا هو صراطه المستقيم الذي يجب عليهم أن يتبعوه ولا يتّبعوا غيره من السبل التي تفرّقهم عن سبيله، وأنه أنزل التوراة على موسى هدى ورحمة لقومه، وأنزل القرآن لئلاّ يحتجّ مَنْ كَفَر بعد التوراة بأنه لم ينزل عليهم كتاب كما أنزل على اليهود والنصارى من قبلهم، وأنه لو أنزل عليهم كتاب لكانوا أهدى منهم؛ ثم ذكر أنه قد جاءهم ذلك الكتاب الذي يقطع عذرهم، وأنه لا يوجد أظلم منهم إذ صدفوا عن آياته بعد أن ظهر صدقها لهم، وأوعدهم على ذلك بما أعده لهم من سوء العذاب؛ وذكر أنهم إذا كانوا ينتظرون بإيمانهم أن تأتيهم الملائكة أو غير ذلك من اقتراحاتهم، فإن إيمانهم لا ينفع في ذلك الوقت ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

الخاتمة

الآيات [١٥٩ ـ ١٦٥]

ثمّ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ فذكر أن النبي (ص) ليس في شيء من أولئك المشركين الذين فرّقوا دينهم، لأنه بلّغهم رسالته، وكل إنسان لا يُسأل إلاّ عن عمله ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الآية ١٦٠] ثم أمره أن يذكر لهم أنّ ما أتى به هو دين أبيهم إبراهيم الذي لم يكن من المشركين، وأنّ صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله الذي لا شريك له، وأنه لا يمكنه أن يطلب الى غيره وهو تعالى ربّ كل شيء، وأنّ الرسول (ص) يتحمل تبعة عمله في ذلك كما يتحملون تبعة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فيحكم بينهم في خلافهم؛ ثم ذكر أنه جلّ وعلا خلقهم ليجعلهم خلائف الأرض، وأنه رفع بعضهم فوق بعض درجات ليبلوهم في ما آتاهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الأنعام»(*)

قال بعضهم: مناسبة هذه السورة لآخر المائدة: أنها افتُتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمتان؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر].

وقد ظهر لي بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه في آية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١٤]. أنه لما ذكر في آخر المائدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة/ ١٢٠] على سبيل الإجمال، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله.

فبدأ بذكر: أنه خلق السموات والأرض، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ في آخر المائدة. وضمن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أول الأنعام أن له ملك جميع المحامد، وهو من بسط: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴿١٢٠﴾﴾ في آخر المائدة.

ثم ذكر سبحانه، أنه خلق النوع الإنساني، وقضى له أجلاً مسمًى، وجعل له أجلا آخر للبعث؛ وأنه جلّ جلاله، منشئ القرون قرناً بعد قرن، ثم قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الآية ١٢]. فأثبت له ملك جميع المنظورات. ثم قال ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ [الآية ١٣] فأثبت له ملك جميع المظروفات

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨.

لظرفي الزمان. ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان، من الدواب والطير، ثم خلق النوم واليقظة، والموت والحياة، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن، من النيرين، والنجوم، وفلق الإصباح، وخلق الحب والنوى، وإنزال الماء، وإخراج النبات والثمار بأنواعها، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات، والأنعام، ومنها حَمُولةً وفَرْشًا. وكل ذلك تفصيل لملكه سبحانه، ما فيهن: وهذه مناسبة جليلة.

ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك، أُكْثِرَ فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ، واقْتُصِرَ فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والكوني، والملكي والشيطاني، والحيواني والنباتي، وما تضمنته من الوصايا، فكلّها متعلّق بالقِوام والمعاش الدنيوي، ثم أشار إلى أشراط الساعة.

فقد جمعت هذه السورة المخلوقات بأسرها، وما يتعلّق بها، وما يرجع إليها، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها.

وهي في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية، نظير سورة البقرة في جمعها العلوم والمصالح الدينية. وما ذكر فيها من العبادات المحضة، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء، كنظير ما وقع في البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على سبيل الاختصار والإشارة.

فإن قلت: فَلِمَ لم يفتتح القرآن بهذه السورة مقدّمة على سورة البقرة، مادام بدء الخلق مقدّماً على الأحكام والتعبُّدات؟.

قلت: للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدّمة على مصالح المعاش والدنيا، وأن المقصود إنما هو العبادة، فقدم ما هو الأهم في نظر الشرع[1]، ولأن علم بدء الخلق كالفَضْلَة، وعلوم الأحكام والتكاليف متعين على كل

(١) ولهذا جاء في البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة/ ٢١] وليس في القرآن غيره بلفظه. قال الكرماني: العبادة في الآية: التوحيد. وهو أول ما يلزم العبد من المعارف. فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد في القرآن، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات (أسرار التكرار في القرآن(٢٢).

واحد. فلذلك ينبغي ألا ينظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ، إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه.

ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر، أكثر إتقاناً مما تقدم. وهو أنه لما ذكر في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [الآية ٨٧] إلى آخره، فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز، ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار في صنيعهم، فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل، ثم جادلهم فيه، وأقام الدلائل على بطلانه، وعارضهم وناقضهم، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة[1] فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال، وتفصيلاً وبسطاً، وإتماماً، وإطناباً.

وافتتحت بذكر الخلق والملك[2]، لأنّ الخالق والمالك هو الذي له التصرّف في ملكه، ومخلوقاته، إباحة ومنعاً، تحريماً وتحليلاً، فيجب ألاّ يُتعدّى عليه بالتصرف في ملكه.

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة، من وجه كونها شارحة لإجمال قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة/ ٢١]. وقوله جلّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة/ ٢٩]. وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران/ ١٤]. وقوله جلّ وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران/ ١٨٥]. وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق، والتقبيح لما حرموه على أزواجهم،

---

(١) وهنا البيان الكامل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الآية ١٣٦] إلى ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الآية الأولى] إلى ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وقتل البنات بالوأد[1].

وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها[2].

وفي افتتاح السور المكية بها وجهان آخران من المناسبة.

الأول: افتتاحها بالحمد.

والثاني: مشابهتها للبقرة، المفتتح بها السور المدنية، من حيث أن كلا منهما نزل مُشيَّعاً. ففي حديث أحمد: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً»[3]. وروى الطبراني وغيره من طرق: «أن الأنعام شيّعها سبعون ألف ملك». وفي رواية: «خمسمائة ملك»[4].

ووجه آخر، وهو: أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد. وهذه للربع الثاني، والكهف للربع الثالث، وسبأ وفاطر للربع الرابع.

وجميع هذه الوجوه التي استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر.

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق، ذُكر فيها ما وقع عند بدء

الخلق، وهو قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الآية ٥٤]. ففي الصحيح: «لما فَرَغَ الله من الخلق، وقضى القضية، كتب كتابا عنده فوق العرش: إنّ رحمتي سبقت غضبي»[5].

---

(١) سبق ما يدل على بدء الخلق، وما حرموه على أزواجهم، أما تقبيح قتل البنات بالوأد فجاء عقبه في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ١٤٠].

(٢) الأطعمة ذكرت هنا مفصلة في قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ [الآية ١٤١] إلى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٢٦ عن معقل بن يسار. وأخرج أوله الترمذي: ٨/ ١٨١ بتحفة الاحوذي. والدارس في فضائل القرآن عن ابن مسعود: ٢/ ٤٤٧، ونزول الملائكة معها أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦/ ٣١١ وعزاه للطبراني.

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر: ٧/ ١٩، ٢٠ وفيه (أنزلت جملة واحدة) وفيه (لهم زجل بالتسبيح والتحميد). وعزاه للطبراني وقال: فيه يوسف الصفار، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: متروك. (العلل المتناهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطي عن ابن الصلاح في فتاواه رواية تخالف ذلك: أنها لم تنزل جملة، بل نزلت منها آيات بالمدينة، قيل: ثلاث، وقيل: غير ذلك (الاتقان: ١/ ١٣٧).

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق: ٤/ ١٢٩، وفيه (كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش).

مكنونات سورة «الأنعام»(*)

١ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الآية ٨].

سمّى ابنُ إسحاق من القائلين: زَمْعةَ بنَ الأسود، والنَّضر بنَ الحارث ابن كَلَدة، وعَبْدَة بنَ عبد يَغُوث، وأُبَيَّ بنَ خَلَف، والعاصي بنَ وائل. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٢ ـ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الآية ٥٢].

نزلت في نَفَر، سُمّيَ منهم: صُهيب، وبلال، وعمّار، وخَبّاب، وسعد بنُ أبي وقّاص، وابنُ مسعود، وسلمان الفارسي؛ كما خَرّجْتُه في «أسباب النزول»(١).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) قال السيوطي في «لباب النقول في أسباب النزول»: ٢٢٦ ـ ٢٢٧: «روى ابن حبان، والحاكم عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة: أنا، وعبد الله بن مسعود، وأربعة قالوا لرسول الله (ص): اطردهم، فإنا نستحي أن نكون تبعاً لك كهؤلاء، فوقع في نفس النبي(ص) ما شاء الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

روى أحمد، والطبراني، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله (ص) وعنده خباب بن الأرت، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا، لو طردت هؤلاء لاتبعناك، فأنزل الله فيهم القرآن».

قلت: في «صحيح مسلم» في كتاب الفضائل، أثر سعد الأول. الذي أورده السيوطي في «أسباب النزول». والخبر الثاني عن ابن مسعود، أخرج نحوه أبو يعلى وابن أبي شيبة عن خباب، بسند صحيح، كما في «المطالب العالية»: (٣٦١٨)؛ والبزار، كما في «كشف الأستار بزوائد البزار» ٣/ ٤٨ = رقم: ٢٢٠٩، وانظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٣٩٢.

٣ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ [الآية ٧٤].

قال ابنُ عباس: اسمه تارح[١]. أخرجه ابنُ أبي حاتِم، من طريق الضَّحَّاك عنه.

وأخرج عن السُّدِّي مثله[٢].

٤ ـ ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الآية ٧٦].

قال زَيْد بنُ علي: هو الزُّهَرَة.

وقال الزُّهري[٣]: هو المشتري.

أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

٥ ـ ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية ٨٩].

يعني: أهل مكة[٤].

---

(١) كذا في «الحاوي للفتاوي».

(٢) ساق السيوطي الأدلة بأن (آزر) ليس أبا إبراهيم في رسالته «مسالك الحنفا في والدي المصطفى»: المتضمنة في كتابه «الحاوي للفتاوي» ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٢٣ وفي «الدر المنثور» ٣/ ٢٣.

قال في «الحاوي للفتاوي» ٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

«.. وهذا القول، أعني أن آزر ليس أبا إبراهيم، ورد عن جماعة من السلف. أخرج ابن المنذر بسند صحيح عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قال: «ليس آزر بأبيه، إنما هو إبراهيم بن تيرح أو تارح».

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن السدي أنه قيل له: اسم أبي إبراهيم آزر؟! فقال: بل اسمه تارح.

وقد وُجِّه من حيث اللغةُ بأن العرب تطلق لفظ الأب على العم إطلاقاً شائعاً، وإن كان مجازاً وفي التنزيل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة/ ١٣٣] فأطلق على إسماعيل لفظ الأب، وهو عم يعقوب، كما أطلق على إبراهيم وهو جده».

غير أن من العلماء مَنْ يرى غير ذلك، فيقول ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٧/ ١٥٩: «أولى القولين بالصواب منهما عندي قول من قال: هو اسم أبيه. لأن الله تعالى أخبر أنه أبوه، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم دون القول الآخر الذي زعم قائله أنه نعت، فإن قال قائل: فإن أهل الأنساب إنما ينسبون إبراهيم إلى تارح فكيف يكون آزر اسماً له، والمعروف به من الاسم تارح؟ قيل له: غير محال أن يكون له اسمان كما لكثير من الناس في دهرنا هذا، وكان ذلك فيما مضى لكثير منهم، وجائز أن يكون لقباً والله تعالى أعلم».

وفي «البحر المحيط» ٤/ ١٦٤ لأبي حيّان: «قيل: إن آزر عم إبراهيم وليس اسم أبيه وهو قول [بعضهم]، يزعمون أن آباء الأنبياء لا يكونون كفاراً، وظواهر القرآن ترد عليهم، ولا سيما محاورة إبراهيم مع أبيه في غيرما آية».

(٣) الزهري: محمد بن مسلم بن شهاب الزهري: فقيه حافظ، متفق على جلالته وإتقانه، ومن أوائل مُدَوِّني الحديث الشريف، توفي سنة (١٢٥) وقيل غير ذلك.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الفقرة التالية.

٦ - ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الآية ٨٩].

يعني: أهل المدينة، والأنصار.

أخرجه ابنُ أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس[(١)].

وأخرج عن أبي رجاء العُطاردي[(٢)]: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ قال: هم الملائكة.

٧ - ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الآية ٩١].

قال ابنُ عباس: قال ذلك اليهود[(٣)].

وقالَ مُجاهِد: مشركو قريش. وقال السُّدِّي: فِنْحاص اليهودي.

وقال سعيد بن جُبير: مالك بن الضَّيْف[(٤)].

أخرجهم ابنُ أبي حاتم[(٥)].

٨ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية ٩٣].

قال السُّدِّي: نَزَلَتْ في عبد الله بن أبي سَرْح.

٩ - ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الآية ٩٣].

قال قَتَادة: نزلت في مُسَيْلِمة، والأسْود العَنْسي[(٦)].

١٠ - ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الآية ٩٣].

قال الشَّعْبِي[(٧)]: هو عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

١١ - ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الآية ١٢٢].

قال زَيْد بن أسْلم وغيره: نزلتْ في عُمَرَ بن الخطاب.

وقال عِكْرِمة: في عمّار بن ياسر.

١٢ - ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الآية ١٢٢].

---

(١) انظر «تفسير الطبري» ٧/ ١٧٤.

(٢) أبو رجاء العُطاردي: عمران بن مِلْحان، مخضرم، ثقة، مُعَمَّر، مات سنة (١٠٥) هـ وله مئة وعشرون سنة.

(٣) أخرجه الطبري ٨/ ١٧٧، وابن المنذر، وأبو الشيخ. «الدر المنثور» ٣/ ٢٩.

(٤) وقيل: «الصيف» بالصاد المهملة؛ والوجهان جائزان كما في «سيرة ابن هشام» ١/ ٥١٤.

(٥) انظر «تفسير الطبري» ٥/ ١٧٦.

(٦) توفي مسيلمة الكذاب بن ثمامة عام (١٢) هـ، وأما الأسود العنسي. فهو عَيْهَلَةُ بن كعب، وهو أول من ارتد عن الإسلام؛ فقد توفي سنة (١١) هـ.

(٧) الشَّعْبي: عامر بن شراحيل، أبو عمرو، ثقة مشهور، وفقيه فاضل، مات بعد المئة، وله نحو ثمانين من العمر.

قال الضَّحاك وزيد: نزلت في أبي جهل.

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم(١).

١٣ ـ ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [الآية ١٢٧].

قال قَتادة: هي الجَنَّة. أخرجه ابنُ أبي حاتم(٢).

١٤ ـ ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الآية ١٥٦].

قال ابنُ عباس: هم اليهود، والنَّصارى. أخرجه ابنُ أبي حاتم(٣).

١٥ ـ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الآية ١٥٨].

هو طُلُوع الشمس من مَغْربها؛ كما وَرَدَ في حديث مرفوع عند «مسلم» وغيره(٤).

وقال ابن مسعود: طلوع الشمس، والقمر من مغربهما. أخرجه الفِرْيابي(٥).

١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الآية ١٥٩].

قال النبي (ص): «هم الخوارج».

---

(١) انظر «تفسير الطبري» ٨/١٧. وفي «الإتقان» ٢/ ١٥٠ في قوله تعالى ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٢٤] قال: سُمي منهم: أبو جهل والوليد بن المغيرة.

(٢) انظر «تفسير الطبري» ٨/ ٢٥.

(٣) و«الطبري» ٨/ ٦٩.

(٤) أخرج البخاري: (٦٥٠٦) في الرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت رآها الناس وآمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. . » الخ.

وقد أخرج نحوه: مسلم وأبو داود والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وعبد الرزاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي، في «شعب الإيمان» كما في «الدر المنثور» ٣/ ٥٧.

وروى الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ٦٤ ـ رقم (١٦٤) عن أبي هريرة عن النبي (ص) في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قال: طلوع الشمس من مغربها.

قال الحافظ في «فتح الباري» ١١/ ٣٥٣: قال ابن عطية: في هذا الحديث ـ أي حديث البخاري دليل على أن المراد بـ «بعض» في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ طلوع الشمس من المغرب، وإلى ذلك ذهب الجمهور، انتهى.

وقد ذكر المحدث السيد محمد بن جعفر الكتاني في كتابه «نظم المتناثر»: ١٤٧ أن أحاديث طلوع الشمس من المغرب وردت من طريق (١٤) صحابياً، فجعلها بذلك من قسم المتواتر.

(٥) وسعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ وعبد بن حميد. «الدر المنثور».

أخرجه ابنُ أبي حاتم من حديث أبي أُمَامَة[١].

وأخرجه الطبراني[٢] من حديث عائشة، بلفظ: «هم أصحاب البِدَع، والأهْوَاء».

وقال قَتَادَة: هم اليهود، والنَّصارى. أخرجه عبد الرزاق[٣].

وأخرج ابنُ أبي حاتم مثله عن السُّدِّي.

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ١٩٦: «لا يصح».

(٢) في «المعجم الصغير» ونصه: عن عمر بن الخطاب أن رسول الله (ص) قال لعائشة: «يا عائشة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ هم أصحاب البدع، وأصحاب الأهواء، ليس لهم توبة وأنا منهم بريء، وهم مني براء». قال الهيثمي: إسناده جيد.

وأخرج نحوه أيضاً الطبراني في «المعجم الاوسط» عن أبي هريرة كما في «مجمع الزوائد» ٧/ ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) و«الطبري» ٨/ ٧٧.

لغة التنزيل في سورة «الأنعام»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الآية ٦].

أقول: دلالة القَرْن على الزمان مشهورة وحدُّه عشر سنين أو عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو خمسون أو ستون أو سبعون أو ثمانون أو مائة أو مائة وعشرون. والغالب هو مائة سنة.

والعدد الأخير هو المعروف في عصرنا، وليس شيئاً من المقادير الأخرى، فيقال القرن الرابع عشر الهجري، وحدُّه من ١٣٠١ إلى ١٤٠٠.

ولكن للقرن دلالات أخرى في العربية القديمة، فهو الأُمّة من الناس هلكت، ولم يبق منها أحد، وهذا متحقّق في الآية موضع بحثنا، كما هو متحقق في آيات أخرى منها: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس/١٣].

ولعل سبب إطلاق القرن على الأُمّة، وعلى قدر من السنين في الوقت نفسه مردّه إلى علاقة أحدهما بالآخر بنوع من الاتّصال والملابسة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الآية ٢٥].

أي: ومنهم من يستمع إليك حين تتلو القرآن. رُوي أنّه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنضر، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله (ص) فقالوا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

للنضر: يا أبا قتيلة، ما يقول محمّد؟ فقال: والذي جعلها بيتّه، يعني الكعبة، ما أدري ما يقول، إلاّ أنّه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما حدّثكم عن القرون الماضية. فقال أبو سفيان: إنّي لأراه حقّاً. فقال أبو جهل: كلاّ، فنزلت الآية. والأكنّة: الأغطية، وهي جمع كِنان.

والمعنى غُطّيتْ قلوبهم بأغطية لئلاّ يفقهوا آيات الله، أي: لكي لا يفقهوها أقول: حُذفت لام التعليل كما حُذفت أداة النفي «لا» قبل الفعل «يفقهوه» للعلم به من قرينة الحال، وهذا نمط من إيجاز لغة التنزيل، وهو معرض من معارض البلاغة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الآية ٢٧].

والمعنى: ولو ترى إذ أُرُوا النّارَ....

إن الفعل: «وقف» في الآية مبني للمفعول.

والفعل وَقَفَ، والمصدر وَقْف ووُقوف، خلاف الجلوس وهو لازم، تقول: وَقَفَت الدابّةُ تقف وقوفاً.

ووَقَفْتُ الدابّةَ وَقْفاً، أي: وَقَّفْتُها أو أوقَفتها، وهو فعل مُتعدٍّ نعرفه كثيراً في الأدب القديم، قال امرؤ القيس:

وُقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم
يقولون لا تَهلِكْ أسىً وتَجَمَّلِ

ومثل قول طرفة:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم
يقولون لا تَهلِكْ أسىً وتَجَلَّدِ

ومن ذلك قول النابغة:

وَقَفتُ فيها سَراةَ اليوم أسألُها
عن حال نُعْمٍ أموناً عبرَ أسفارِ

هذا هو «وقف» الفعل المتعدي، وهو ما لا وجود له في العربية المعاصرة، بل عُدِل عنه إلى المزيد فيقال: أوقَفت السيّارة، ومثله المضاعف: وَقَّفتها.

على أن الفعل في الآية موضع بحثنا «وُقِفوا» بمعنى أُرُوا وأُدخِلوا النار فعرفوا مقدار عذابها، كما تقول: وقفت على ما عند فلانٍ، تريد قد فهمته وتبيّنتُه.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

إنّ الأداة «قد» في ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ من

الآية بمعنى «رُبّما»، الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته، كقول زهير:

أخو ثقةٍ لا تُهلِكُ الخَمرُ مالَه
ولكنّه قد يُهلكُ المالَ نائِلُهْ

وقد علق الشيخ أحمد بن المنير الإسكندري في حاشيته «الارتشاف» فقال: ومثلها، (أي: مسألة «قد») في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف/٥] فإنه يكثر علمهم برسالته، ويؤكدهُ بظهور آياته، حتّى يقيم عليهم الحجّة في جمعهم بين متناقضَيْن: أذيّته، ورسوخ علمهم برسالته.

ومنه أيضاً قول الشاعر:

قد أتركُ القِرْنَ مصفرّاً أناملهُ

أقول: هذه الفائدة من خصائص العربية في اللغة القديمة، أي: أن «قد» تدخل على الفعل المضارع، وتفيد التكثير، بعكس الشائع الكثير وهو التقليل.

أقول: قد يكون بقي شيء من إفادة التقليل لـ «قد» مع المضارع في اللغة العربية المعاصرة، إلاّ أن إفادة التكثير لا نجد له مكاناً وذلك لأن المعربين من الأدباء وغيرهم قد أضاعوا الكثير من خصائص هذه وجهلوا مكانها.

ومن المفيد أن نقف عند قول الزمخشري: أن «قد» في «قد نعلم» بمعنى «رُبّما».

أود أن أقول: إن «ربّما» تفيد التقليل، وهي كذلك في العربية القديمة ولكنها تفيد التكثير أيضاً. فماذا بقي منها في العربية المعاصرة؟ لم يبق من ذلك إلا إفادة التقليل وقد يضاف إلى التقليل، الشك والاحتمال الضعيف[1].

وفي هذه الآية جاء: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾.

وهمزة «إن» مكسورة وقد جرينا في العربية على فتح الهمزة، إذا صحّ أن تُؤوّل هي ومعمولاها بمصدر في موضع المفعول به للفعل «نعلم».

غير أن القراءة جرت بالكسر: وهذه سنةٌ متبعة وعلينا قبولها، ولا يصح سبكها بالمصدر ثم الفعل «يَحْزُنُ» مثل «ينصُرُ»، وقُرِئَ أيضاً بضم الياء.

والقراءة بالفتح هي المثبتة، وهي الشهيرة، على أن الفعل ثلاثي «حَزَنَ يَحزُن» والفعل متعدٍّ.

(١) انظر: مسألة «رب»، ومسائل أخرى لابن السيد البطليوسي (نشر مجمع اللغة العربية في دمشق ١٩٦٠).

أقول: وكون هذا الفعل متعدّياً، معروف مشهور في العربية القديمة، ولا وجود له في العربية المعاصرة؛ فإذا أريد تجاوزه إلى المفعول به، قالوا «أحْزَنَ» مزيداً بالهمزة.

وجاء في «الصحاح» أنّ «حَزَن» لغة قريش، و«أحزَنَ» لغة تميم. والمصدر الحُزْن. وأمّا الحَزَن فمصدر «حَزِنَ» اللازم.

أقول:

لم أهتدِ في استقرائي منذ زمان بعيد إلى استعمال «حزن» المتعدي بصيغة المضي، فكلّ الذي وجدته من نصوص هو استعمال «يَحْزُنُ»، ويؤيّد دعواي هذه ما ورد في لغة التنزيل، فقد جاء الفعل متعدّياً بصيغة «يَفْعُلُ» في تسع آيات، منها قوله تعالى:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الآية ٥٩].

أريد أن أقف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فأقول: هذا هو أسلوب القرآن يأتي الفعل بعد أداة الاستثناء في الجملة الحالية، وليس من واوٍ كما نجد عند المعربين، ولا سيما في عصرنا الحاضر، يقال:

ما رأيته إلا ووَجدْتهُ مشغولاً بمسألة مشكلة.

وكأن الأسلوب الفصيح القول: ما رأيته إلا وَجدته مشغولاً بمسألة مُشكلة.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الآية ٦٥].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ بمعنى أن يخلطكم فِرَقاً مختلفين على أهواءٍ شتّى، كلُّ فرقةٍ منكم مشايعة لإمام. ومعنى خَلطهم: أن ينشبَ القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال.

وكتيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبةٍ
حتى إذا التَبَسَت نَفَضْتُ لها يَدي[1]

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٣.

واللَّبْسُ واللُّبْسُ: اختلاط الأمر، ولَبَسَ عليه الأمرَ يَلبِسهُ لَبْساً فالتَبَس، إذا خَلَطَه عليه حتى لا يعرِف جهتَه.

وعلى هذا، فُرِّق بالفعل بين معنى الخلط وبين قولهم: لبِسَ الثوب فهذه الأخيرة مثل «عَلِمَ»، والتي تفيد الخلط مثل «ضَرَبَ». كما فرّق بالمصدر، فمصدر قولهم: لَبِسَ الثوب «اللُّبْس» بضم اللام، أما ما يفيد الخلْط فهو «اللَّبس» بفتح اللام.

وقالوا: لابَسَ الرجلُ الأمرَ بمعنى خالطه ولابَسْت فلاناً: عرفتُ باطنه.

أقول: هذه هي الملابسة، أمّا أن يُراد بها الالتباس كما في اللغة المعاصرة، فهو أمر جديد حدث عن طريق الاتساع، لأنّ الكلمة تفيد المخالطة. وقد كنا عرضنا لشيءٍ من مادة «لبس».

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الآية ٦٨].

المراد بقوله تعالى: ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: في الاستهزاء بها والطعن فيها.

أقول: جاءت مادة «الخوض»، فعلاً، ومصدراً، واسم فاعل في إحدى عشرة آية، وفي جميعها قد انصرف «الخوض» إلى الدخول في الباطل وما لا ينبغي، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الطور].

غير أننا نجد «الخوض»، مستعملاً في العربية المعاصرة غير متصف بهذه الخصوصية المعنوية، فهو عام يكون في الخير والشر، والحق والباطل، يقال مثلاً: «كنا نخوض في مختلف الشؤون»، والشؤون تكون حقاً وباطلاً، وقد تكون كلها حقاً. وهذا يعني أن المعربين قد جهلوا الكثير من خصائص هذه اللغة العريقة.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الآية ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، أي: بالقرآن، والمراد بـ ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ أي: مخافة أن تُسلم النفس إلى الهلكة والعذاب، وتُرْتَهَن بسوء كسبها. وأصل الإبسال: المَنْعُ، لأن المُسلَم إليه يمنَعُ

المُسلِم، قال عوف بن الأحوص الباهلي:

وإبسالي بنيّ بغير جُرْم
بَعَوناه ولا بدَم مُراقِ[1]

ومنه: هذا عليك بَسْلٌ، أي: حرام محظور.

وأبسَلْت فلاناً: أسلمتهُ للهلاك فهو مُبْسَلٌ.

ومثل هذا قوله تعالى من الأنعام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ [الآية ٧٠].

أي: أُسلِموا بجرائمهم، وقيل: ارتُهِنُوا، وقيل أهلكوا[2].

أقول: وهذا من الكلم الشريف الذي اشتملت عليه لغة القرآن، وليس لنا شيء منه في العربية المعاصرة.

إننا لم نعرف في عربيتنا المعاصرة من مادة «بسل» إلا الباسل والبَسالة فنقول: الجيش الباسل، وأبدى المحارب بسالةً، ولا نعرف الفعل «بَسُلَ».

٩ - وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾ [الآية ٧٣].

ورد «الصُّور» في عشرٍ من الآيات، وفي جميعها يرد الفعل «نُفِخَ ويُنفَخ» بالبناء للمفعول، فما الصوُر هذا؟

وفي «الصّور» قولان أحدهما: أنه بفتح الواو جمعاً لصورة، كما في قراءة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ١٠٢﴾ [طه].

والثاني: أنه القَرْن الذي ينفخ فيه.

أقول: وأما من قال: إن الصُّور «بفتح الواو» هو المراد، وهو جمع صورة، فهو أبو علي.

وقال أبو الهيثم: اعترض قوم فأنكروا أن يكون الصُّور قرناً، كما أنكروا العرش والميزان والصِّراط، وادّعوا أن الصُّور جمع الصورة كما أن الصُّوف جمع الصُّوفة، والثُّوم جمع الثُّومة، ورَوَوا ذلك عن أبي عبيدة. قال أبو الهيثم وهذا خطأ فاحش، وتحريف لكلمات الله، عزّ وجلّ، عن مواضعها لأن الله، سبحانه، قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر/٦٤] ففتح الواو.

(١) الكشاف ٢/٣٦.

(٢) اللسان (بسل).

قال: ولا نعلم أحداً من القرّاء قرأها: (فأحسَنَ صُوَرَكم)، وكذلك قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف/٩٩]، فمن قرأ: (ونُفِخَ في الصُوَر)، أو قرأ: (فأحْسَنَ صُوْرَكم) فقد افترى الكذب وبدّلَ كتاب الله.

أقول: وأنا أميل إلى قول أبي علي عن أبي عبيدة وهو أن «الصور» جمع صورة كالصوف جمع صوفة، أو أنه «الصُوَر» جمع الصورة، وذلك يُبعد عنا فكرة التجسيم والتمثيل التي تكون في «القرن» ينفخ فيه.

١٠ ـ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الآية ٨٠].

الكلام على ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ فالنون مكسورة، والأصل: «وقد هداني» والياء مطلوبة لأنها ضمير المتكلم وهي المفعول به، وقد حذفت هذه الياء واجتزئ عنها بكسرة قصيرة. أقول: «قصيرة» لأنها حركة قصيرة بالقياس إلى الياء التي هي كسرة أو حركة طويلة.

ولماذا هذا الاجتزاء؟ سبب ذلك أن الوقف الجائز بعد ﴿هَدَىٰنِ﴾ يسوّغه وجود حركة قصيرة؛ ولو كانت طويلة، لما حَسُن الوقف، لأن الوقف على النون الساكنة، أوقع على السمع من الوقف على الياء، أي: المدّ الطويل؛ كما هو أحسن من الوقف على الكسر، وهذا من لطائف حسن الأداء، الذي تقتضيه قراءة القرآن، وإحسان تلك القراءة.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الآية ٩٠].

الكلام على ﴿ٱقْتَدِهْ﴾، والهاء فيها صوت اقتضاه الوقف الذي هو أولى من الوصل في هذه الآية، وذلك أن الوقف لو كان على «الدال» لوجب إسكان الدال، وبذلك يختلّ الفعل، ويلتبس معناه بالأمر من «اقتاد»، فجيء بالهاء وهو صوت حلقي يحسن السكوت عليه؛ ألا ترى أن العرب في باب النداء والندبة والاستغاثة، وقفوا على الهاء فقالوا يا غوثاه، ويا زيداه، وواحرَّ قلباه، وغير ذلك.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الآية ٩١].

والمعنى: ما عظّموا الله حقّ تعظيمه.

وقال الخليل: ما وصفوه حقّ صفته.

أقول: هذا هو «القَدْر» بمعنى التعظيم الذي تحوّل إلى «التقدير» في لغة المعاصرين، يقولون: فلان حظيَ بالتقدير والاحترام. على أن «التقدير» في فصيح العربية القديمة ليس من هذا، وتقدير الله الخلقَ، تيسيرُه كلاًّ منهم، لِما علم أنهم صائرون إليه من السعادة والشقاء، كذا قال المفسّرون؛ والتقدير أيضاً تعيين المقدار والدرجة والحدّ.

قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصّلت/ ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ [المدثّر].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس/ ٣٩].

وقال تعالى: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان].

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الآية ٩٣].

أقول: واسم الفاعل «باسطو» مضاف إلى معموله، والمعنى يبسُطون أيديهم، وهذا يعني أن الدلالة الزمنية هي حكاية الحال الماضية، ومن أجل ذلك وجبت الإضافة، ولم يجب النصب، وقد كنا أشرنا إلى هذا الموضوع وأوضحناه.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الآية ٩٤].

أريد أن أقف على قوله تعالى ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والمضاف إلى المصدر حكمه حكم المصدر مفعولاً مطلقاً.

أقول: دَرَجَ المعاصرون على جَرّ «أوّل» باللام فيقولون: حَدَثَ لأوّل مرّة، والفصيح: حَدَثَ أوّلَ مرّة.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الآية ٩٥].

اسم الفاعل في الآية أضيف إلى معموله، وامتنع النّصب. وانظر الآية: ٩٣.

١٦ ـ وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ١٠١].

قالوا: من إضافة الصفة المشبّهة إلى فاعلها، كقولك: فلان بديعُ الشّعر، أي: بديعٌ شعرُه. كقولك: فلان ثَبْتُ الغدر، أي: ثابتٌ فيه، والمعنى أنه عديم النّظير والمِثْل فيها.

وقيل: البديعُ بمعنى المبدع[1].

(١) «الكشاف» ٢/ ٥٣.

أقول: إن قولهم: البديعُ بمعنى المبدع أكثر وجاهة، وذلك لأنّ المبدع هو الموجد، والخالق، والبادئ، وأن بَدَأ وبَدَعَ وبَدَهَ واحد في الأصل والمعنى واحد. وعلى هذا فالمبدعُ، مقابلاً للبديع في الآية، يعضده الاشتقاق.

١٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٠٩﴾﴾.

أقول القسم في غاية الإغلاظ.

وقد كنت عرضت للآيات المصدَّرة بـ «لئن» وأشرنا إلى اللام أنها موطئة للقسم، ومن أجل ذلك فالفعل بعدها جواب للقسم، وقد أُكِّد بالنون لأنه الجواب المتصل باللام، المثبت المستقبل في دلالته الزمنية.

وعلى هذا، فأسلوب المعاصرين ومن سبقهم ممن أشرنا إليهم من الشعراء، غير فصيح، في جعل الجواب للشرط، يدل عليه اقترانه بالفاء التي هي فاء الجزاء. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، بمعنى (وما يُدريكم)، أن الآية التي تقترحونها ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية، ويتَمنَّون مجيئها. فكأنه، عزَّ وجلّ، قال وما يُدريكم أنهم لا يؤمنون. على معنى أنكم لا تدرون ما سَبَقَ علمي به من أنهم لا يؤمنون به.

ألا تَرَى إلى قوله تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الآية ١١٠].

وقيل: «أنّها» بمعنى «لعلّها» من قول العرب: ائتِ السوق أنّك تشتري لحماً.

وقال امرؤ القيس:

عُوجا على الطَّللِ المُحيلِ لأنّنا[1]
نَبكي الدِّيارَ كما بَكى ابنُ خُذامِ

ويُقوّيها قراءة أُبيّ: (لعلّها اذا جاءت لا يؤمنون).

وقُرِئ بالكسر على أن الكلام قد تَمَّ قبله بمعنى: وما يُشعِرُكم ما يكون منهم[2].

(١) لأنّا بفتح اللام والهمزة، بمعنى لعلّنا.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٥٧.

١٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الآية ١٣٨].

أقول: حِجْر بمعنى محجور مثل الذِّبح والطِّحن، وهذا باب كبير في العربية، وهو ما جاء على «فِعْل» بكسر فسكون ومعناه مفعول.

ولعل هذه الأبنية السماعية التي تؤدّي ما تؤدّيه الأبنية القياسية، قد سَبقت الأبنية القياسية، ومن أجل ذلك احتفظت العربية ببقاياها. ألا ترى أن «فُعْلة» في كثير من الألفاظ تؤدّي معنى «مفعول»، نحو اللُّقمة والكُسْوة والضُحكة ونحو ذلك، ومثل ذلك ما ورد على «فَعَل» بفتحتين كالحَلَب والسَلَب والجَلَب والعَلَل والنَّهَل.

١٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الآية ١٣٩].

قال الزمخشري[1]: كانوا يقولون في أجنّة البحائر والسوائب: ما وُلِدَ منها حَيّاً، فهو خالص للذكور، لا تأكل منه الإناث.

وأُنِّث لفظ (خالصة) للحمل على المعنى، لأنّ (ما) في معنى الأجنّة، وذُكِّرَ لفظ (محرّم) للحمل على اللفظ.

ويجوز أن تكون التاء في «خالصة» للمبالغة مثلها في راوية الشعر. وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص، كالعاقبة، أي: ذو خالصة.

أقول: ولا أرى قوله الثاني في أن التاء للمبالغة وجيهاً، والوجه الأول هو الحسَنَ والصواب، وذلك أن لغة القرآن هي لغة العرب، وقد درج العرب على مراعاة اللفظ مرّةً ومراعاة المعنى أخرى؛ فإذا اقتضت الحال المراعاة مرّتين، حُمِلَ عليهما للتجانس؛ وأظن أن هذه هي الحكمة اللطيفة، التي جرت عليها لغة القرآن، والله تعالى أعلم.

ويحسن أن نشير إلى قول الزمخشري «البحائر والسوائب» بشيء من الشرح فنقول:

أقول: البَحِيرة والسائبة من قوله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة/ ١٠٣].

(١) «الكشاف» ٢/ ٧١.

قيل: البَحِيرة من الإبل التي بُحِرَت أذنُها، أي: شُقَّتْ طولاً، ويقال: هي التي خُلِّيَت بلا راعٍ.

وقال الأزهري، قال أبو إسحاق النحْويّ: أثبَتُ ما رَوَيْنا عن أهل اللغة، في البَحيرة، أنها الناقة كانت إذا نُتِجَت خمسةَ أبطن فكان آخرها ذكراً، بَحروا أُذُنَها، أي: شَقّوها، وأعفَوا ظهرها من الركوب والحَمْل والذبح، ولا تُحَلأُ عن ماءٍ ترده، ولا تُمْنَعُ من مَرْعًى، وإذا لَقِيَها المُعْيي المُنَقْطَعُ به لم يَرْكَبْها.

وقيل: البَحِيرة الشاة إذا وَلَدَت خمسة أبطن، فكان آخرها ذَكَراً، بَحَرُوا أذنَها، أي: شقّوها وتُركَت فلا يَمَسُّها أحدٌ.

قال الأزهري: والقول هو الأوّل لما جاء في حديث أبي الأحوص الجشمي عن أبيه، أن النبيّ (ص) قال له: أربُّ إبلٍ أنت أم رَبُّ غَنَم؟ فقال: من كلٍّ قد آتاني الله فأكثر، فقال: هل تُنْتَج إبلُكَ وافيةً آذانُها فتشُقُّ فيها وتقول: بُحُرٌ؟ يريد جمع البَحِيرة.

أقول: وهذا من عاداتهم ومُعتَقَدهم الذي دَرَجوا عليه بالباطل فجاء الإسلام وأبطله.

وأمّا «السائبة» فهي أن الرجل في الجاهلية كان إذا قدِم من سَفَرٍ بعيد، أو بَرِئ من عِلَّةٍ، أو نَجّته دابّةٌ من مَشَقّةٍ أو حرب قال: ناقتي سائبة، أي: تُسَيَّب فلا يُنْتَفَعُ بظهرها، ولا تُحَلأُ عن ماءٍ، ولا تُمْنَعُ من كَلأٍ، ولا تُركب.

وقيل: بل كان ينزعُ من ظهرها فِقارةً أو عظماً فتُعرف بذلك؛ فأُغير على رجلٍ من العرب، فلم يَجد دابةً فركِبَ سائبةً، فقيل: أتركبُ حَراماً؟ فقال: يركَبُ الحرامَ من لا حَلال له، فذهبت مثلاً[1].

وجاء في الصحاح: السائبة الناقة التي كانت تُسَيَّب في الجاهلية، لِنَذْرٍ ونحوه[2].

وهذه أيضاً آبدة من أوابدهم التي درَجوا عليها، وسنأتي إلى الوصيلة فنقول: الوَصيلة كانت في الشاءِ خاصّة، فكانت الشاةُ إذا وَلَدت أنثى فهي لهم، وإذا وَلَدت ذكراً فهو

(١) «اللسان» (سيب).

(٢) «الصحاح» (سيب).

لآلهتهم، فإذا وَلَدَت ذَكَراً وأنثى، قالوا: وَصَلتْ أخاها فلم يذبَحوا الذَّكَر لآلهتهم، هذا هو قول المفسّرين للآية.

وقال غيرهم:

الوصيلة الناقة التي وصلت بين عَشرَةِ أبطُن، وهي من الشاء التي وَلَدَت سبعة أبطن عَناقَيْن عناقين، فإن وَلَدَت في السابع عَناقاً، قيل: وصلت أخاها، فلا يَشرب لَبَنَ الأمّ إلاّ الرجالُ دونَ النساء، وتجري مجرى السائبة.

وقال أبو عرفة: الوصيلة من الغنم كانوا إذا وَلَدَت الشاةُ ستّةَ أبطن، نظروا، فإن كان السابع ذَكَراً ذُبِحَ، وأكَلَ منه الرجال والنساء، وإنْ كانت أنثى تُركَت في الغنم، وإن كانت أنثى وذكراً، قالوا: وَصَلَت أخاها فلم يذبح، وكان لَبَنُها حَراماً على النساء.

على أن في الوصيلة أقوالاً أخرى ليست بعيدة عن هذه الرسوم الجاهلية. وأما الحامي: فهو الفَحل من الإبل يضرِب الضِّرابَ المعدود، قيل: عشرة أبطن، فإذا بلغ ذلك قالوا: هذا حامٍ، أي: حَمَى ظهرَه فيُترَك فلا ينتفع منه بشيء ولا يمنع من ماءٍ ولا مرعًى.

وقد أبطل الإسلام هذه الرسوم الجاهلية، وجعلها حلالاً كغيرها من الحَلال، وبذلك صَرَّحَت الآية.

٢٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الآية ١٤٢].

قال الفراء: «الحَمُولة» ما أطاق العَمَلَ والحَمْل. و«الفَرْش»: الصِّغار.

وقال أبو إسحاق: أجمع أهل اللغة على أن الفَرْش صغار الإبل.

وقال بعض المفسّرين: «الفَرْش» صِغار الإبل، وإن البَقَر والغَنَم من الفرش، والذي جاء في التفسير يدلّ عليه قوله عزّ وجل ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ [الآية ١٤٣] فلما جاء هذا بدلاً من قوله تعالى: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ جعله للبقر والغنم مع الإبل[1].

٢١ ـ وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

أريد أن أقف قليلاً على «الدراسة»، وينبغي أن أرجع إلى الآية ١٠٥ من هذه السورة، وهي:

(١) «اللسان» (فرش).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.
وقد قُرِئتْ هذه الآية: (وليقولوا دارسْتَ). والمعنى كما قالوا: دَرَستَ كتب أهل الكتاب؛ وأمّا دارست أي: ذاكرتَهم. وقُرِئ: (دَرَسَتْ) و(دَرُسَتْ)، أي: هذه أخبار قد عَفَتْ وامَّحَتْ.

أقول: وهذه القراءة الأخيرة لا تعدل قوّة القراءة الأولى ووضوحها، التي اتّفق أكثر القرّاء وأهل العلم عليها.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: (دارست)، وفسّرها: قرأتَ على اليهود وقرأوا عليك.

وقُرِئ: (دُرِسَتْ) أي: قُرِئَت وتُلِيَت.

والمصدر في هذا الفعل بمعنى القراءة الدَّرْس كالمصدر في «دَرَس» بمعنى «عَفا وامَّحى». أما الدراسة بمعنى القراءة، فهي خاصة بهذه الدلالة. والدَّرْس بمعنى القراءة من الأصول القديمة في مجموعة اللغات السامية، ومن المعلوم أن المدراش عند العبرانيين هو البيت الذي يدرسون فيه، نظير «المدرسة» في العربية التي استحدثت للمكان في العصور الإسلامية.

ودلالة الدرس على القراءة لها شواهد من كلام الله العزيز، كقوله:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [القلم].

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [سبأ/ ٤٤].

المعاني اللغوية في سورة «الأنعام»(*)

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ﴾ [الآية ٦] ثم قال في الآية نفسها ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ كأنه أخبر النبي (ص) ثم خاطبه معهم كما قال سبحانه ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس/٢٢] فجاء بلفظ الغائب، وهو يخاطب، لأنه هو المخاطب.

فأمّا قوله عزّ وجلّ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الآية ٢] فـ (أجلٌ) على الابتداء وليس على ﴿قَضَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [الآية ١٢] بنصب لام (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) لأن معنى (كَتَبَ) كأنه قال «والله لَيَجْمَعَنَّكُمْ» ثم أبدل فقال تعالى في الآية نفسها: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لَيَجْمَعَنَّ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم(١).

وقال تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ [الآية ١٤] على النعت. وقرأ بعضهم (فاطرُ) بالرفع على الابتداء أيْ: هُوَ فاطرُ(٢).

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في المشكل ١/ ٢٤٧ وإعراب القرآن ١/ ٣٠٧ والبحر ٤/ ٨٣ وشرح الرضي ١٤٧؛ ونقله في البيان ١/ ٣١٥ والإملاء ١/ ٢٣٦ والجامع ٦/ ٣٩٦.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٣٠٧ نقل وجهي النصب والرفع، والقراءة بالجرّ هي في البحر ٤/ ٨٥ إلى الجمهور؛ وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٨ بلا نسبة، وفي الكشاف ٢/ ٩ بلا نسبة، والإملاء ١/ ٢٣٦ بلا نسبة. والقراءة بالرفع، هي في البحر ٤/ ٨٥ إلى ابن أبي عبلة؛ وفي معاني القرآن ١/ ٣٢٨ بلا نسبة، وانظر ما سبق. وقراءة النصب في معاني القرآن ١/ ٢٣٦ و١/ ٣٢٨ بلا نسبة، وعدّه في الإملاء شذوذاً قرئ به؛ وأورده في الجامع ٦/ ٣٩٧ إعرابا لا قراءة.

وقال تعالى ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ﴾ [الآيــة ١٤] أي: وقيل لي: «لا تَكُونَنَّ».

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ [الآيــة ٢٣] عــلــى الصفة[1]. وقرأ بعضهم (رَبَّنا)[2] على: يا ربّنا. وأمّا (واللهِ) فبالجرّ على القسم، ولو لم تكن فيه الواو نصبت فقلت «اللهَ رَبَّنا». ومنهم من يجرّ بغير واو لكثرة استعمال هذا الاسم؛ وهذا في القياس رديء. وقد جاء مثله شاذاً قولهم[3] [من الرجز وهو الشاهد التاسع والثمانون بعد المئة]:

وَبَلَدٍ عامِيَةٍ أَعْماؤُهُ[4]

وإنّما هُوَ: رُبَّ بَلَدٍ وقال[5]: [من الوافر وهو الشاهد التسعون بعد المئة]:

نَهَيْتُكَ عَنْ طِلابِكَ أُمَّ عَمْرٍو
بِعاقِبَةٍ[6] وَأَنْتَ إِذٍ صَحِيحُ

يقول: «حِينَئذٍ» فالقى «حينَ» وأضمرها[7]. وصارت الواو عِوَضاً من «رُبَّ» في «وَبَلَدٍ». وقد يضعون «بَلْ» في هذا الموضع. قال الشاعر[8]: [من الرجز وهو الشاهد الحادي والتسعون بعد المئة]:

ما بالُ عَيْنٍ عَنْ كَراها قَدْ جَفَتْ
مُسْبِلَةً تَسْتَنُّ لَمّا عَرَفَتْ

(١) في الطبري ١١/ ٣٠٠ قراءة الخفض إلى عامّة قرّاء المدينة وبعض الكوفيين والبصريين، وفي السبعة ٢٥٥ إلى ابن كثير ونافع وعاصم وأبي عمرو وابن عامر، وفي الكشف ١/ ٤٢٧، والتيسير ١٠٢ إلى غير حمزة والكسائي، وفي البحر ٤/ ٩٥ إلى السبعة ما عدا الأخوين، وفي معاني القرآن ١/ ٣٣٠ بلا نسبة.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٣٠ إلى علقمة بن قيس النخعي، وفي الطبري ١١/ ٣٠٠ إلى جماعة من التابعين وهي قراءة عامة قراء أهل الكوفة، وفي السبعة ٢٥٥، والكشف ١/٤٢٧، والتيسير ١٠٢ إلى حمزة والكسائي، وفي البحر ٤/ ٩٥ إلى الأخوين. وانظر الخزانة ٣/ ١٤٨ و١٤٩، وشرح المفصل ٣/ ٢٩ و٩/ ٣١٥، واللسان أذذ.

(٣) القائل هو رؤبة بن العجاج، مجموع أشعار العرب ٣، والصحاح واللسان «عمي»، وقيل هو العجاج، المقاييس «عمي» ٤/ ١٣٤.

(٤) في شذور الذهب ٣٢٠، وأوضح المسالك ٥٥٣: وبلد مغبرّة أرجاؤه.

(٥) هو أبو ذؤيب خويلد بن خالد بن محرث الهذلي؛ ديوان الهذليين ١/ ٦٨، والخزانة ٣/ ١٤٧، ومختار الصحاح والصحاح واللسان أذذ.

(٦) في المرتجل ١٠ «بعافية» وكذلك في مختار الصحاح، والبيت بعد في الخصائص ٢/ ٣٧٦.

(٧) نقله في الخزانة ٣/ ٤٨ و١٤٩، وشرح المفصل ٣/ ٢٩ و٩/ هـ ٣١، واللسان أذذ.

(٨) هو سؤر الذئب أخي بني مالك بن كعب بن سعيد. اللسان «حجف» و «بلل»، ومعجم ألقاب الشعراء ١٢١.

داراً لِلَيْلى بَعْدَ حَوْلٍ قَدْ عَفَتْ
بَلْ جَوْزِ تَيْهاءَ كَظَهْرِ الحَجَفَتْ[1]

فيمن قال «طَلْحَتْ»[2]

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الآية ٢٥] وواحد «الأَكِنَّةِ»: الكِنان. و«الوَقْرُ» في الأُذن بالفتح، و «الوِقْرُ» على الظهر بالكسر. وقال يونس[3] «سألتُ رؤبة»[4] فقال: «وَقِرَتْ أُذُنُهُ» «تَوْقَرُ» اذا كان فيها «الوَقْرُ». وقال أبو زيد[5]: «سمعت العرب تقول: «أُذُنٌ مَوْقُورَةٌ»فهذا يقول: «وُقِرَتْ». قال الشاعر[6] [من الرمل وهو الشاهد الثاني والتسعون بعد المئة]:

وَكَلامٍ سَيِّءٍ قَدْ وُقِرَتْ
أُذُنِي[7] مِنْهُ وَما بِي مِنْ صَمَمْ

وقال تعالى ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فبعضهم يزعم أنَّ واحدَه «أُسطُورَة» وبعضهم «إِسْطارَة»[8]، ولا أُراه إلاّ من الجمع الذي ليس له واحدٌ، نحو «عَبادِيد» و «مَذاكِير» و «أَبابِيل»[9]. وقال بعضُهم: «واحد الأَبابيل»: إِبِّيل، وقال بعضهم: إِبَّوْل» مثل: «عِجَّوْل» ولم أجد العرب تعرف له واحداً[10]. فأمّا «الشَّماطِيطُ» فإنهم يزعمون أنّ واحده «شِمْطاط». وكل هذه لها واحد

(١) وردت المصاريع الأربعة مسلسلة في الصحاح «حجف»، ووردت حسب تسلسلها في اللسان «حجف» الأول والرابع والخامس والثاني عشر في أرجوزة، وورد المصراع الرابع وحده وهو موضع الشاهد في الإنصاف ١/ ٩٠٢، والخصائص ١/ ٣٠٤ و٢/ ٩٨، وشرح المفصّل لابن يعيش ٢/ ١١٨ و٤/ ٦٧ و٨/ ١٠٥ و٩/ ٨١، والمخصص ٩/ ٧ و١٦/ ٨٤ و٩٦ و١٢٠.

(٢) أفيدت المعاني عن «بل» ونطق هاء التأنيث تاء في المراجع السابقة، أو نقلت ومن قسم فيها، ومما جاء في «اللهجات» ٣٩٣ و٣٩٤، يفاد ان نطق هاء التأنيث تاء لغة حمير وطي.

(٣) هو يونس بن حبيب النحوي، وقد مرت ترجمته قبل.

(٤) هو رؤبة بن العجّاج الراجز المشهور، وترجمته وأخباره في الأغاني ٢١/ ٨٤، والشعر والشعراء ٢/ ٥٩٤، وطبقات فحول الشعراء ٢/ ٧٦١.

(٥) هو أبو زيد الانصاري النحوي، وقد مرت ترجمته قبل.

(٦) هو المثقّب العبدي، راجع شعر المثقب العبدي ٤٦، والخزانة ٤/ ٤٣١، واللسان «زعم».

(٧) في شعر المثقّب بـ «عنه أذناي» وفي المصادر الأخرى كلها بـ «أذني عنه».

(٨) نقله باجتزاء في الجامع ٦/ ٤٠٥ وزاد المسير ٣/ ١٩.

(٩) نقله في زاد المسير ٣/ ١٩.

(١٠) نقله في الصحاح «أبل» وعزاه في اللسان «أبل» إلى الجوهري.

إلاّ أنه ليس يستعمل، ولم يُتَكَلَّمْ به لأنّ هذا المثال لا يكون إلاّ جميعاً. وسمعت العرب الفصحاء يقولون: «أَرْسَلَ إِبِلَهُ أَبابِيلَ[1]» يريدون «جماعات» فلم يُتَكَلَّمْ لها بواحد.

وأمّا قوله تعالى ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الآية ٢٦] فانه من: «نَأَيْتُ» «يَنْأى» نَأْياً».

وقال تعالى ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾ نصب لأنّه جواب للتمني[2] وما بعد الواو كما بعد الفاء، وإن شئت رفعت[3] وجعلته على مثل اليمين، كأن القول «وَلاَ نُكَذِّبُ واللهِ بآياتِ رَبِّنا وَنكُونُ واللهِ مِنَ المُؤْمنين»[4]. هذا إذا كان هذا الوجه منقطعاً من الأول. والرفع وجه الكلام، وبه نقرأ الآية. وإذا نصب جعلها واو عطف، فكأنهم قد تمنّوا ألاّ يكذبوا وأن يكونوا[5]. وهذا، والله أعلم، لا يكون، لأنهم لم يتمنّوا الإيمان، إنّما تمنّوا الردّ، وأخبروا أنهم لا يكذبون، ويكونون من المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ من «وَزَرَ» «يَزِرُ» «وِزْراً» ويقال أيضاً: «وُزِرَ» فـ «هُوَ مَوْزُورٌ». وزعم يونس[6] أنّ الاثنين يقالان.

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ [الآية ٣٣] بكسر «إِنَّ» لدخول اللام الزائدة بعدها.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى

---

(١) نقل في الصحاح واللسان «أبل».

(٢) نقله في المحتسب ١/ ١٩٢ و٢٥٢؛ والنصب في الطبري ١١/ ٣١٨ قراءة منسوبة إلى بعض قراء الكوفة؛ وفي المصاحف ٦١ إلى عبد الله؛ وفي السبعة ٢٥٥ إلى حمزة وإلى عاصم وابن عامر في رواية؛ وفي البحر ٤/ ١٠١ أهمل عاصماً وزاد حفصاً، وفي الكشف ١/ ٤٢٧، والتيسير ١٠٢، والجامع ٦/ ٤٠٩، اقتصر على حمزة وحفص؛ وفي حجّة ابن خالويه ١١٢ بلا نسبة. وفي الكتاب ١/ ٤٢٦ إلى عبد الله بن أبي اسحاق.

(٣) في الطبري ١١/ ٣١٨ إلى عامّة قراء الحجاز والمدينة والعراقيين، وأن بعض قراء أهل الشام قرأ برفع نكذب ونصب نكون. وفي السبعة ٢٥٥ إلى ابن كثير وأبي عمرو والكسائي وإلى عاصم وابن عامر في رواية. وفي الكشف ١/ ٤٢٧ والتيسير ١٠٢ إلى غير حمزة وحفص. وفي الجامع ٦/ ٤٠٩ إلى أهل المدينة والكسائي وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم، وإلى ابن عامر وإلى عبد الله بن مسعود بـ «فلا»؛ وفي البحر ٤/ ١٠٢ إلى ابن عامر في رواية هشام، وإلى السبعة غير من ذكر.

(٤) نقله في زاد المسير ٣/ ٢٣.

(٥) نقله بعبارة مغايرة في المحتسب ١/ ١٩٢ و١٩٣ و٢٥٢.

(٦) انظر ترجمته فيما سبق.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ قال العرب: «قَدْ أَصَابَنا من مَطَرٍ» و «قَدْ كانَ مِنْ حَديثٍ»(١).

وقال تعالى: ﴿نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ٣٥] فـ «النَّفَقُ» ليس من «النَّفَقَةِ» ولكنه من «النَّافِقَاءِ»، يريد دخولاً في الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الآية ٣٨] يريدُ: جماعة أمة.

وقال سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ٣٥] ولم يقل «فَافْعَلْ» بل أضمَر. وقال الشاعر(٢) [من الخفيف وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد المئة]:

فَبِحَظٍّ مِمَّا نَعِيشُ ولا تَذْ
هَبْ بِكَ التُّرَّهاتُ في الأَهْوالِ

فأضمر فَعِشْ أو فعيشي.

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الآية ٤٠] فهذا الذي بعد التاء من قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ إنما جاء للمخاطبة. وتركت التاء مفتوحة كما كانت للواحد، وهي مثل كاف «رُوَيْدَكَ زَيْداً» اذا قلت: «أَرْوِدْ زَيْداً». فهذه الكاف ليس لها موضع فتسمّى بجرّ ولا رفع ولا نصب، وانما هي من المخاطبة مثل كاف «ذاك». ومثل ذلك قول العرب: «أَبْصِرْكَ زَيْداً» يدخلون الكاف للمخاطبة، وإنّما هي «أَبْصِرْ زيداً».

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الآية ٤٦] ثم قال ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الآية ٤٦] بحمله على السمع، أو على ما أخذ منهم.

قال تعالى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ بالنصب جواباً لقوله جلّ وعلا ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الآية ٥٢].

وفي الآية الرابعة والخمسين قراءتان الأولى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ [الآية ٥٤](٣)

---

(١) نقله في الإملاء ١/ ٢٤٠ والبحر ٤/ ١١٣ والبيان ١/ ٣٢٠.

(٢) هو عبيد بن الأبرص، وقد سبق الاستشهاد بهذا الشاهد والكلام عليه قبل.

(٣) في الطبري ١١/ ٣٩٣ إلى بعض المكّيين وعامة قراء أهل العراق من الكوفة والبصرة. وفي السبعة ٢٥٨ إلى ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي؛ وكذلك في الكشف ١/ ٤٣٣، والتيسير ١٠٢، والجامع ٦/ ٤٣٦، والبحر ٤/ ١٤١، وزاد فيه الأعرج برواية.

و﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[1] فـ (أَنَّهُ) بدلٌ من (الرَّحْمَةَ) أي: كَتَبَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ. وأمّا (فإنّه)[2] فعلى الابتداء أي: فَلَه المغفرة والرَّحْمَةُ فَهوَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[3]. وقرأ بعضهم (فَأَنَّهُ) أراد به الاسم وأضمر الخبر. أراد «فأنَّ»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ورد تأنيث السبيل، على لغة أهل الحجاز[5] وقرأ بعضهم ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾[6] يعني النبيّ (ص). وقرأ بعضهم (وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلُ)[7] في لغة بني تميم[8].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ [الآية ٥٦] قراءة أخرى هي ضَلِلْتُ[9]. فمن قرأ ﴿ضَلَلْتُ﴾ فمن تَضِلُّ[10]؛ ومن قرأ «ضَلِلت» فمن تَضَلُّ[11].

---

(١) في الطبري «كالسابق» إلى بعض الكوفيين، وفي السبعة، والكشف والتيسير، والجامع، والبحر «كالسابق» إلى عاصم وابن عامر، وزاد في البحر الأعرج في رواية، وعليها رسم المصحف.

(٢) وخرج عن هذا نافع وحده اذ قرأ بفتح الهمزة في «أنه» اولا وكسرها في «فانه» المراجع السابقة.

(٣) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣١٥.

(٤) عبارة غير بيّنة المعنى والتعليل وفي الأصل فإن.

(٥) في الطبري ١١/ ٣٩٥ إلى بعض المكيين وبعض البصريين، وفي الكشف ١/ ٤٣٤ والتيسير ١٠٣ إلى غير ابي بكر وحمزة والكسائي، وفي البحر ٤/ ١٤١ إلى العربيين وابن كثير وحفص.

(٦) وعلى هذه القراءة يجب فتح اللام، في «سبيل» وهي قراءة نافع كما في التيسير ١٠٣ والسبعة ٢٥٨ والكشف ١/ ٤٣٤.

(٧) في الطبري ١١/ ٣٩٥ إلى عامة قراء أهل الكوفة، وفي السبعة ٢٥٨ إلى حمزة والكسائي، وإلى عاصم في رواية، وفي الكشف ١/ ٤٣٣، والتيسير ١٠٣ والبحر ٤/ ١٤١، أهمل عاصماً وأبدل به أبا بكر.

(٨) أشارت كتب اللغة الى التأنيث والتذكير في لفظ «السبيل» ولم تعزهما لغتين المذكر والمؤنث للفراء ٨٧، والتذكير والتأنيث ١٦، والمذكر والمؤنث للمبرد ١١٥، والبلغة ٦٧، ونسبها كالأخفش في «لهجة تميم ٣١٧».

(٩) في الطبري ١١/ ٣٩٧ أنّ القراء بها قليلون، وفي الشواذ ٣٧ نسبت إلى يحيى وابن أبي ليلى، وفي الجامع ٦/ ٤٣٨ إلى يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف، وروي عن أبي عمرو أنها لغة تميم. وفي البحر ٤/ ١٤٢ إلى السلمي وابن وثاب وطلحة.

(١٠) في الطبري ١١/ ٣٩٧ إلى عامة قراء أهل الأمصار، وفي الجامع ٦/ ٤٣٨ إلى الجمهور وأنها لغة الحجاز.

(١١) في الجامع أن باب «فرح» لغة تميم، وباب «ضرب» لغة الحجاز؛ وفي الصحاح «ضلل» أن باب ضرب لغة نجد وهي الفصيحة؛ وأن لأهل العالية لغة أخرى هي من باب «حسب»، وما في اللسان «ضلل» عن كراع، أن باب «فرح» و«حسب» لغة تميم، وعن اللحياني أن باب «فرح» لغة أهل الحجاز، وأن باب «ضرب» لغة تميم. وفي «لهجة تميم ١٩٥» أن باب ضرب لغة نجد وباب فرح لغة أهل الحجاز والعالية، وأن باب ورث لغة تميم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴿٥٩﴾﴾ بالجر على (مِنْ) أو بالرفع على (تَسْقط)[1]، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ على الابتداءِ، وَتَقْطَعُهُ من الأول.

وقال تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الآية ٦٣] وقال أيضاً ﴿وَخِيفَةً﴾ [الأعراف/٢٠٥]. و«الخُفْيَةُ»: الإخفاء و«الخِيفَةُ» من الخَوْف والرَّهْبَة.

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الآية ٦٥] لأنها من «لَبَسَ» «يَلْبِسُ» «لَبْساً».

وقال تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الآية ٧٠] وهي من «أَبْسَلَ» «إِبْسالاً».

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ [الآية ٧٠].

﴿حَيْرَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ [الآية ٧١] «فَعْلان» له «فَعْلى» فهو لا ينصرف في المعرفة ولا النكرة.

وأمّا قَوْلُه تعالى: ﴿إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ [الآية ٧١] فإنّ الألف التي في (ٱئْتِنا) ألف وصل ولكن بعدها همزة من الأصل هي التي في «أَتى» وهي الياء التي في قولك «إِيتِنا»، ولكنها لم تهمز حينما ظهرت ألف الوصل. لأن ألف الوصل مهموزة اذا استؤنفت، فكرهوا اجتماع همزتين.

وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٧١﴾﴾ يقول: «إنّما أُمِرْنا كَيْ نُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمين» كما قال ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿١٢﴾﴾ [الزمر] أي: إنما أُمِرت بذلك.

ثم قال تعالى ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الآية ٧٢] أي: وَأُمِرْنا أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ واتَّقوهُ. أوْ يَكُونُ وصلَ الفِعْلَ باللام، والمعنى: أُمِرْتُ أنْ أكُونَ. والوصل باللام أيضاً في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الآية ٧٣] أضيف (يَوْم) إلى (كُنْ فَيَكُونُ) وهو نصب وليس له خبر ظاهر، والله أعلم. وهو على ما فسّرت لك.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾

---

(١) في الشواذ ٣٧ إلى ابن أبي اسحاق، وفي البحر ٤/١٤٦ أنّ رفع «رطب» و «يابس» قراءة الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميفع، وفي معاني القرآن ١/٣٣٨ بلا نسبة قراءة. وفي المشكل ١/٢٥٥ إلى الحسن وابن أبي إسحاق، وفي الكشاف ٢/٣١ بلا نسبة.

[الآية ٧٣] وقرأ بعضهم (يَنفُخُ) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الآية ٧٣][1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الآية ٧٤] قرئ ﴿ءَازَرَ﴾ بالفتح بدلاً من ﴿أبيه﴾[2]. وقد قرئت رفعاً على النداء[3] كأنه قال «يا آزرُ». وقال الشاعر [من الرجز وهو الشاهد الثالث والتسعون بعد المئة]:

إنَّ عَلَيَّ اللهَ أنْ تُبَايِعَا
تُقْتَلَ صُبْحاً أوْ تَجِيءَ طائِعا[4]

فأبدل «تُقْتَلَ صُبْحاً» من «تُبَايِعَ».

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الآية ٧٦] قرأ[5] بعضهم: (أَجَنَّ). وقال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الرابع والتسعون بعد المئة]:

فَلَمَّا أجَنَّ اللَّيْلُ بِتْنا كَأَنَّنا
عَلَى كَثْرَةِ الأَعْداءِ مُحْتَرِسَانِ

وقال [من الرجز وهو الشاهد الخامس والتسعون بعد المئة]:

أَجَنَّكَ اللَّيْلُ وَلَمَّا تَشْتَفِ

فجعل «الجَنَّ» مصدرا لـ «جَنَّ». وقد يستقيم أنْ يكون «أَجَنَّ» ويكون هذا مصدره، كما قال «العَطاء» و«الإعطاء». وأما قوله تعالى: ﴿أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٣٥] فإنهم يقولون في مفعولها: «مَكْنونٌ» ويقول بعضهم «مُكَنٌ» وتقول: «كَنَنْتُ الجارِيَةَ» إذا صُنتها و: «كَنَنْتُها مِن الشَّمسِ» و «أَكْنَنْتُها مِن الشَّمْسِ» أيضاً. ويقولون «هِيَ مَكْنُونَة» و «مُكَنَّة»[1]

---

(١) إشارة إلى معنى كون الرفع في «عالم» على الفاعلية لـ «ينفخ» بالبناء للمعلوم، انظر الجامع ٧/ ٢١.

(٢) وعليها في الطبري ١١/ ٤٦٧ قراءة عامة قراء الأمصار، وفي البحر ٤/ ١٦٤ إلى الجمهور، وفي معاني القرآن ١/ ٣٤٠ بلا نسبة، وكذلك في البيان ١/ ٣٢٧، والإملاء ١/ ٢٤٨.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٤٠، أنها قراءة بعضهم، وفي الطبري ١١/ ٤٦٧ إلى أبي زيد المديني والحسن البصري وفي المحتسب ١/ ٢٢٣ إلى أُبيّ وابن عباس والحسن ومجاهد والضحّاك وابن يزيد المدني ويعقوب وسليمان التيمي، وفي الجامع ٧/ ٢٣ إلى ابن عباس وأبي يعقوب وغيرهما، وفي البحر ٤/ ١٦٤ الى أُبيّ وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم، واقتصر في المشكل ١/ ٢٥٨ على يعقوب، وفي الكشاف ٢/ ٣٩، والبيان ١/ ٣٢٧، والإملاء ١/ ٢٤٨.

(٤) في الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٧٨ وشرح الأبيات للفارقي ٩٤، وشرح ابن عقيل ٢/ ٢٠٠، والخزانة ٢/ ٣٧٣، والمقاصد النحوية ٤/ ١٩٩، بـ «تؤخذ كرها» بدل «تقتل صبحا».

(٥) في معاني القرآن ١/ ٣٤١ بلا نسبة قراءة، وفي الطبري ١١/ ٤٧٨ و٤٧٩، والجامع ٧/ ٢٥ أنه لغة ولم ينسب قراءة.

وقال الشاعر [من البسيط وهو الشاهد السادس والتسعون بعد المئة]:

قَدْ كُنتُ أُعْطِيهُمُ مَالِي وَأَمْنَحُهُمْ
عِرْضِي وَعِنْدَهُمُ في الصَّدْرِ مَكْنُونُ

لأنَّ قَيْساً تقوله: «كَنَنْتُ العِلْمَ» فهو «مَكْنُونٌ». وتقول بنو تميم «أَكْنَنْتُ العِلْمَ» فـ «هُوَ مُكَنٌّ»، و «كَنَنْتُ الجارِيَةَ فَـ «هِيَ مَكْنُونَةٌ». وفي كتاب الله عز وجل: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة/٢٣٥] وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات] وقال الشاعر[٢] [من الكامل وهو الشاهد السابع والتسعون بعد المئة]:

قَدْ كُنَّ يَكْنُنَّ[٣] الوُجُوهَ تَسَتُّراً
فَاليومَ[٤] حينَ بَدَوْنَ[٥] لِلنُّظَّارِ

وقيسٌ تنشد «قَدْ كُن يُكْنِنَّ».

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الآية ٧٦] فهو من «يَأْفِلُ» «أُفُولاً».

وأما قوله تعالى، كما ورد في التنزيل حكاية على لسان إبراهيم (ع) يقول للشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الآية ٧٨] فقد يجوز على «هذا الشيءُ الطالِعُ رَبّي»[٦].

أَوْ على أنّه ظهرت الشمس وقد كانوا يذكرون الربَّ في كلامهم، قال لهم: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾. وإنما هذا مَثَلٌ ضربه لهم ليعرفوا إذا هو زال أنه ينبغي ألاّ يكون مِثْلُهُ إلهاً، وليدلّهم على وحدانية الله، وأنه ليس مثله سبحانه، شيء. وقال الشاعر [من الرجز وهو الشاهد الثامن والتسعون بعد المئة]:

مَكَنْتَ حَوْلاً ثُمَّ جِئْتَ قَاشِرا
لاَ حَمَلَتْ مِنْكَ كِراعٌ حَافِرا

قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الآية ٨٤] يعني: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[١]

---

(١) لم ينسب اللسان والصحاح «كنن» اللغتين، وإن أشار إليهما.

(٢) هو الربيع بن زياد الشاعر الجاهلي، أحد الكملة أولاد فاطمة بنت الخرشب، شعر الربيع بن زياد ٣٩٣، والأغاني ١٦/٢٨.

(٣) في الخصائص ٣/٣٠٠، والشعر والأغاني بـ «يخبأن»، وفي مجالس العلماء ١٤٤ بـ «يكتن»، المزيد بالهمزة.

(٤) في الخصائص ومجالس العلماء بـ «فالآن».

(٥) في الخصائص: «بدأن» وفي مجالس العلماء «بدين».

(٦) نقله في زاد المسير ٣/٧٦، والبحر ٤/١٦٧، وأشرك معه الكسائي في إعراب القرآن ١/٣٢٢، والجامع ٧/٢٧ و٢٨.

وكذلك ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الآية ٨٥].

و﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ [الآية ٨٦][2] وقرأ بعضهم: (وَٱللَّيْسَع)[3] ونقرأ بالخفيفة.

وقال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الآية ٩٠]. بالوقف على هاء (اقْتَدِه) وكلّ شيء من بنات الياء والواو في موضع الجزم، فالوقف عليه بالهاء، ليلفظ به كما كان.

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى﴾ [الآية ٩٢] بالرفع على الصفة، أو بالنصب على الحالية لـ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

وقال تعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الآية ٩٣] فنراه يريد: يقولون ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ والله أعلم. وكأن في قوله ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ دليلاً على ذلك لأنه قد أَخْبَرَ أنهم يريدون منهم شيئاً.

قرئ قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الآية ٩٦] بجعله مصدراً من «أَصْبَحَ»[4]. وبعضهم يقرأ (فالِقُ الأَصْباحِ)[5] على أنها جمع «الصُّبْح».

وقال تعالى ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الآية ٩٦] أي: بِحِساب. حُذِفت الباء، كما من قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الآية ١١٧] أي: أعْلَمُ بمن يَضِلّ. و«الحُسْبانُ» جماعة «الحِساب» مثل «شِهاب» و«شُهْبان»[6]، ومثله ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن] أي: بحساب.

---

(١) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٢٤.

(٢) في الطبري ١١/ ٥١٠ قراءة عامة قراء الحجاز والعراق، وفي السبعة ٣٦٢ إلى ابن كثير ونافع وعاصم وأبي عمرو وابن عامر، وفي الكشف ١/ ٤٣٨، والتيسير ١٠٤ إلى غير حمزة والكسائي، وفي الجامع ٧/ ٣٢ الى أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم، وفي البحر ٤/ ١٧٤ إلى الجمهور، وفي حجة ابن خالويه ١١٩ بلا نسبة.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٤٢ إلى أصحاب عبد الله، وفي الطبري ١١/ ٥١١ إلى جماعة من قرأة الكوفيين، وفي السبعة ٢٦٢ والكشف ١/ ٤٣٨ والتيسير ١٠٤ إلى حمزة والكسائي، وفي البحر ٤/ ١٧٤ إلى الأخوين، وفي الجامع ٧/ ٣٢ و٣٣ إلى الكوفيين، إلاّ عاصماً، وخص منهم الكسائي؛ وفي حجة ابن خالويه ١١٩، بلا نسبة.

(٤) في الجامع ٧/ ٤٥ نسبها قراءة إلى ابراهيم النخعي برواية الأعمش، وفي الطبري ١١/ ٥٥٥، إلى الضحّاك ومجاهد وقتادة وابن عباس وابن زيد، وفي معاني القرآن ١/ ٣٤٦ لم ينسب قراءة.

(٥) في الطبري ١١/ ٥٥٦، والشواذ ٣٩، والكشاف ٢/ ٤٨، إلى الحسن البصري، وفي الجامع ٧/ ٤٥ زاد عيسى بن عمرو، في البحر ٤/ ١٨٥ زاد أبا رجاء؛ ولم ينسب هذا الوجه في معاني القرآن ١/ ٣٤٦ قراءة.

(٦) نقله في التهذيب «حسب» ٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٣، والمشكل ١/ ٢٦٣، وإعراب القرآن ١/ ٣٢٨، والجامع ٧/ ٤٤٥.

وقال تعالى: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الآية ٩٨] فنراه يعني: فمنها مُسْتَقِرٌ ومنها مُسْتَوْدَعٌ؛ والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الآية ٩٩] نراه يريد «الأَخْضَرَ» كقول العرب: «أَرِنِيهَا نَمِرَةً أُرِكْهَا مَطِرَةً»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الآية ٩٩] ثم قال: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ [الآية ٩٩] أي: «وَأَخْرَجْنَا بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ».

ثم قال ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ [الآية ٩٩] وواحد: «القِنْوانِ»: قِنْوٌ، وكذلك «الصِّنْوانُ» واحدها: «صِنْوٌ».

وقال تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية ١٠٨] والأصل من «العُدْوانِ». تقول: «عدا عَدْواً علينا» مثل «ضَرَبَهُ ضَرْباً»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾ وفسّر على «لعلّها»[3] كما تقول العرب: «اذْهَبْ إلى السوق أَنّكَ تشتري لي شيئاً» أي: لَعَلّكَ. وقال الشاعر[4] [من الرجز وهو الشاهد التاسع والتسعون بعد المئة]:

قُلْتُ لِشَيْبانَ اُدْنُ من لقائِهِ
أَنّا نُغَذِّي القَوْمَ مِن شِوائِهِ[5]

في معنى «لَعَلّنا».

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الآية ١١١] أي: قَبِيلاً قَبِيلاً، جماعة «القَبيل» «القُبُل». ويقال «قِبَلاً»[1] أي: عِياناً. وتقول: «لا قِبَلَ

(١) نقله في الصحاح «خضر» و «مطر» وإعراب القرآن ١/ ٣٢٨ و٣٢٩ والجامع ٧/ ٤٧؛ والقول مَثَل: انظر مجمع الأمثال ١/ ٢٩٤ مثل ١٥٥٦، والمستقصى ١/ ١٤٤ مثل ٥٦٧، والاشتقاق ١٨٤.

(٢) في الطبري ١٢/ ٣٥ أنها إجماع الحجة من قراء الأمصار، وفي الكشاف ٢/ ٥٦، والإملاء ١/ ٢٥٧، والمراجع السابقة كلها كالسابق بلا نسبة.

(٣) في الطبري ١٢/ ٤١ إلى أُبيّ بن كعب، وعامة قراء أهل المدينة والكوفة، وفي السبعة ٣٦٥ الى نافع وحمزة والكسائي، وشكّ في ابن عامر وإلى عاصم في رواية، وفي الكشف ١/ ٤٤٤، والتيسير ١٠٦ إلى أبي بكر في رواية والى غير أبي عمرو وابن كثير، وفي الجامع ٧/ ٦٤ إلى أهل المدينة والاعمش وحمزة، وفي البحر ٤/ ٢٠١ الى السبعة غير من قرأ بالثانية، وفي الكتاب ١/ ٤٦٣ إلى أهل المدينة.

(٤) هو أبو النجم العجلي الراجز المشهور، الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٤٦٠ والإنصاف ٢/ ٣١١.

(٥) في الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٤٦٠، «كما تغذي الناس» وفي مجالس ثعلب ١٥٤ بـ «كما يغذي القوم» وفي الإنصاف ٢/ ٣١١ «كما تغذي القوم».

لي بهذا» أي: لا طاقةَ. وتقول: «لِي قِبَلَك حقٌّ» أي: عندَك.

وقال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الآية ١١٣] هي من «صَغَوْتُ» يَصْغَا» مثل «مَحَوْتُ» «يَمْحَا».

وقال جل شأنه ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الآية ١٠٠] على البدل كما قال ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى]. وقال الشاعر(٢) [من الوافر وهو الشاهد المئتان]:

ذَرِيـنِـي إِنَّ أمـرَكِ لَـنْ يُـطَـاعَـا
وَمَـا أَلْـفَـيْـتِـنـي حِـلْـمِـي مُـضَـاعَـا

وقال [من البسيط وهو الشاهد الحادي بعد المئتين]:

إنِّـي وَجَـدْتُـكَ يـا جُـرْثُـومُ مِـنْ نَـفَـرٍ
جُـرْثُـومَـةِ الـلُّـؤْمِ لا جُـرْثُـومَـةِ الـكَـرَمِ

وقال الآخر(٣) [من البسيط وهو الشاهد الخامس والخمسون بعد المئة]:

إنَّـا وَجَـدْنَـا بَـنِـي جِـلاَّنَ كُـلَّـهُـمُ
كَـسَـاعِـدِ الـضَّـبِّ لا طُـولٌ ولا عِـظَـمُ

وقال(٤) [من الرجز وهو الشاهد الثاني بعد المئتين]:

مَـا لِـلْـجِـمَـالِ مَـشْـيِـهَـا وَئِـيـدَا
أَجَـنْـدَلاً يَـحْـمِـلْـنَ أَمْ حَـدِيـدَا

ويقال: ما للجمال مشيُها وَئِيدا. كما قيل [من الوافر وهو الشاهد الثالث بعد المئتين]:

فَـكَـيْـفَ تَـرَى عَـطِـيَّـةَ حِـيـنَ تَـلْـقَـى
عِـظَـامـاً هَـامُـهُـنَّ قُـرَاسِـيَـاتِ

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الآية ١١٩] أي،

(١) في الطبري ١٢/ ٤٨ الى قراء أهل المدينة، وفي السبعة ٢٦٦، والكشف ١/ ١١١، والتيسير ١٠٦، إلى نافع وابن عامر، وفي الجامع ٧/ ٦٦، والبحر ٤/ ٢٠٥ إلى ابن عباس وقتادة وابن زيد ونافع وابن عامر.

(٢) هو عدي بن زيد العبادي، ديوانه ٣٥، ومعاني القرآن ٢/ ٤٢٤، والخزانة ٢/ ٣٦٨، والمقاصد النحوية ٤/ ١٩٢، أو هو رجل من خثعم: شرح الأبيات للفارقي ١٩٩، والكتاب ١/ ٧٧، وتحصيل عين الذهب ١/ ١٧٨ أو رجل من بجيلة: الكتاب ١/ ٧٧.

(٣) قائل الشاهدين واحد، وكلاهما في الحيوان ٦/ ١١٢، والقائل غير معروف، وقد سبق الاستشهاد قبل بالثاني منهما.

(٤) هو قصير صاحب جذيمة، الكامل ٢/ ٤٢٨؛ وقيل الخنساء بنت عمرو بن الشهيد؛ المقاصد النحوية ٢/ ٤٤٨، وقيل هي الزباء ملكة تدمر، اللسان «واد» و«صرف»، والمقاصد النحوية ٢/ ٤٤٨، والخزانة ٣/ ٢٧٢، وشرح سقط الزند للخوارزمي ١٧٨٣، ومجمع الأمثال ١/ ٢٣٣، والدرر ١/ ١٤١، والبيت بعد في معاني القرآن ٢/ ٧٣.

والله أعلم، «وَأيّ شيْءٍ لَكُمْ في ألاّ تَأكُلُوا» وكذلك ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ [البقرة/٢٤٦] يقول: «أيُّ شَيْءٍ لَنا في ترك القِتال». ولو كانت (أنْ) زائدة لارتفع الفعل، ولو كانت في معنى «ومالَنا وَكَذا» لكانت «وَمَالَنا وألاّ نُقاتِلَ».

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ [الآية ١١٩] أوقع السّياق (أنْ) على النكرة؛ لأنّ الكلام اذا طال، احتمل، ودل بعضه على بعض.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الآية ١٢٣] فالبناء على «أفاعِل»، وذلك أنه يكون على وجهين يقول «هؤلاء الأكابر» و«الأكبرون» وقال ﴿نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف/١٠٣] وواحداهم «أخْسَرُ» مثل «الأكْبَر».

وقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الآية ١٣٧] لأن الشركاء زَيّنُوا.

ثمّ قال سبحانه ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ [الآية ١٣٧] من «أرْدى» «إرْداء».

وقال ﴿حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ﴾ [الآية ١٣٨] و«الحِجْر» «الحَرام» وقد قرئت بالضم (حُجْرٌ)[1]، وقد يكون اللفظان في معنًى واحدٍ. وقد يكون «الحِجْرُ»: العَقْل، قال الله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر] أي ذي عقل. وقال بعضهم: «لا يكون في قوله تعالى: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الآية ١٣٨] إلا الكسر. وليس ذا بشيء لأنه حرام. وأما «حِجْرُ المرأة» ففيه الفتح والكسر، و«حَجْرُ اليَمامة»[2] بالفتح، و«الحِجْرُ» ما حَجَرْتَه، وهو قول أصْحابِ الحِجْر.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الآية ١٣٩]. وقد يجوز الرفع لأنّ المؤنث قد يذكّر فعله. و(خَالِصَةٌ) أنثت لتحقيق الخلوص؛ كأنه لما حقّق لهم الخلوص، أشبه

---

(١) الطبري ١٢/ ١٤٢ الى الحسن وقتادة، واقتصر في الجامع ٧/ ٩٤ على الحسن، وزاد عليهما في البحر ٤/ ٢٣١ الأعرج.

(٢) انظر معجم البلدان «حجر».

الكثرة، فجرى مجرى «زاوية» و«نسّابة»[1].

وقوله تعالى ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ [الآية ١٤١] بالجرّ لأن تاء الجميع في موضع النصب، مجرورة بالتنوين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الآية ١٤٢] أي: وأنشأ من الأنْعام حَمُولَةً وَفَرْشاً.

ثم قال تعالى: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الآية ١٤٣] أي: أنشأ حَمُولَةً وفرشاً ثمانِيَةَ أزواج. أي: أنشأ ثمانِيَةَ أزْواج، على البدلِ[2] أو التبيان أو على الحالِ[3].

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الآية ١٤٣] أي على تقدير (أنشأ) قبل الآية، والله أعلم. وإنما قال ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ لأنّ كُلَّ واحدٍ «زَوْجٌ». تقول للاثنين: «هذانِ زَوْجانِ» وقال الله عز وجل ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات/ ٤٩] وتقول للمرأة، «هي زَوْجٌ»[4] و«هي زوْجَةٌ»[5] و: «هو زَوْجُها». وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف/ ١٨٩] يعني المرأة وقال ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب/ ٣٧] وقال بعضهم: «الزَوْجَةُ» وقال الأخْطَل [من البسيط وهو الشاهد السابع والعشرون بعد المئة]:

زَوْجَةُ أشْمَطَ مَرْهُوبٌ بَوادِرُهُ
قَدْ صارَ في رَأسِهِ التَخْوِيصُ والنَزَعُ

وقد يقال للاثنين أيضاً: «هما زَوْجٌ» و«الزَوْجُ» النَّمط يُطْرَحُ على الهَوْدَج. قال لَبيد [من الكامل وهو الشاهد السادس والعشرون بعد المئة]:

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ
زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وقِرامُها

وأمّا ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ [الآية ١٤٣] فمهموز وهو جماع على غير واحد. ويقال (الضَئين) مثل «الشَعير» وهو جماعة

(١) نقله في الجامع ٧/ ٩٥، وأشرك معه الكِسائي فيه.

(٢) نقله في المشكل ١/ ٢٧٥، وإعراب القرآن ١/ ٣٤١، والجامع ٧/ ١١٣.

(٣) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٤١.

(٤) هي لغة أهل الحجاز، المخصص ١٧/ ٢٤، والبحر ١/ ١٠٩، واللسان «زوج» وزاد المسير ١/ ٦٥، والمذكّر والمؤنث للفرّاء ٩٥ و١٠٨، ولهجة تميم ٣٢١، واللهجات العربية ٥٠٣.

(٥) هي لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد المصادر السابقة، وفي المذكّر والمؤنث ٩٥ الى أهل نجد، وفي ١٠٨ الى سائر العرب غير أهل الحجاز.

«الضَأن» والأُنثى «ضَائِنَة» والجماعة: «الضَوَائِن».

و﴿ٱلْمَعْزِ﴾ [الآية ١٤٣] جمع على غير واحد، وكذلك «المِعْزَى»، فأمّا «المَوَاعِز» فواحدتها «المَاعِز» و«المَاعِزَةُ» والذكر الواحد «ضائِن» فيكون «الضَأن» جماعة «الضائِن» مثل «صاحِب» و«صَحْب» و«تاجِر» و«تَجْر» وكذلك «ماعِز» و«مَعْز». وقرأ بعضهم (ضَأَن)(1) و(مَعَز)(2) جعله جماعة «الضَائِن» و«المَاعِز» مثل «خَادِم» و«خَدَم»، و«حافِد» و«حَفَدَة» مثله، إلاّ أنَّهُ أُلحق فيه الهاء.

وأمّا قَوْله تعالى ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الآية ١٤٣] فالنصب فيه بـ «حرّم».

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الآية ١٤٥] أي: «إلاّ أنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ فِسْقاً فإنَّهُ رِجْسٌ».

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ [الآية ١٤٦] فواحد «الحَوَايَا»: «الحَاوِيَاءُ» «والحَاوِيَةُ». ويريد تعالى بقوله، والله أعلم، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾ أي: والبقر والغنم حرمنا عليهم. ولكنه أدخل فيها «مِنْ» والعرب تقول: «قَدْ كانَ مِنْ حديثٍ» يريدون: «قَدْ كانَ حَدِيثٌ» وإن شئت قلت «وَمِنَ الغَنَم حَرَمْنَا الشُحُومَ» كما تقول: «مِنَ الدّارِ أُخِذَ النِّصْفُ والثُلُثُ» فأضفت على هذا المعنى كما تقول: «مِنَ الدَّارِ أُخِذَ نِصْفُها» و «مِنْ عَبْدِ اللهِ ضُرِبَ وَجْهُهُ».

وقال ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الآية ١٥٠] لأن «هَلُمّ» قد تكون للواحد والاثنين والجماعة(3).

وكأنَّ قوله تعالى ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ

---

(1) قرأ بفتح الهمزة، كما جاء في الشواذ ٤١ والمحتسب ٢٣٤ والجامع ٧/ ١١٤، طلحة بن مصرف اليماني، وزاد في الجامع ٤/ ٢٣٩ الحسن وعيسى بن عمر، وفي الكشاف ٢/ ٧٤، والإملاء ١/ ٢٦٣ بلا نسبة. أمّا بسكون الهمزة، ففي الجامع ٧/ ١١٤ أنها لأبان بن عثمان، وفي حجة ابن خالوية ١٢٧، والشواذ ٤١، والكشاف ٢/ ٧٤، والإملاء ١/ ٢٦٣، بلا نسبة.

(2) نسب فتح العين كما في البحر ٤/ ٢٣٩ الى الابنين وأبي عمرو، وفي الكشف ١/ ٤٥٦، والتيسير ١٠٨، الى غير نافع والكوفيين، وفي الكشاف ٢/ ٧٤ والإملاء ١/ ٢٦٣ بلا نسبة. أمّا سكون العين، فقد قرأ به، كما في الكشف ١/ ٤٥٦، والتيسير ١٠٨ نافع وأهل الكوفة، وفي الجامع ٧/ ١١٤، أن القارئ أُبيّ. وفي حجّة ابن خالوية ١٢٧، والكشاف ٢/ ٧٤، والإملاء ١/ ٢٦٣ بلا نسبة.

(3) نسبت في مجاز القرآن ١/ ٢٠٨ الى أهل العالية.

﴿ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الآية ١٥٦] على ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية ١٥٤] كراهيةَ ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الآية ١٥٦].

وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الآية ١٥٩] وقرأ بعضهم (فَارَقُوا)[1] من «المُفَارَقَةِ».

وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الآية ١٦٠] على العدد كما تقول: «عَشْرُ سُودٍ» فان قلت كيف قال (عَشْر) و«المِثْل» مذكر؟ فإنّما أُنّث لأنه أضيف إلى مؤنث وهو في المعنى أيضاً «حَسَنَةٌ» أو «دَرَجةٌ»، فإنْ أُنّثَ على ذلك فهو وجه. وقرأ بعضهم (عَشْرٌ أمْثالُها)[2] جعل «الأمثال» من صفة «العشر». وما كان من صفة لا تضاف الى العدد. ولكن يقال «هُمْ عَشْرَةٌ قيامٌ» لا يقال: «عشرةُ قيامٍ».

---

(١) نسبت في معاني القرآن ١/ ٣٦٦ إلى الإمام علي، وزاد الطبري ١٢/ ٢٦٨ قتادة، وأهمل في الكشف ١/ ٤٥٨ قتادة، وزاد النبي الكريم، وحمزة والكسائي، ولم يذكر في الجامع ٧/ ١٤٩، والبحر ٤/ ٢٦٠ النبي الكريم، واقتصرت في السبعة ٢٧٤ والتيسير ١٠٨ على حمزة والكسائي؛ وفي الكشاف ٢/ ٨٣ بلا نسبة، وكذلك في الإملاء ١/ ٢٦٧.

(٢) قرئ بهذا الوجه كما جاء ذلك منسوباً في الطبري ١٢/ ٢٨١ الى الحسن، وكذلك في الشواذ ٤١، وزاد عليه في الجامع ٧/ ١٥١ سعيد بن جبير والأعمش، وزاد عليه في البحر ٤/ ٢٦١ عيسى بن عمر ويعقوب والقزاز عن عبد الوارث. وفي حجّة ابن خالويه ١٢٨ بلا نسبة. أمّا القراءة بالإضافة، فهي في الطبري ١٢/ ٢٨١ إلى قراء الأمصار، وفي حجّة ابن خالويه ١٢٨ بلا نسبة.

لكل سؤال جواب في سورة «الأنعام»(*)

إن قيل: لِمَ جُمِعت الظلمة دون النور في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؟ [الآية الأولى].

قلنا: ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله فإنه يدل عليه، كما ترك جمع الأرض أيضاً استغناء عنه بجمع السماء قبله في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الآية الأولى]. الثاني أن الظلمة اسم، والنور مصدر، والمصادر لا تجمع.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ [الآية ٣] بعد قوله سبحانه ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ومعلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى؟

قلنا: إنما ذكره للمقابلة كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة/ ٢٠٣] في بعض الوجوه.

فإن قيل: لِمَ خُصَّ السكون بالذكر دون الحركة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الآية ١٣] على قول من فسره بما يقابل الحركة؟

قلنا: لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد، ولأن الساكن من المخلوقات أكثر عدداً من المتحرك؛ أو لأنّ كلّ متحرّك يصير إلى السكون من غير عكس؛ أو لأنّ السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة. وقيل فيه إضمار تقديره: ما سكن وتحرك، فاكتفى بأحدهما اختصاراً لدلالته على مقابله، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل/ ٨١] أي والبرد.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الآية ١٤] ولم يقل وهو ينعم ولا ينعم عليه، وهذا أعمّ لتناوله الإطعام وغيره؟

قلنا؛ لأن الحاجة إلى الرزق أمسّ فخصّ بالذكر. والثاني أن كون المطعم آكلاً متغوّطاً أقبح من كونه منعماً عليه، فلذلك ذكره.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴿٢٣﴾﴾ كيف يكذبون يوم القيامة بعد معاينة حقائق الأمور، وقد ﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴿١٠﴾﴾ [العاديات]؟

قلنا: المبتلى يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضرّه لعدم التمييز بسبب الحيرة والدهشة، كحال المبتلى المعذَّب في الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره، ويتكلم بما يضرّه، ألا تراهم يقولون كما ورد في التنزيل ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون/١٠٧] وقد أيقنوا بالخلود فيها، وقالوا ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف/٧٧] وقد علموا أنه ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر/٣٦].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴿٤٢﴾﴾ [النساء]؟

قلنا: القيامة مواقف مختلفة؛ ففي بعضها لا يكتمون، وفي بعضها يحلفون كاذبين، كما قال عزّ وجلّ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر] وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن] وقيل إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ يكون بعد شهادتها عليهم.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الآية ٣٢] وهو خير لغير المتّقين أيضا كالأطفال والمجانين؟

قلنا: إنّما خصّهم بالذكر، لأنهم الأصل فيها من حيث أنّ درجتهم أعلى، وغيرهم تبع لهم.

فإن قيل: ما الحكمة من التعبير في قوله تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٣٥﴾﴾ مخاطباً الرسول محمداً (ص) ونحن نعلم أنه جلّ وعلا قد خاطب النبي نوحاً (ص) بقوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٤٦﴾﴾ [هود] أي خاطبه بألين الخطابين، مع أن

محمداً (ص) أعظم رتبة، وأعلى منزلة منه؟

قلنا: لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام، كان معذوراً في جهله بمطلوبه، لأنه تمسّك بوعد الله تعالى في إنجاء أهله، وظنّ أن ابنه من أهله؛ وأمّا محمد (ص) فما كان معذوراً، لأنه كبر عليه كفرهم، مع علمه أن كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى، وأنهم لا يهتدون إلاّ أن يهديهم الله.

فإن قيل: إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم، فقد رجعوا إلى الله بالحياة بعد الموت، فما الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟

قلنا: المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء، وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت؛ فلا تكرار فيه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ [الآية ٣٧] لو صح من النبي (ص) هذا الجواب لصح لكل من ادّعى النبوة، وطولب بآية أن يقول إن الله قادر على أن ينزّل آية؟

قلنا: إذا ثبتت نبوته بما شاء الله من المعجزة، يصح له أن يقول ذلك، بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته، والنبي (ص) كانت قد ثبتت نبوته بالقرآن، وانشقاق القمر، وغيرهما.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٣٨] والدابّة لا تكون إلاّ في الأرض، لأن الدابة في اللغة اسم لما يدبّ على وجه الأرض وما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الآية ٣٨] والطيران لا يكون إلا بالجناح؟

قلنا: فيه فوائد: الأولى للتأكيد كقولهم: هذه نعجة أنثى، وقولهم كلمته بلساني، ومشيت إليه برجلي، وكما قال الله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل/ ٥١] وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح/ ١١]. الثانية نفي توهّم المجاز فإنه يقال: طار فلان في أمر كذا إذا أسرع فيه، وطار الفرس إذا أسرع الجري. الثالثة زيادة التعميم والإحاطة كأنه قال جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائرة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾

[الآية ٤٠] إلى أن قال ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الآية ٤١] ومن جملة ما ذكر الدعاء فيه عذاب الساعة وهو لا يكشف عن المشركين؟

قلنا: لم يخبر عن الكشف مطلقاً، بل مقيّداً بشرط المشيئة، وعذاب الساعة، لو شاء كشفه عن المشركين لكشفه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الآية ٥٠] كيف ذكر القول في الجملة الأولى والثالثة، وترك ذكره في الجملة الثانية؟

قلنا: لما كان الإخبار بالغيب كثيراً ممّا يدّعيه البشر كالكهنة والمنجّمين وواضعي الملاحم، ثم إنّ كثيراً من الجهّال يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون بمقتضى أخبارهم، بالغ في سلبه عن نفسه بسلب حقيقته عنه بخلاف الإلهية والملكية، فإن انتفاءهما عنه وعن غيره من البشر ظاهر. فاكتفى في نفيهما، بنفي القول، إذ غير الدعوى فيهما لا تتصور في نفس الأمر ولا في زعم الناس، بخلاف علم الغيب فافترقا، والمراد بقوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ﴾ [الآية ٥٠] أي لا أدعي الإلهية، كذا قاله بعض المفسرين.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ لِمَ ذكر سبيل المجرمين ولم يذكر سبيل المؤمنين، وكلاهما محتاج إلى بيانه؟

قلنا: لأنه إذا ظهر سبيل المجرمين، ظهر سبيل المؤمنين أيضاً بالضرورة؛ إذ السبيل سبيلان لا غير.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الآية ٦٠] أي ما كسبتم، وهو يعلم ما جرحوا ليلاً ونهاراً؟

قلنا: لأن الكسب أكثر ما يكون بالنهار لأنه زمان حركة الإنسان، والليل زمان سكونه، لقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص/ ٧٣] بعد قوله سبحانه ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص/ ٧٢].

فإن قيل: قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٦٢] يعني مولى جميع الخلائق. وقال في موضع آخر ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمّد]؟

قلنا: المولى الأول بمعنى المالك أو

الخالق أو المعبود، والمولى الثاني بمعنى الناصر فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: لِمَ خُصّ ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الآية ٧٣] بيوم القيامة، فقال تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الآية ٧٣] مع أن قوله الحق في كل وقت، وله الملك في كل زمان؟

قلنا: لأن ذلك اليوم، ليس لغيره فيه ملك، بوجه من الوجوه، وفي الدنيا لغيره ملك، خلافة عنه أو هبة منه وإنعاماً، بدليل قوله تعالى في حق داود عليه السلام ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة/ ٢٥١] وقوله ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة/ ٢٤٧] وقوله في ذلك اليوم هو الحق الذي لا يدفعه أحد من العباد، ولا يشك فيه شاكّ من أهل العناد، لانكشاف الغطاء فيه للكل، وانقطاع الدعاوى والخصومات، ونظيره قوله تعالى ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار] وإن كان الأمر له في كل زمان، وكذا قوله تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر/ ١٦]؟

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في معرض الامتنان ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الآية ٨٤] ولم يذكر إسماعيل مع أنه كان هو الابن الأكبر؟

قلنا: لأن إسحاق وهب له من حرة وإسماعيل من أمة؛ وإسحاق وهب له من عجوز عقيم، فكانت المنة فيه أظهر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الآية ٩٢] وكثيرٌ ممّن يؤمن بالآخرة من اليهود والنصارى وغيرهم لا يؤمن به؟

قلنا: معناه والذين يؤمنون بالآخرة إيماناً نافعاً مقبولاً، هم الذين يؤمنون به إما تصديقاً به قبل إنزاله لما بشّر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، أو اتّباعاً له بعد إنزاله والأمر كذلك، فإن من لم يصدق موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام في بشارتهما بمحمد (ص) وبالقرآن؛ أو كان بعد بعثه ولم يؤمن به، فإيمانه بالآخرة غير معتدّ به ولا معتبر.

فإن قيل: لم أفرد قوله سبحانه تعالى ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الآية ٩٣] بعد قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية ٩٣] وذلك أيضاً افتراء؟

قلنا: لأنّ الأول عام، والثاني خاص، والمقصود الإنكار فيهما، ولا

يلزم من وجود العام وجود الخاص، ولكن يلزم من الذمّ على العامّ وإنكاره، الذمّ على الخاصّ وإنكاره لا محالة؛ وما نحن فيه من هذا القبيل، والجواب المحقّق أن يقال إن هذا الخاص لمّا كان مخصوصاً بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء خصّه بالذكر، تنبيهاً على مزيد العقاب فيه والإثم.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية ١٠٢] بعد قوله سبحانه ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الآية ١٠١]؟

قلنا: ذكره أوّلاً استدلالاً به على نفي الولد، ثم ذكره ثانياً توطئة وتمهيداً لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الآية ١٠٢] فإن كونه خالق كل شيء يقتضي تخصيصه بالعبادة والطاعة، فكانت الإعادة لفائدة جديدة.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الآية ١٠٣] كيف خص الأبصار بإدراكه لها، ولم يقل وهو يدرك كل شيء مع أنه أبلغ في التمدح؟

قلنا: لوجهين: أحدهما مراعاة المقابلة اللفظية، فإنه نوع من البلاغة. الثاني أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار أنه يدركها، بمعنى الإحاطة بها وهي لا تدركه، فأما غيره مما يدرك الأبصار فهي تدركه أيضاً، فلهذا خصها بالذكر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الآية ١١٤] ولم يقل وهو الذي أنزل إليّ مع أنه سبحانه قال في موضع آخر: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة/٤٨]؟

قلنا: لمّا كان إنزاله إلى النبي (ص) ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به، كان في الحقيقة منزلاً إليهم، لكن بواسطة النبي (ص) فصلح إضافة الإنزال إليه وإليهم.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ كيف عُلّق الكونُ من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمّى عليها، والكونُ من المؤمنين حاصل، وإن لم تؤكل الذبيحة أصلاً؟

قلنا: المراد إعتقادُ الحِلّ لانفس الأكل، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة من العرب كان يعتقد حرمة الذبيحة.

فإن قيل: لم أبهم فاعل التزيين هنا فقال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ وقال سبحانه في آية أخرى ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل/ ٤] وقال في آية أخرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل/ ٢٤] فمن هو مزيّن الأعمال للكفار في الحقيقة؟

قلنا: التزيين من الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة وإيراد الشبه، ومن الله تعالى بخلق جميع ذلك، فصحّت الإضافتان.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الآية ١٣٠] والرسل إنما كانت من الإنس خاصة؟

قلنا: المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبي(ص) وولّوا إلى قومهم منذرين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف/ ٢٩]. الثاني: أنه كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن] والمراد من أحدهما، لأنه إنّما يخرج من الملح. والثالث: أنه بعث إليهم رسل منهم، قاله الضحّاك ومقاتل.

فإن قيل: لِمَ ذكر شهادتهم على أنفسهم في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الآية ١٣٠]، والمعنى فيهما واحد؟

قلنا: المعنى المشهود به متعدّد وإن كان في الشهادة واحداً، إلا أنهم في الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم، وفي الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر، وهما متغايران.

فإن قيل: كيف أقرّوا في هذه الآية بالكفر وشهدوا على أنفسهم به، وجحدوه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟

قلنا: مواقف القيامة ومواطنها مختلفة، ففي بعضها يقرّون وفي بعضها يجحدون، أو يكون المراد هنا شهادة أعضائهم عليهم حينما يختم على أفواههم، كما قال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس/ ٦٥].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية ١٤٠] والسَّفَهُ لا يكون إلا عن جهل؟

قلنا: معنى قوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجة، وقيل بغير علم، بمقدار

قبحه ومقدار العقوبة فيه، وعلى الوجهين لا يكون مستفاداً من الأوّل.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾ بعد قوله سبحانه في الآية نفسها ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾؟

قلنا: الحكمة فيه الإعلام بأنهم بعد ما ضلوا لم يهتدوا مرّةً أخرى، فإنّ من الناس من يَضِلّ ثمّ يهتدي بعد ضلاله.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الآية ١٤١] بعد قوله سبحانه ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الآية ١٤١] ومعلوم أنه إنما يؤكل من ثمره إذا أثمر؟

قلنا: الحكمة فيه نفي توهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج، بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمر.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الآية ١٤٥]، وفي القرآن تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك؟

قلنا: محرّما مما كانوا يحرمونه في الجاهلية.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الآية ١٤٧] والموضع موضع العقوبة، فكان يحسن أن يقال فيه ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك؟

قلنا: إنّما قال ذلك نفياً للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته، وذلك أبلغ في التهديد ومعناه ـ والله أعلم ـ: لا تغترّوا بسعة رحمته، فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم. وقيل معناه: فقل ربّكم ذو رحمة واسعة للمطيعين، ولا يرد عذابه عن العاصين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾ [الآية ١٥١] ثم فسره بعشرة أحكام خمسة منها واجبة، والتلاوة وصف للفظ لا للمعنى، كي لا يقال أضدادها محرمة؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لا ينفي تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضاً. الثاني أن فيه إضماراً تقديره: أتل ما حرم ربكم عليكم وأوجب.

فإن قيل: لِمَ خصّ مال اليتيم بالنهي عن قربانه بغير الأحسن، ومال البالغ أيضاً كذلك؟

قلنا: إنّما خصه بالنهي لأن طمع الطامعين فيه أكثر، لضعف مالكه

وعجزه، وقلة الحافظين له والناصرين، بخلاف مال البالغ. الثاني: أن التخصيص لمجموع الحكمين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن، ووجوب قربانه بالأحسن، أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن مالكه، ومجموع الحكمين مختص بمال اليتيم، وهذا هو الجواب عن كونه مغيّيا ببلوغ الأشد، لأن المجموع ينتفي ببلوغ الأشد لانتفاء الحكم الثاني؛ وقيل إن الغاية لمحذوف، تقديره: حتى يبلغ، فسلّموه إليه.

فإن قيل: لِمَ خُصَّ العدل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الآية ١٥٢] ولم يقل: وإذا فعلتم فاعدلوا، والحاجة إلى العدل في الفعل أمسّ، لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلي، أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولي؟

قلنا: إنّما خصه بالقول ليعلم وجوب العدل في الفعل بالطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء/٢٣] ولم يقل: ولا تشتمهما ولا تضربهما لما قلنا.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الآية ١٦٤][1] وقوله سبحانه ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت/١٣] وقوله عز وعلا ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل/٢٥] وقد جاء في الحديث المشهور «من عمل سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها، إلى يوم القيامة».

قلنا: المراد بالآية الأولى وزر لا يكون مضافاً إليها بمباشرة أو تسبّب، لتحقيق إضافته إلى غيرها على الكمال. أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فتزره. وقيل معناه: لا تزره طوعاً كما زعم المشركون بقولهم للنبي (ص): ارجع إلى ديننا ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة في دينك. وقول الذين كفروا للذين آمنوا كما ورد في التنزيل ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت/١٢] إلى قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت] ومعنى باقي النصوص أنها تحمله كرهاً، فلا تنافي بينهما.

(١) ورد القول الكريم نفسه في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

المعاني المجازية في سورة «الأنعام»(*)

في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ استعارة. لأن الأصل في هذه اللفظة: دابرة الفَرَس، وجمعها دوابر، وهي ما يلي حافره من خلفه. ودابرة الطائر: هي الشاخصة التي خلف رجله، وتدعى الصِّيْصِيَة[1] أيضاً.

فالمراد بقوله سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ والله أعلم: أي قطعت عنهم الأمداد اللاحقة بهم من خلفهم، والتالُون لهم في غيِّهم وضلالهم. أو قُطِعَ خَلَفُهم من نَسْلهم، فلم تثبت لهم ذرّيّة، ولم يبق لهم بقية.

وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الآية ٤٦] استعارة. والمراد بالأخذ هٰهنا، إبطال حواسّهم. وإذا بَطَلَتْ، فكأنّها قد أُخذت منهم، وغُيِّبت عنهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ٥٩] واستعارة. والمراد: وعنده الوصلة إلى علم الغيب، فإذا شاء فتحه لأنبيائه وملائكته، وإن شاء أغلق عنهم علمه، ومنعهم فهمه. وعبّر تعالى عن ذلك بالمفاتح، وهي أحسن عبارة، وأوقع استعارة. لأنّ كل ما يتوصل به إلى فتح المبهم، وبيان المستعجم سُمِّي بذلك. ألا ترى إلى قول الرجل لصاحبه إذا أشكل عليه أمر، أو اختلّ له حفظ:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبدالغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) الصيصية والصيصة: شوكة الحائك، وشوكة الديك أو الطائر. والجمع صياصٍ.

افتح عليّ، أي: بيِّنْ لي، وفهِّمني ما غَرُبَ عني.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الآية ٦٨] استعارة. والمراد بها إثارة أحاديث الآيات ليستشفُّوا بواطنها، ويعلموا حقائقها، كالخابط في غمرة الماء، لأنه يثير قعرها، ويسبر غمرها. وقد مضى الكلام على نظير ذلك في (النساء).

وفي قوله سبحانه: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الآية ٨٠] استعارة. لأن صفة الشيء بأنه يسع غيره، لا يطلق إلاّ على الأجسام التي فيها الضِّيق والاتّساع، والحدود والأقطار. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. فالمراد أن علمه سبحانه يحيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، ولا تَدِقّ عنه غامضة.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الآية ٩٢] استعارة. والمراد بأمّ القرى مكّة، وإنما سماها سبحانه بذلك، لأنها كالأصل للقرى، فكلّ قرية فإنما هي طارئة عليها، ومضافة إليها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الآية ٩٣] استعارة عجيبة. لأنه سبحانه شبه الذين يعتورهم كُرَب الموت وغُصَصُه، بالذين تتقاذفهم غَمَرات الماء ولُجَجه. وقد سميت الكربة غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان، آخذةً بكظمه، وخاتمةً على متنفسه. والأصل في جميع ذلك غمرة الماء.

وفي قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الآية ٩٥] استعارة على بعض الأقوال، ومعناها أنه سبحانه يشق الحبة الميتة، والنواة اليابسة، فيخرج منها وَرَقاً خَضِراً[1]، ونباتاً ناضراً، ويخرج الحَبَّ اليابس الذاوي من النبت الحي النامي. وقال بعضهم: يُخرج الإنسان الحي من النطفة وهي مَوات، ويُخرج النطفة المَوَات من الإنسان الحيّ. والله أعلم بالصواب.

وقوله سبحانه: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية ١٠٠] استعارة.

(١) الورق الخضر هو الأخضر. ووزنها مثل فرح.

والمراد أنهم دَعَوْا له سبحانه بنين وبناتٍ بغير علم، وذلك مأخوذ من «الخرق» وهي الأرض الواسعة، وجمعها خروق، لأنَّ الريح تتخرّق فيها، أي تتسع. والخِرْقُ من الرجال: الكثير العطاء، فكأنه ينخرق. «والخِرْقَة» جماعة الجراد مثل الجِزْقَة، والخَرِيقُ: الريح الشديدة الهبوب. فكأنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ﴾ أي اتَّسَعُوا في دعوى البنين والبنات له، وهم كاذبون في ذلك. والاختراق، والاختراع، والانتسال بمعنى واحد، وهو الادعاء للشيء على طريق الكذب والزور.

وفي قوله سبحانه: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الآية ١١٢] استعارة. لأن الزخرف في لغة العرب: الزينة. ومن ذلك قولهم: دار مزخرفة أي مزيَّنة. فكأنه تعالى قال: يزيّنون لهم القول ليغترّوا به، وينخدعوا بظاهره، كما يستغرُّ بظاهر جميل، على باطن مدخول.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الآية ١١٠] استعارة. لأن تقليب القلوب والأبصار على الحقيقة وإزالتها عن مواضعها، وإقلاقها عن مناصبها لا يصحّ، والبنيةُ صحيحة والجملة حَيَّة متصرّفة. وإنما المراد، والله أعلم، أناَّ نرميها بالحَيْرة والمخافة، جزاءً على الكفر والضلالة. فتكون الأفئدة مسترجعة لتعاظم أسباب المخاوف، وتكون الأبصار منزعجة لتوقّع طلوع المكاره. وقد قيل: إنّ المراد بذلك تقليبها على قراميص[1] الجمر في نار جهنم، وذلك يخرج الكلام عن حيّز الاستعارة إلى حيز الحقيقة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الآية ١١٣]. وهذه استعارة. والمعنى: ولتميل إليه أفئدة هؤلاء المذكورين. ويقال: صغى فلان إلى فلان. أي مال إليه. وصَغْوه معه: أي ميله. ومنه أصغى بسمعه إلى الكلام. إذا أماله إلى جهته، ليقرب من استماعه. وميلُ القلب إلى المعتقدات، كميل السمع إلى المسموعات.

وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ

(١) القراميص: جمع قرماص، وهو في الأصل الحفرة الواسعة الجوف الضيقة الرأس؛ أو هي موضع خبز المِلّة.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الآيـة ١٢٧]. اسـتـعـارة. والمراد: لهم محل الأمنة والسلامة والمنجاة من المخافة. وتلك صفة الجنة. والسلام ههنا: جمع سلامة(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآيـة ١٣٠] استعارة. لأنهمْ لمّا اغترّوا بالحياة الدنيا، حَسُنَ أن يقال إنها غرّتهم. ولما كان فيها ما تميل إليه شهواتهم، جاز أن يقال: إنّها استمالت شهواتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الآيـة ١٥٣] استعارة. والسُّبُل التي هي الطرق لا تتفرّق بهم، وإنما هم الذين يفارقون نهجها، ويتّبعون عوجها.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الآيـة ١٦٤] اسـتـعـارة. والمعنى: ولا تحمل حاملة حمل أخرى. يريد تعالى في يوم القيامة. أي لا يخفف أحد عن أحد ثقلاً، ولا يشاطره حملاً. لأنّ كل إنسان في ذلك اليوم مشغول بنفسه، ومفدوح(٢) بحمله. وليس أن هناك على الحقيقة أحمالاً على الظهور، وإنما هي أثقال الآثام والذنوب.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة/ ٤٨ و١٢٣](٣).

(١) ويصح أن يكون السلام اسما من اسم الله تعالى. فتكون دار السلام دار الله. كما يقال للكعبة بيت الله.

(٢) المفدوح: الذي يحمل حملاً فادحاً، فيعيا به.

(٣) وهذه الآية من المتشابه.

سورة الأعراف

٧

أهداف سورة «الأعراف»(*)

سورة الأعراف هي السورة السابعة في الترتيب المصحفي وهي إحدى السور التي بدئت ببعض حروف التهجي ﴿الٓمٓصٓ ①﴾، ولم يتقدم عليها، من هذا النوع، سوى ثلاث سور سبقتها في تاريخ النزول وهي: ن، ق، ص.

ويبلغ عدد السور التي بدئت بحروف التهجي تسعاً وعشرين سورة، وكلُّها سُوَر مكية ما عدا البقرة وآل عمران. وعدد آيات سورة الأعراف مائتان وست آيات، عدد كلماتها ٣٣١٥ كلمة.

١ ـ معنى فواتح السور

ليس لهذه الفواتح في اللغة العربية معانٍ مستقلة، ولم يرد من طريق صحيح عن النبيّ (ص)، بيان للمراد منها. بيد أنه قد أُثِرَتْ عن السلف آراء متعددة في معاني هذه الحروف. وهذه الآراء، على كثرتها، ترجع إلى رأيين اثنين.

أحدهما: أنها جميعاً مما استأثر الله به ولا يعلم معناه أحد سواه، وهذا رأيُ كثيرٍ من الصحابة والتابعين.

وثانيهما: أن لها معنى. وقد ذهبوا في معناها مذاهب شتى:

١ ـ فمنهم من قال: إنها أسماء للسُّوَر التي بدئت بها، أو أن كلاًّ منها علامة على انتهاء سورة والشروع في أخرى.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمد شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

٢ ـ ومنهم من قال: إنها «رموز» لبعض أسماء الله تعالى وصفاته.

٣ ـ ومنهم من قال: إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم، وسياسةُ النفوس المُعْرِضة عن القرآن، واستدراجُها للاستماع إليه، واستمالة العقول بشيء غريب على السمع للانتباه والإصغاء للقرآن.

وأشهر آراء علماء البلاغة والبيان: أن هذه الحروف ذُكرت للتحدي وبيان إعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن مع أنه مركَّب من هذه الحروف المقطَّعة التي يتخاطبون بها، وفي هذا دلالة على أنه ليس من صنع بشر، بل تنزيل من حكيم حميد.

ويرى ابن جرير الطبري أن أفضل الآراء في معنى فواتح السور هو اشتمالها على جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في معانيها. فهي أسماء للسورة، وهي رموز، وهي حروف للتنبيه والتحدي... الخ.

وسورة الأعراف هي السورة المكية الثانية في ترتيب المصحف، وهي تتسم بتلك السمات العامة التي أسلفنا إليها في الحديث عن سورة الأنعام.

ثم تتميز بطابعها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التي تعالجها والسياق الذي تسير فيه.

وموضوع السورة الرئيس هو الإنذار، إنذار من يتولون غير الله، ومن يكذبون بآيات الله، ومن يستكبرون عن طاعة الله، ومن يَنْسُون الله، ومن لا يشكرون نعمته، إنذارهم بهلاك الدنيا وعذاب الآخرة، وذلك فوق الخزي والهوان والنسيان.

تبدأ السورة بالإنذار، ثم تسلك بهذا المعنى سبلاً شتى وتتصرف فيه تصرفات كثيرة، وترسم له صوراً متعددة، وتلمس به المشاعر لَمَسَات مختلفة. فتارةً يتّخذ السياق شكل القصة: قصة آدم مع إبليس، ثم قِصَص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى، مع أقوامهم لتنتهي كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون أمر الله؛ وتارة يتّخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة أو مشاهد الاحتضار تنكشف فيه مصائر المكذِّبين، والمتكبِّرين، ومصائر الطائعين، لله ربّ العالمين.

ويتخلل القِصصَ والمشاهد ما يتّسق مع الجو العام من توجيه الأنظار والقلوب، والدعوة إلى التوبة والإنابة،

قبل أن يَحُلَّ العقاب، ويتحقق الإنذار، والإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التي حَقَّ عليها النذير.

كل ذلك يرد في تناسق مطلق، بين السياق والقصة، أو السياق والمشهد، أو السياق والتوجيهات، فتبدو القِصَص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاءً من هذا السياق العام مُلَوَّنة بلونه، مُظَلَّلة بجوّه، مُحَقِّقة للغرض الذي يتجه إليه موضوع السورة الرئيس من البدء حتى الختام.

٢ ـ مقاصد السورة ومزاياها

مَهَّدت سورة الأعراف لمقاصدها ببيان عَظَمَة الكتاب، وجلال هدايته، وقوة حجته في توضيح الدعوة، وإنذار المخالفين بها.

ثم تناولت أهداف الدعوة في مكة، وهي تقرير رسالة الإسلام وبيان أصول هذه الدعوة: توحيد الله في العبادة والتشريع، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة بوجه عام، وتقرير رسالة محمد (ص) بوجه خاص. وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية.

وقد سلكت السورة، في طريقة عرض هذه الحقائق، أسلوبين بارزين، أحدهما أسلوب التذكير بالنِعَم، والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنِّقَم.

أمّا أسلوب التذكير بالنعم، فتراه واضحاً في لفتها أنظار الناس إلى ما يَلْمَسُونه ويُحِسُّونه من نعمة تمكينهم في الأرض، ونعمةِ خَلْقهم وتصويرهم في أحسنِ تقويم، ونعمةِ تَمَتُّع الإنسان بما في هذا الكون من خيرات، سخَّرها الله له.

أمّا أسلوب الإنذار والتخويف، فهو ظاهر في جو السورة، وفي قَصَص الأنبياء فيها. وقد استغرق هذا القَصَص أكثر من نصفها، وقد ساقت لنا السورة ما دار بين الأنبياء وأقوامهم، وسجَّلَت السورة جزاء المكذبين بأمر الله الخارجين على دعوة رسله وهدايتهم، وهي ظاهرة تكررت الاشارة إليها في سور القرآن المكية، تحذيراً لأهل مكة أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم.

٣ ـ عرض إجمالي لأجزاء السورة

سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم، وهي أطول

سورة في المكّيّ. وهي أول سورة عرضت لتفصيل في قصص الأنبياء مع أممهم. وقد نزلت بين جملتين من السور المكية: يكثر في الجملة التي نزلت قبلها السور القصيرة، التي تعرف بسور «المفصّل»[(١)] ويكثر في الجملة التي نزلت بعدها السور المتوسطة التي تعرف بسور «المئين»[(٢)].

وتطالعنا سورة الأعراف بالحديث عن عظمة القرآن. وتأمرنا باتّباعه وتُحَذِّرنا من مخالفته. وتَحُثُّنا على العمل الذي تثقل به موازيننا يوم القيامة[(٣)] في بداية تُعَدُّ براعة استهلالٍ أو عنوانٍ لما تشتمل عليه السورة. وهي سِمة غالبة في سور القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنواناً معبّراً عن أهدافها وسماتها.

وفي أول سورة الأعراف يقول سبحانه:

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

ثم ساقت لنا السورة بأسلوب منطقي بليغ قصة آدم مع إبليس. وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرّمة. فلمّا أكل منها هو وزوجته،

﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الآية ٢٢].

ثمّ وجهت إلى بني آدم نداء، في أواخر هذا الرُّبع، نهتهم فيه عن الاستجابة لوسوسة الشيطان. قال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٧﴾.

وفي الرُّبع الثاني منها، نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد، وتُخبرنا بأن الله ـ تعالى ـ قد أباح لنا أن نتمتّع بالطيّبات التي أحلّها لنا،

---

(١) تسمّى سور «المفصّل» لكثرة الفصل بينها بالبسملة مثل «الضحى».

(٢) هي السور التي يكون عددها قرابة المائة آية.

(٣) تفسير سورة الأعراف، لفضيلة الدكتور أحمد السيد الكوفي والدكتور أحمد سيّد طنطاوي، صفحة ٦ وما بعدها.

وتبشّرنا بِحُسْن العاقبة متى اتّبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا؛ ثم تسوق لنا، في بضع آيات، عاقبة المكذبين لِرُسُل الله، وكيف أن كلّ أمّة من أمم الكفر، عندما تقف بين يدي الله للحساب، فإنها تلعن أختها.

قال تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم تبيّن السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وفي أواخر هذا الرُبع، وأوائل الرُبع الثالث منها، نراها تسوق لنا تلك المحاورات التي تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتحكي لنا ما يَحْصُل بينهم من نداءات ومجادلات، تنتهي بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل، كما ورد في التنزيل:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾. فيجيبهم أصحاب الجنة كما ورد في التنزيل أيضاً:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه، وتدعونا إلى شكره عليها لكي يزيدنا من فضله.

وفي الرّبع الرابع منها، وفي أواخر الثالث تحدثنا عن قصة نوح مع قومه. ثمّ عن قصّة هود مع قومه، ثمّ عن قصة صالح مع قومه. ثمّ عن قصة لوط مع قومه، ثمّ عن قصّة شعيب مع قومه، ولقد ساقت لنا، خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم، من العبر والعظات، مايهدي القلوب، ويشفي الصدور، ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين.

أمّا في الرّبع الخامس منها، فقد

بيّنت لنا سُنَن الله في خلقه، ومن مظاهر هذه السنن أنه ـ سبحانه ـ لا يعاقب قوماً إلا بعد الابتلاء والاختبار؛ وأنّ الناس لو آمنوا واتقوا لفتح ـ سبحانه ـ عليهم بركات من السماء والأرض؛ وأن الذين يأمنون مكر خالقهم، هم القوم الخاسرون.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم عقبت على ذلك، ببيان أن الله تعالى قد ساق قصص السابقين للعظة والاعتبار.

ثم أسهبت السورة في الحديث عن قصة موسى (ع) فقصّت علينا في زهاء سبعين آية، استغرقت الربع السادس والسابع والثامن، ما دار بينه وبين فرعون من محاولات ومناقشات، وما حصل بينه وبين السَّحَرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة كما روى القرآن حكاية عنهم:

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ثم حكت لنا ما لقيه موسى من قومه بني إسرائيل من تكذيب وجهالات، ممّا يدلّ على أصالتهم في التمرد والعصيان، وعراقتهم في الكفر والطغيان.

وفي الرُّبع التاسع منها، حدّثتنا عن العهد الذي أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً؛ ثمّ حدثتنا عن التفكير والتدبير في ملكوت السماوات والأرض، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى عَلاَّم الغيوب، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله، ثم هُمْ بعد ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

أما في الربع العاشر والأخير، فقد اهتمّت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله، وأنكرت على المشركين شِرْكهم، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

٤ ــ قصة آدم

ذُكرت قصة آدم في سورة البقرة، ثم أكملت سورة الاعراف حلقات هذه القصة. وذكرت أنّ الله تعالى خلق آدم (ع) وأمر الملائكة بالسجود له إظهاراً لفضله، وتنويهاً بما يكون له من شأن، بعد أن سألوا عن الحكمة في خلقه، وقد رُكّبت فيه الشهوة والغضب، وبهما يُفْسِد في الأرض ويَسْفك الدماء.

وذكرت السورة موقف إبليس وإباءه السجود والامتثال لأمر الله، كما ذُكرت قصة تأثر آدم بوسوسة الشيطان، وإغرائه إيّاه بالأكل من الشجرة، وكيف كانت عاقبة آدم في الهبوط من الراحة والاطمئنان إلى الكدّ والتعب، وإلى مكافحة عوامل الشر التي بنيت الحياة عليها، وعلى ما يقابلها من عوامل الخير؛ ومطالبة الإنسان بأن يقف مع جانب العقل والرسالة الإلهية، اللذين يشدّان أزره في التغلب على عوامل الشر.

لقد كان آدم في نعيم الجنة يتمتّع بما فيها من كل ما تشتهي الأنفس، وَتَلَذُّ به الأعين، ويتنقّل بين أشجارها، ويتفيأ ظلالها، ويتفكّه بثمارها، ويرتوي من عذب مياهها، وشاركته زوجته هذه المتعة. ولكنّ الشيطان أغراهما بالأكل من الشجرة وأقسم لهما بأنه من الناصحين. فلمّا أطاعا الشيطان، وأكلا من الشجرة، سلب الله عنهما نعمته وحرمهما جنته:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وقد ندم آدم وحواء أشد الندم، وتابا إلى الله توبة نصوحاً، فتاب الله عليهما وأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ليكدحا ويعملا، فتعمر الأرض وتنتشر الحياة في جنباتها. وقد حذّر الله آدم وذرّيّته من الشيطان وإغرائه؛ وبيّن سبحانه أن على المؤمن أن يلجأ إلى ربه، وأن يستعين بهداه، وألاّ يَخْلُد الى الهوى وألا ييأس من رحمة الله. فقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه حتّى يتوب إليه التائبون ويلجأ إليه المؤمنون. فكلّ

بني آدم خطاؤون وخير الخطائين التوّابون.

والمؤمن يتسامى بغرائزه، وينتصر على شهواته، وينهى نفسه عن الهوى، ويحملها على طريق الفلاح والاستقامة. قال تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس].

٥ ـ نعمة الثياب والزينة

تحدثت سورة الاعراف عن نعم الله تعالى على بني آدم، ومن هذه النعم نعمة المَلْبَس الذي يستر الناس به عورتهم ويجمّلون به أنفسهم، هيّأ الله لهم مادّته من القطن والصوف والحرير وما إليها، وألهمهم، بما خَلق فيهم من غرائز، طُرُق استنباتها، وطرق صناعتها، بالغزل والنسيج والخياطة؛ ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله في الانتفاع بتلك النعمة، واستخدامها في طاعة الله وشكره. وبذلك تستر الثياب العورة، وتكون مصدر نعمة لا نقمة.

قال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)﴾.

وفي هذا تنبيه إلى ان الحضارة الحقّة ليست في كشف المفاتن، ولا في إظهار العورات، وإنّما الحضارة الحقّة في السير على سنّة الله، وهدى رسله وتعاليم أنبيائه.

توسُّط الإسلام في شأن الزينة

من الآيات المشهورة قوله تعالى:

﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾.

ومن هذه الآية تلمح سماحة الإسلام ويسره، فهو يأمر بالنظافة، ويدعو إلى التجمّل والتزيّن، ويحث على التمتّع بالطيبات. وفي الحديث الشريف يقول النبي (ص):

«إنَّ اللهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، جَمِيلٌ يُحبُّ الجَمَالَ، طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبِينَ».

وقد جاء الإسلام ديناً وَسَطاً، فقد نهى عن التبذير والإسراف، وحذّر من الشح والبخل، وأمر بالقصد والاعتدال قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ

لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الآية ٣٢].

فهو سبحانه خلق الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وفضّله على كثير من المخلوقات، وسخّر له الكون بما فيه من سماء مرفوعة، وأرض مبسوطة، وجبال راسية، وبحار جارية، وليلٍ مظلم، ونهار مضيء؛ وأمره أن يستمتع بالطيّبات، وأن يبتعد عن المحرّمات؛ فهناك حدود بيّنها الله، فالحلال بيّن، والحرام بيّن وظاهر، وبينهما أمور مشتبهات فيها شبهة وإثم؛ فمن ابتعد عن الشبهات فقد سلم عرضه ودينه؛ ومن وقع في الشبهات، كانت الشبهات طريقاً إلى الحرام، كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه. وصدق الله العظيم:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٣٣].

ترابط الآيات في سورة «الأعراف»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الأعراف بعد سورة «ص» وقبل سورة «الجنّ»، وكان نزول سورة «الجنّ» مع رجوع النبي (ص) من الطائف، وكان قد سافر إليها سنة عَشْرٍ من بعثته ليعرض الإسلام على أهلها، فيكون نزول سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وتبلغ آياتها سِتّاً ومائتي آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة الإنذار والاعتبار بقصص الأولين وأحوالهم، وقد أخذ المشركون في هذا الترهيب والترغيب، بعد أن أخذوا في سورة الأنعام بطريق النظر والدليل، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها، ولأنها أيضا تشبهها في الطول، وقد فُصّل فيها من أخبار الأولين ما أُجمل في سورة الأنعام.

وقد ابتُدِئت هذه السورة بمقدّمة في إنذار المشركين إجمالاً بما حصل لأولئك الأولين، ثم أُتبع هذا بتفصيل أخبارهم وبيان ما حَصَل لهم، ثم خُتمت ببيان أنّ الهدى والإضلال بيد الله، فمن يَهْدِه ينتفعْ بهذا القَصَص،

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز - المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

ومن يُضلِله لا ينتفع به، إلى غير هذا مما يأتي في هذه الخاتمة.

المقدمة
الآيات [١ ـ ٩]

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ فذكر أن القرآن كتاب أنزل الى النبي (ص)، ونهاه أن يضيق صدره من تكذيب المشركين له، لينذر به المشركين ويذكّر المؤمنين، وفي هذا براعة مطلع للغرض المقصود من هذه السورة، ثم أمرهم أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ولا يتّبعوا غيره من أوليائهم، وأنذرهم إجمالاً بأنه كم أهلك قبلهم من قرية بعذاب جاءهم بياتاً أو هم قائلون، فلما جاءهم العذاب اعترفوا بظلمهم فلم ينفعهم اعترافهم، ثم ذكر أنه سيجمعهم ومن أرسلوا إليهم فيسألهم عن أمرهم، ويقصّ عليهم ما يعلمه من أعمالهم، ويزنُ أعمالهم بالحقّ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾.

قصة آدم وإبليس
الآيات [١٠ ـ ٥٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝١٠﴾، فذكر نعمته عليهم بالتمكين لهم في الارض تمهيداً لقصة آدم. لأنه أول من مكّن له فيها، ثم ذكر أنه خلقه ثم صوّره ثمّ أمر الملائكة بالسُجود له تكريماً لِخَلْقه، وأن إبليس امتنع عن السجود له عِناداً واستكباراً، وأنه جازاه على هذا باللعن والطرد من الجنة، وجعل وظيفته أقبح وظيفة وهي الوسوسة بالشر، ثم ذكر أنه أسكن آدم وزوجته الجنة ونهاهما عن الأكل من شجرة منها عَيّنَها لهما، وأنّ إبليس احتال عليهما حتّى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطَفِقا يَخْصِفان عليهما من ورق الجنة حياءً، ثم ذكر أنه ناداهما بنهيه لهما فاعترفا بذنبهما، فأمرهما بأن يهبطا من الجنة إلى الارض، وأوقع العداوة فيها بين ذرّيتهم وبين إبليس، وجعل لهم فيها مستقرّاً ومتاعاً إلى أن يرجعهم إليه.

ثم ذكر أنه أنزل عليهما وعلى ذريتهما، بعد هبوطهما إلى الارض، لباساً يواري سوآتهم، وأن لباس التقوى

خير من ذلك اللباس، ثم حذرهم أن يفتنهم إبليس كما فتن أبويهم في الجنة، وذكر أنه، هو وقبيله، يأتونهم من حيث لا يرونهم، وأنه قد جعلهم أولياء للذين لا يؤمنون، وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا، وزعموا أن الله أمرهم بها، ثم أمر النبي (ص) أن يخبرهم بأنه لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقسط وأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد ويدعوه مخلصين له، ثم ذكر أنه سيعيدهم كما بدأهم فريقين: فريقاً هداه، وفريقاً حقّت عليه الضلالة لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دونه ويحسبون أنهم مهتدون، ثم أمرهم أن يأخذوا ما أنزل عليهم من اللباس عند كل مسجد، وأن يأكلوا ويشربوا ولا يُسْرِفُوا في لباسهم وأكلهم وشربهم، وكانوا في الجاهلية يطوفون عراة بالبيت، الرجال بالنهار والنساء بالليل. ويقولون لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، وكان منهم متنسكون لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دَسَماً؛ ثمّ أمر النبي (ص) أن يسألهم سؤال تعجيز عمّن حرّم عليهم الزينة والطيّبات من الرزق، وذكر لهم أنه إنما حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثمَ والبغيَ والشركَ والكذب عليه، في تحريم ما حرموه على أنفسهم، وهدّدهم بأنه إذا كان يُمْهلهم على ذلك فلأنّ كل أمّة لها أجل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ذكر أنه أوحى إلى آدم (ع) وذريته حين هبطوا الى الأرض، أنه إذا أتاهم رُسل يقصّون عليهم آياته، فمن آمن بهم فلا خوف عليه، ومن كذّب واستكبر فجزاؤه الخلود في النار؛ ثم فصّل وعيدهم، فذكر أنه لا يوجد أظلم ممّن افترى عليه وكذّب بآياته، وأنهم ينالون نصيبهم في الحياة من العمر والرزق، ثم يتوفّاهم ملائكة الموت، ويسألونهم عن شركائهم ليدفعوا عنهم، فيجيبون بأنهم ضَلُّوا عنهم، ويعترفون بكفرهم؛ وهناك يأمرهم بأن يدخلوا النار فيمن دخلها قبلهم من أُمم الجن والإنس، فيتلاومون فيها بما ذكره من تلاومهم؛ ثم ذكر أنهم لا تُفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة، حتى يَلِجَ الجَمَل في سَمِّ الخِيَاط، والى غير هذا ممّا ذكر في وعيدهم.

ثم أخذ السياق في تفصيل وعد المؤمنين، فَذَكر من نعيمهم في الجنة ما ذَكَر، ثم ذكر أنهم ينادون أصحاب

النار أنهم وجدوا ما وعدهم ربّهم حقّاً، فهل وجدوا ما وُعدوا به من العذاب حقّاً؟ فيجيبونهم بأنهم وجدوه حقّاً؛ ثم ذكر أنه يوجد على الأعراف بين الجنة والنار رجال يعرفون كلّاً من أهل الجنة والنار بسيماهم وينادونهم بما ذكره في ندائهم، وأن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء، أو بما رزقهم الله، فيجيبونهم بأن الله حَرّمهما على الكافرين الذين اغترّوا بدنياهم، وأنه ينساهم في آخرتهم كما نَسُوا لقاءها؛ ثم ذكر سبحانه أنه جاءهم بكتاب فَصّله على علم وجَعَلَه هدًى ورحمة فقطع به عذرهم، ووبّخهم على انتظارهم تأويل ما أنذرهم به من العذاب؛ وذكر أنه يوم يأتي تأويله، يعترفون بأنّ ما أنذروا به حق، ثم يسألون عن شُفَعاء يشفعون لهم، أو أن يُرَدُّوا ليعملوا أعمالاً غير أعمالهم.

ثم أخذ السّياق في إبطال اعتقادهم في أولئك الشفعاء، فذكر أنه سبحانه ربّهم الذي خلق السماواتِ والأرض في ستة أيام الخ، وأمرهم أن يدعوه جلّ شأنه تضرُّعاً وخُفْيَةً، ولا يفسدوا في الأرض بعد أن أصلحها ومكّن لهم فيها؛ وأن يدعوه خائفين عذابه، راجين رحمته، لأن رحمته قريب من المحسنين؛ ثم ذكر تعالى أنه هو الذي يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته، لتحمل السحاب الى البلد المَيّت فتحييه، وأنه كذلك يحيي الموتى لعلهم يتذكرون ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قصة نوح وقومه
الآيات [٥٩ ـ ٦٤]

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ فذكر أن نوحاً أمر قومه بأن يعبدوا الله وحده وأنذرهم، إن لم يطيعوه، بعذاب يوم عظيم؛ وأنهم أجابوه بأنهم يرونه في ضلال مبين، وأنه أجابهم بأنه لا ضلالة به، ولكنّه رسول من الله إليهم، وأنه ينصح لهم ويعلم من الله مالا يعلمون؛ ثم ذكر أنهم أصرّوا على تكذيبه فأنجاه سبحانه، والذين معه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قصة هود وقومه
الآيات [٦٥ ـ ٧٢]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴿٦٥﴾﴾، فذكر أن هوداً أمر قومه بعبادة الله وحده، وأنهم أجابوه عن ذلك بتسفيهه وتكذيبه، وأنه أجابهم بأنه ليس به سفاهة، ولكنه رسول من الله ناصح لهم أمين؛ ثم وبخهم أن يعجبوا أن جاءهم ذِكْرٌ من ربهم على رجلٍ منهم لينذرهم ويذكّرهم بنعمته عليهم، إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادهم في الخلق بسطةً، ثم ذكر أنهم أصرّوا على تكذيبه فأنجاه سبحانه، والذين معه رحمة منه ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴿٧٢﴾﴾.

قصة صالح وقومه
الآيات [٧٣ ـ ٧٩]

ثم قال تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الآية ٧٣] فذكر أن صالحاً أمر قومه بعبادة الله وحده، وأنه جاءهم بناقة الله آية لهم، وأنّه حذّرهم أن يمسّوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم، وأنه ذكّرهم بنعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد، ثم ذكر أنهم أصروا على تكذيبه، فأخذتهم الرجفة، فأهلكتهم ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴿٧٩﴾﴾.

قصة لوط وقومه
الآيات [٨٠ ـ ٨٤]

ثم قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٨٠﴾﴾، فذكر أن لوطاً استنكر من قومه الفاحشة التي لم يسبقهم أحد إليها وهي إتيانهم الرجال من دون النساء، وأنهم أجابوه بتآمرهم على إخراجه هو وأهله من قريتهم، فأنجاهم الله إلاّ امرأته كانت من الغابرين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٨٤﴾﴾.

قصة شعيب وقومه
الآيات (٨٥ ـ ١١٢)

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الآية ٨٥] فذكر أن شعيباً أمر قومه أن يعبدوا الله وحده

ويوفوا الكيل والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها؛ ثم ذكر أن بعضهم استكبر، وأراد أن يُخْرِجَ شعيباً هو ومن آمن به من قريتهم، وأنه سبحانه أخذهم بالرجفة فأهلكهم وكانوا هم الخاسرين ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم عقّب على هذه القِصَص، ببيان أنّ هذا شأنه في كلّ قرية أرسل فيها نبيّاً، فلا يأخذها بعذاب الاستئصال دفعة واحدة، بل يأخذها أوّلاً بالشدائد والأمراض، ثم يزيل عنهم ذلك، ويأتيهم بالخصب والرخاء، فلا يؤثر فيهم شيء من ذلك وينسبون ما أصابهم منه إلى عادة الزمان، فيأخذهم بغتة وهم لا يشعرون؛ ولو أنهم آمنوا، لفتح عليهم بركات السماء والأرض بالمطر والنبات.

ثمّ وبّخ أهل القرى الحاضرة على أمنهم أن يصيبهم ما أصاب تلك القرى من بأسه بياتاً وهم نائمون، أو ضُحًى وَهُمْ يلعبون؛ وعلى أمنهم مَكْرَهُ بهم، فلا يأمنه إلا القوم الخاسرون؛ وعلى أنه لم يتبيّن لهم بعد أن ورثوا أرضهم وقصّ عليهم أخبارهم، أنه لو يشاء أصابهم كما أصابهم، ولكنّه طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون؛ ثمّ ذكر أنه قصّ عليه من أنباء تلك القرى، وأنّهم كانوا سواء في أنهم يكذبون بعد نزول المعجزات كما كذبوا من قبلها، وينسون عهدهم أن يؤمنوا بعد نزولها ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل الآيات [١٠٣ ـ ١٧٤]

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ فذكر أنه بعث موسى إلى فرعون وقومه بآياته، وأنّهم كذّبوا بها فأهلكهم؛ ثمّ فصّل ذلك، فذكر أن موسى أخبر فرعون بأنه رسوله إليه، وطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل إلى الأرض التي وُعِدُوا بها؛ وأنّ فرعون طلب منه آية تدل على صدقه، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، فلما رأى قومه ذلك زعموا أنه سحر، وطلبوا منه

أن يجمع السحرة ليغلبوه بسحرهم؛ ثمّ ذكر ما كان من السحرة وإيمانهم حين ظهر لهم عجزهم، وما كان من إصرار فرعون وقومه على الكفر بعد عجز سحرتهم، ومضيهم في الانتقام من بني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم؛ فأمر موسى بني إسرائيل أن يستعينوا على ذلك بالصبر، ووعدهم أن يهلك الله عدوّهم ويستخلفهم في الأرض؛ ثمّ ذكر ما كان من أخْذِهِ قومَ فرعون بالسنين، ونقصٍ من الثمرات، وأنّهم كانوا إذا أصيبوا بذلك لا يتّعظون به، بل يشتدّ كفرهم، ويزعمون أنّه من شؤم موسى وقومه عليهم؛ ثمّ ذكر أنه أرسل عليهم بعد ذلك الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فاستكبروا ولم يؤمنوا؛ ثم أوقع عليهم الرِّجْز وهو الطاعون، فذهبوا إلى موسى ليدعو ربه أن يرفعه عنهم، ووعدوه عند رفعه أنه يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل؛ فلمّا كشف الرجز عنهم نكثوا عهدهم، فانتقم الله تعالى منهم بإغراقهم في البحر، وأورث بني إسرائيل الأرض التي بارك فيها، ودمّر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعْرِشون.

ثم ذكر ما كان من بني إسرائيل بعد أن أنجاهم وأغرق آل فرعون، وأنهم جاوزوا البحر، فأتوا على قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثلهم، فَجَهَّلَهُم وبيّن لهم بطلان عبادة الأصنام، وأنه لا يليق بهم بعد أن أنجاهم الله من آل فرعون أن يعبدوا غيره؛ ثم ذكر أن موسى (ع) تغيّب عن قومه أربعين ليلة، ليتلقّى التوراة فيها عن ربّه، واستخلف أخاه هارون على قومه، وأنه لما جاء لميقات ربّه، وكلّمه، طلب منه أن يراه؛ وأنه لم يجبه الى ذلك، وطلب منه أن ينظر إلى الجبل، وقد تجلّى له فاندكّ وتفرّق، وخرّ هو صَعِقاً من هول ما رأى؛ فلمّا أفاق أظهر له التوبة من طلب رؤيته، فقبل توبته وأنزل عليه التوراة مكتوبة في الألواح؛ وأمره أن يأخذها بقوّة، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها إذا كان فيها تخيير بين حسن وأحسن؛ ووعدهم بأنه سيُدْخِلهم الأرض التي وعدهم بها، وذكر أنه سيصرف عن آياته أصحابها الذين يتكبّرون فيها ويؤثرون سبيل الغيّ على سبيل الرشد، لأنهم كذبوا بآياته وغفلوا عنها، فحبِطت أعمالهم ولا يجزون إلا ما كانوا يعملون؛ ثم ذكر أن قوم موسى اتخذوا من بعده من حُلِيِّهم

عِجْلاً جَسَداً له خُوارٌ فعبدوه من دونه سبحانه، وأنّهم ندموا على ذلك، ورأوا أنهم قد ضلّوا وطلبوا رحمة الله ومغفرته لذنبهم، وأن موسى رجع إليهم غضبان أسفاً لما فعلوا، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه هارون يجرّه إليه؛ فاعتذر له بأنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه، فطلب من ربه أن يغفر له ولأخيه ويرحمهم جميعاً ولا يؤاخذهم بما فعلوا؛ وقد أجيب بأنّ الذين اتخذوا العجل وزيّنوا عبادته لهم سينالهم غضب من ربهم وذلّة في الدنيا، لأنهم سيعودون إلى عصيان ربهم، وقد فعلوا ذلك، بعد أن فتحوا الأرض الموعودة لهم؛ وبأنّ الذين لم يقعوا في العبادة مثلهم وأساؤوا بعدم مفارقتهم، ثمّ تابوا وآمنوا، ستغفر سيئاتهم. ثم ذكر سبحانه، أن موسى اختار سبعين رجلاً منهم لميقاته ليعتذروا عن ذلك الفعل، وأنه أخذهم بالرجفة إظهاراً لغضبه ممّا فعلوا، فتوجّه موسى إليه بالدعاء أن يغفر لهم ويرحمهم، ولا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم؛ وأنه جلّ جلاله أجابه بأنه يعذّب من يشاء ولا يُسْألُ عمّا يفعل، وأنّ رحمته وَسِعَتْ كلّ شيء حتّى العاصين من عباده، وسيكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون به، ويتّبعون الرسول النبي الأمي حين يُبعث إليهم، وهو الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، إلى غير هذا ممّا ذكره في البشارة بمحمد (ص)، ثم استطرد السّياق من ذلك إلى أمره سبحانه للرسول (ص) بعد هذه البشارة أن يذكُرَ للناس أنه رسول الله إليهم جميعاً؛ وأن يأمرهم باتباعه لعلّهم يهتدون؛ ثم ذكر تعالى أن من قوم موسى أمّة يهدون بالحق، فلا ينكرون تلك البشارة.

ثم عاد السياق إلى موسى وقومه، فذكر أن الله جلّ جلاله قطّعهم اثنتي عشرة أسباطاً، وأنه أوحى إليه إذا استسقوه أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعددهم؛ وأنه ظلّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وأنّهم ما ظلموه سبحانه، إذ عصوه بعد هذا، ولكن ظلموا أنفسهم؛ ثمّ ذكر من عصيانهم أنه أمرهم بسكنى القرية التي وعدهم بها، وهي بيت المَقْدِس، وأن يقولوا حين دخولها حِطّةٌ ويدخلوا الباب سُجَّداً، فبدّلوا ذلك وقالوا حنطة،

فطلبوا ذلك ولم يطلبوا حطّ الخطايا عنهم، ثم ذكر أيضاً قصة الذين اعتدوا منهم في السبت، وأنهم أصرّوا على اعتدائهم ولم يسمعوا للذين وعظوهم، فأخذهم بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، وجعلهم في طباع القردة والخنازير من الشره والطمع، وبعث عليهم من يسومهم الذُّل والصَّغار إلى يوم القيامة، وبدّد شملهم في الأرض طوائف محكومة لأهلها، منهم الصالحون وهم الذين لم يصيروا في طباع القردة والخنازير، ومنهم دون ذلك وهم الذين صاروا في طباعها، وانحرفوا عمّا جاءت به التوراة من الأخلاق الفاضلة؛ ثمّ ذكر أنه بلاهم بالحسنات والسّيئات لعلهم يرجعون إلى فضائل دينهم، فخلف من بعدهم خلف انحرفوا عنه أكثر منهم، يأخذون الرُّشا على تحريف التوراة، ويزعمون أنه سيغفر ذلك لهم، مع أنهم يصرّون عليه ولا يقلعون عنه وقد أخذ عليهم عهد التوراة أن يحافظوا عليها ولا يحرّفوها، وهم يدرسون ذلك فيها ويعرفونه؛ والدار الآخرة خير من تلك الرشوة التي يأخذونها على التحريف؛ والذين يتمسّكون بالتوراة ولا يحرّفونها لا يضيع أجرهم فيها، ثمّ ذكر أنه أخذ هذا العهد عليهم حين رفع الجبل فوقهم، وأمرهم أن يأخذوا التوراة بقوّة ويحافظوا عليها، ثمّ ذكر أنه أخذ على بني آدم جميعاً عهده يوم خلقهم، أن يعترفوا بأنه ربّهم ويطيعوه، وأنّهم شهدوا على أنفسهم يوم أخذه عليهم لئلا يدّعوا يوم القيامة أنهم غفلوا عنه، أو أنهم أشركوا كما أشرك آباؤهم تقليداً لهم، فلا يصح أن يؤخذوا بما فعلوه قبلهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

قصة عالِم لم يعمل بعِلْمه
الآيات [١٧٥ ـ ١٧٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فذكر نبأ عالم أتاه علم كتبه فلم يعمل به، فتولاّه الشيطان حتى أضلّه وصار مثله كمثل الكلب في خسّته وذلّته. ثمّ ذكر أن هذا مَثَلُ الذين كذّبوا بآياته؛ وأمر النبي (ص) أن يقصّ عليهم ذلك المثل لعلهم يتفكرون ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الخاتمة

الآيات [١٧٨ ـ ٢٠٦]

ثمّ قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾ فذكر ان الهداية والإضلال بيده وحده جلّ جلاله، فمن يهده فهو المهتدي ومن يضلله فأولئك هم الخاسرون؛ ثمّ ذكر أنه خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس لا يعتبرون بما قصّه من ذلك، لأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون، فهم كالأنعام بل هم أضلّ؛ ثمّ ذكر أن له سبحانه الأسماء الحسنى، وأمرهم أن يدعوه بها ولا يتّبعوا الذين يُلْحِدُونَ في أسمائه من أولئك الجهلاء؛ وأنّ ممّن خلقه، أمة يهدون بالحق، فلا يلحدون في أسمائه؛ وأنّ الذين كذّبوا بآياته، سيستدرجهم، ثمّ يأخذهم بغتة كما أخذ أولئك الأولين؛ ثمّ وبّخهم على ترك التفكير في أمر النبي (ص) ليعلموا أنه ليس به جِنّةٌ، وإنما هو نذير مبين؛ كما وبّخهم لأنهم لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ليعرفوا خالقهم، وفيما ينذرهم به، ليعلموا أنه قد اقترب أجَلُهم؛ ثمّ ذكر أن من يضلله فلا يهتدي بشيء من ذلك، ويتركهم في طغيانهم يعمهون.

ثمّ ذكر سبحانه أنهم سألوا النبيّ (ص) عن ساعة ذلك العذاب أيّان مُرْساها؟ فأجابهم النبيّ (ص) بأنّ علمها عند الله وحده، وهي لاتأتيهم إلاّ بغتة من غير سابق علم، وبأنه لم يدّع لهم أنه يملك لنفسه نفعاً أو ضرّاً، أو يعلم الغيب حتى يكون إليه ذلك الأمر؛ وإنما يرجع ذلك إلى مشيئة الله وإرادته، وما هو إلا نذير وبشير لقومٍ يؤمنون.

ثم أخذ السّياق يبين لهم فساد شركهم، فذكر سبحانه أنه هو الذي خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، فلمّا حملت منه دَعَوَا الله ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)﴾ فلمّا آتاهما ما طلبا جعل أولادهما له شركاء فيما آتاهما؛ ثمّ وبخهم على أن يشركوا به مالا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقون، إلى غير هذا مما ذكره في إبطال شركهم، ثم أمر النبي (ص) أن يأمرهم بدعوة شركائهم لكيده، تعجيزاً لهم، وأن يذكر لهم أن وليّه الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين؛ وأنّ هؤلاء الشركاء لا يستطيعون نصرهم ولا نصر أنفسهم، ثمّ ذكر سبحانه أن

النبي (ص) إن يَدْعُهم إلى الهدى لا يسمعوا؛ ينظرون إليه وهم لا يبصرون؛ وأمره أن يأخذ بما شرعه له من العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين، وأن يستعيذ به جلّ جلاله إذا اعتراه من الشيطان نَزْغٌ، لأن هذا هو سبيل المتّقين إذا مسّهم الشيطان بطائف منه؛ ثمّ ذكر أنه إذا لم يأتهم بآية ممّا يقترحونه، قالوا لولا اقترحتها على الله، وأمره أن يجيبهم بأنه لا يتّبع إلا ما يوحى إليه، فلا يقترح شيئاً عليه؛ وبأنه، قد أتاهم بصائر من القرآن تغني عن غيره من المعجزات؛ ثمّ أمرهم أن يستمعوا له ويُنْصِتُوا إذا قُرِئ عليهم لعلّهم يرحمون؛ وأمر النبي (ص) أن يذكره تضرّعاً وخِيفَةً، ودون الجهر من القول بالغُدُوّ والآصال؛ ونهاه أن يكون من الغافلين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

أسرار ترتيب سورة «الأعراف»(*)

أقول: مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمني الله سبحانه: أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق، وقال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام/٢] وقال في بيان القرون ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام/٦]، وأشير فيها إلى ذكر المرسلين، وتعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال، لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها.

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط، بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت فيها[1]. وذلك تفصيل إجمال قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام/٢] ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم، وكيفية إهلاكهم، تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً، لم يقع نظيره في سورة غيرها[2]، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الآيات الثلاث.

وأيضاً، فذلك تفصيل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام/١٦٥]. ولهذا صدرَ هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

(١) انظر في قوله تعالى من ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الآية ١١].
الى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴿٢٥﴾﴾.

(٢) انظر من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الآية ٥٩] الى ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴿١٧٦﴾﴾.

خليفة[1] وقال في قصة عاد: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الآية ٦٩] وفي قصة ثمود: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الآية ٧٤].

وأيضاً فقد قال تعالى في الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام/١٢]. وهو موجز، وبسطه هنا بقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الآية ١٥٦]. إلى آخره. فبيّن من كتبها لهم.

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو: أنه تقدم هناك: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام/١٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام/١٥٥] فافتتح هذه السورة أيضاً باتباع الكتاب في قوله جل شأنه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الآية ٢] إلى ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية ٣].

وأيضاً لما تقدم تعالى في الأنعام: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. قال في مفتتح هذه السورة: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الآية ٧]. وذلك شرح التنبئة المذكورة.

وأيضاً فلمّا قال سبحانه في الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام/١٦٠]. وذلك لا يظهر إلا في الميزان، افتتح هذه السورة بذكر الوزن، فقال: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الآية ٨] ثمّ ذكر من ثقلت موازينه، وهو من زادت حسناته على سيئاته، ثمّ من خفّت موازينه، وهو من زادت سيئاته على حسناته؛ ثمّ ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

(٣) انظر من الآية رقم (١١) الى آخر الآية رقم (٢٥).

مكنونات سورة «الأعراف»[*]

١ ـ ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [الآية ٤٤].

في «تفسير أبي حيّان[١]». قيل: هو إسرافيل. وقيل: جبريل. وقيل مَلَكٌ غيرُ مُعَيَّن.

٢ ـ ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الآية ٤٦].

ورد في أحاديث مرفوعة أنهم قوم اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهم وسَيِّئاتُهم[٢].

أخرجه ابنُ مَرْدُوْيه، وأبو الشيخ من حديث جابر بن عبدالله، والبيهقي في «البعث» من حديث حذيفة.

وأخرجه سعيد بن منصور، وعبد الرزاق[٣]، وغيرهما عن حذيفة موقوفاً[٤].

وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً.

وأخرج الطبراني[٥] من حديث أبي سعيد الخدري، والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً، أنهم قوم قُتِلُوا في سبيل الله، وهم عصاة لآبائهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) «البحر المحيط» ٤/١٠٣.

(٢) وهو قول جمهور المفسّرين. انظر «تفسير ابن كثير» ٢/٢١٦.

(٣) والحاكم في «المستدرك» ٢/٣٢٠.

(٤) الموقوف: هو ما أضيف الى الصحابة رضوان الله عليهم ولم يتجاوز به الى رسول الله (ص). انظر: «منهج النقد في علوم الحديث»: ٣٢٦.

(٥) في «المعجم الاوسط» و«الصغير»، وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف. «مجمع الزوائد» ٧/٢٣. وابن عساكر في «تاريخ دمشق» في ترجمة الوليد بن موسى. كما في «تفسير ابن كثير» ٢/٢١٧.

وأخرج البيهقي عن أنس مرفوعاً: أنهم مؤمنو الجنة. وأخرج هو، وأبو الشيخ من طريق سليمان التيمي، عن أبي مجلز[1]: أنهم من الملائكة. قال سليمان: قلت لأبي مجلز: الله يقول: (رجال)، وأنت تقول: (الملائكة)! قال هم ذكور، ليسوا بإناث[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: هم قوم صالحون، فقهاء، علماء.

وأخرج أيضاً عن الحسن قال: هم قوم كان فيهم عُجْب.

وأخرج عن مُسلِم بن يَسار قال: هُمْ قومٌ كان عليهم دَيْن.

وفي «العجائب» للكرماني: قيل: هم الأنبياء.

وقيل: الملائكة.

وقيل: العلماء.

وقيل: الصَّالِحون.

وقيل: الشهداء، وهم عُدول الآخرة.

وقيل: قوم استوت حسناتهم وسيِّئاتهم.

وقيل قوم قُتِلُوا في الجهاد؛ عصاة لآبائهم[3].

وقيل: قوم رضي عنهم آباؤهم، دون أمّهاتهم؛ وأمّهاتهم دون آبائهم.

وقيل: هم الذين ماتوا في الفترة، ولم يبدِّلوا دينهم.

وقيل: أولاد الزنا.

وقيل: أولاد المشركين.

وقيل: المشركون. انتهى.

٣ - ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الآية ١٣٨].

---

(١) سليمان التيمي: هو ابن طرخان، من عُبّاد أهل البصرة وصالحيهم، ثقة وإتقاناً وحفظاً وسنة، توفي سنة (١٤٣).
وأما أبو مجلز فهو: لاحق بن حميد السدوسي البصري، ثقة توفي نحو عام (١٠٩) هـ.

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره» ٢/٢١٧: وهذا صحيح الى أبي مجلز، لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق، وقول الجمهور مقدّم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا عليه؛ وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء، فيه غرابة أيضاً؛ والله أعلم.

(٣) في خبر أخرجه أحمد بن منيع، كما في «المطالب العالية»: (٣٦٢٣).

قال قَتادة: أتوا على لخم وجذام[1]. أخرجه ابن أبي حاتم.

وأخرج عن أبي قدامة قال: سمعت أبا عمران الجوني، قال: هل تدري من القوم الذين مرَّ بهم بنو إسرائيل ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾؟ قلت: لا أدري!

قال: هم قومك: لخم وجذام.

٤ ـ ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الآية ١٤٢].

قال ابن عباس: ذو القعدة، وعشر ذي الحجة. أخرجه ابنُ أبي حاتم من طريق عطاء عنه، وأخرج مثله عن أبي العالية، وغيره.

٥ ـ ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

قال مُجاهد: مصيرهم في الآخرة.

وقال الحسن: جهنّم. أخرجهما ابن أبي حاتم.

وقد تصفّحت الرواية الأولى على بعض الكبار، فقال: مصر. ذكره الحافظ أبو الفضل العراقي في «شرح ألفية الحديث»[2].

٦ ـ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الآية ١٦٣].

قال ابن عباس: هي «أَيْلة»[3]. أخرجه ابن أبي حاتم، من طريق عكرمة عنه.

وأخرج من وجه آخر عن عكرمة عنه قال: هي قرية يقال لها: «مَدْيَن»[4] بين أيلة والطُّور.

---

(١) كان قوم «لخم» يعبدون المشتري، ويحجون الى صنم في مشارف الشام، يقال له: الأقيصر، ويحلقون رؤوسهم.
وأما «جُذام» ـ وهم أول من سكن مصر من العرب، حين جاؤوا في الفتح مع عمرو بن العاص ـ فكانوا يعبدون أوثان قوم لخم نفسها.
انظر «معجم قبائل العرب» لكحّالة: ١٧٤، ١٠١٢.

(٢) والحافظ السخاوي في «فتح المغيث شرح ألفيّة الحديث» ٣/٧١، وقول المؤلّف: «على بعض الكبار»: هو يحيى بن سلام، البصري، ثمّ الإفريقي، المفسّر الفقيه، المولود سنة ١٢٤، والمتوفى سنة ٢٠٠، أدرك نحو عشرين من التابعين، له «تفسير القرآن» قال ابن الجوزي: «ليس لأحد من المتقدّمين مثله» وتفسيره ذاك توجد منه أجزاء خطيّة في تونس والقيروان. انظر «الاعلام» للزّركلي ٨/١٤٨.

(٣) أيلة: مدينة إيلات في جنوب فلسطين. انظر وصفها في «معجم البلدان».

(٤) مدين: على البحر الاحمر محاذية لتبوك.

وأخرج عن ابن شهاب قال: هي طبرية.

وأخرج عن عبد الرحمن بن زيد بن أيلم قال: هي قرية يُقال لها: «مَقْنا» بين مَدْيَن وعَيْنونا[1].

٧ - ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الآية ١٧٥].

قال ابنُ مسعود: هو بلعم بن أبراء[2]. أخرجه الطبراني وغيره[3].

وقال ابن عباس: بلعم. وفي رواية: بلعام بن باعر[4]، من بني إسرائيل. أخرجه أبو الشيخ من طرق عنه.

وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق العوفي عنه قال: هو رجلٌ يُدْعى بلعم من أهل اليمن.

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو قال: هو أمية بن أبي الصَّلْت[5].

وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق قتادة، عن ابن عباس قال: هو صيفي بن الراهب.

وأخرج عن الشعبي قال: ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وتقول ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت. وتقول

---

(١) عينونا: قيل: هي من قرى بيت المقدس. وقيل: قرية من وراء البثنية من دون القلزم في طرف الشام وقال البكري: قرية يطأها طريق المصريين اذا حجوا. «معجم البلدان».

(٢) كذا في «الدر المنثور» و«الطبري»: «أبر»، ولفظ الحاكم في «المستدرك»: «باعوراء». وفي «تاريخ دمشق» لابن عساكر ١٠/ ٢٥٦: «ويقال: بلعام بن باعوراء . ويقال: ابن ابر ويقال: ابن اور، ويقال: ابن باعر، كان يسكن قرية من قرى البلقان، وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه؛ له ذكر في القرآن».

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٢٥: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه أيضاً: الطبري في «تفسيره» ٩/ ٨١، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٢٥، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١٠/ ٢٦٦، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه. كما في «الدر المنثور».

(٤) انظر «الدر المنثور» ٣/ ١٤٥.

(٥) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. كما في «مجمع الزوائد» ٧/ ٢٥، وصحح نسبته ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ٢٦٥، وقال «وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصّلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله (ص)، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار الى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم؛ ورثى اهل بدر من المشركين، بمرثاة بليغة، قبّحه الله، وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممّن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، فإن له أشعاراً ربانية، وحِكَماً وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام».

الأنصار: هو الراهب الذي بني له مسجد الشقاق.

وأخرج عن قتادة قال: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى، فأبى أن يقبله وتركه.

وفي «العجائب» للكرماني: قيل: إنه فرعون. والآيات: آيات موسى.

٨ - ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

هي هذه الأمّة. أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة من قوله، وعن الربيع بن أنس[(١)] مرفوعاً إلى النبي (ص) مُرْسَلاً[(٢)].

وأخرجه أبو الشيخ عن ابن جريج قال: ذكر لنا أن النبي (ص) قال: «هذه أمتي».

٩ - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية ١٨٧].

سُمِّيَ منهم: حَمَلُ بن قُشَيْر، وشمويل بن زيد[(٣)].

١٠ - ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية ١٨٩].

الآية كلّها في آدم وحواء. كما أخرجه التِّرمِذي، والحاكم من حديث سمرة مرفوعاً[(٤)]. وأخرجه ابنُ أبيّ عن ابن عباس، وغيره.

---

(١) الربيع بن أنس البكري، أو الحنفي، بصري، له أوهام في روايته الحديث، مات سنة (١٤٠) هـ.

(٢) المرسل: ما رفعه التابعي، كقول التابعي: قال رسول الله (ص).

(٣) أخرجه ابن جرير ٩/٩٣، وابن اسحاق، وابو الشيخ، عن ابن عباس.

(٤) التِّرمِذي (٣٠٧٩) في التفسير، وقال: هذا حديث حسن غريب. ورواه التِّرمِذي أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وعنه أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٢٥ وصححه على شرط مسلم، وأقرّه الذهبي عليه، ولم أر رواية سمرة في «المستدرك»، كما عزاها المؤلف اليه، والله أعلم.

لغة التنزيل في سورة «الأعراف»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الآية ٢].

قالوا: الحَرَج الشكُّ منه، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس/ ٩٤].

وسمي الشكُّ حَرَجاً، لأنّ الشاكَّ ضيِّقُ الصدر حَرِجُه، كما أنّ المُتَيَقِّنَ منشرحُ الصدر مُنفَسِحُه. أي: لا تشكّ في أنّه مُنَزَّلٌ من الله، ولا تَحرَج من تبليغه(١).

أقول: والأصل في «الحَرَج» الضِّيقُ، ولنتسع قليلاً في «الحَرَج» فنقول الحِرْج والحَرَج الإثم، والحارج الآثم. والحَرَج والحَرِج والمتحَرِّج: الكافّ عن الإثم.

ورجل مُتَحَرِّج، كقولهم: رجل متأثِّم ومتحوِّب ومُتحنِّث، يلقي الحَرَجَ والحَوْبَ والإثْمَ عن نفسه.

قال الأزهري: وهذه حروف جاءت معانيها مخالفة لألفاظها.

وأحْرَجَه، أي: آثَمَهُ، والتحريج: التضييق.

وفي الحديث: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج».

قال ابن الاثير: الحَرَج في الأصل الضيق، ويقع على الإثم والحرام، وقيل: الحَرَجُ أضيق الضيق، ومعناه أي لا بأس عليكم ولا إثم أن تحدّثوا عنهم ما سمعتم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لابراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) «الكشاف» ٢/ ٨٥ ـ ٨٦.

وحَرِجَ صدرُه يحرَجُ حَرَجاً: ضاقَ فلم ينشرح لخير، فهو حَرِجٌ وحَرَجٌ فمن قال: حَرِجٌ، ثنّى وجَمَعَ، ومن قال: حَرَجٌ، أفرَدَ لأنه مصدر.

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام/ ١٢٥] وحَرِجاً.

قال الفرّاء: قرأها عمر وابن عبّاس، حَرَجاً، وقرأ الناس: حَرِجاً.

أقول: فإذا فسّرنا الآية موضعَ بحثنا على «الشكّ»، فذلك من كون أن الشاكّ ضيّق الصدر متحرِّج غير منشرح، ومثل هذا كثير في العربية، ومنه الإصْر، وغيره.

٢ ـ وقال تعالى ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

والمعنى فجاءها بأسنا وهم بائتون، أو هم قائلون، فالمصدر بتأويل الحال، أي: بائتين.

ومثل هذه الآية، قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

والبيَات: البيتوتة مصدر الفعل باتَ يبيت، وقالوا بيَات.

والبيتوتة مثل مصادر أخرى وهي الغيبوبة، والصيرورة، والسيرورة، والشيعوعة والقيمومة، والحيلولة، والطيرورة، وكذلك القيلولة.

وكنت لحظت في أن هذه المصادر، تلمح إلى أن أصل الفعل الأجوف هو المضاعف الثلاثي؛ ألا ترى أننا نقول ضير وضُرّ وضرر، وغبّ وغيب، وجَبّ وجيب؛ ولو استقريت سائر هذه المواد بشيء من لطف الصنعة، لوصلت الى هذه النتيجة التي لمحناها.

ثم ماذا عن القيلولة التي ترجع اليها كلمة «قائلون» في الآية؟ القائلة: الظهيرة، يقال: أتانا عند القائلة، وقد تكون بمعنى القيلولة أيضاً، وهي النَّوم في الظهيرة.

وفي «المحكم»: أن القائلة نصف النهار، والقيلولة نصف النهار، وقال يقيل قَيْلاً ومَقالاً ومقيلاً، الأخيرة عن سيبويه.

وكأن المعاصرين قد ابتعدوا قليلاً حينما أضافوا كلمة «نوم» الى «القيلولة»، فقالوا: نوم القيلولة، ويريدون بذلك نوم الظهيرة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

والمراد: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، والمعنى: والوزن يومَ يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن الحقّ، أي: العَدْل.

ومن ثقلت موازينه، أي: من رجَحَتَ أعماله الموزونة، وهي الحسنات فهو من المفلحين، ومن خَفَت موازينه إشارة الى سيئاته، فقد خسر نفسه.

أقول: وَصف الحسنات وأعمال الخير بالثِّقَل حينما تُوزَن تعبير جميل، ما زال أهل عصرنا يستخدمون شيئاً منه فيقولون رجل ذو وَزْن، أي: ذو قدْر عظيم ومكانة، ويقولون في دارجتهم العامّية، فلان مَوزون بالمعنى نفسه، ويقال في طائفة من الألسن الدارجة: هو ثقيل بإبدال القاف كافاً ثقيلة «ثكيل» وبكسر الثاء، وهي لغة قديمة في فعيل، إنها لغة تميم.

على أن الفصيحة تأبى الوصف بـ «الثقيل»، لهذا المعنى وهو: من رجحت موازينه، والثقيل في الفصيحة القديمة والمعاصرة البليد الجامد الحِسّ. على أن الفصيحة قد شاع فيها «ثقل الموازين»، لمن كَثُرتْ حَسَناته ورَجَحَت أعماله الحسنة، ويحسن بنا أن نشير إلى أن «الخفيف» قد يكون صفة إيجابية في العربية الفصيحة، فيقال: فلان خفيف الظل، ويكون صفة غيرمقبولة في الألسن الدارجة. فالرجل الخفيف هو غير الرزين العاقل المستحي، وهو الشعشاع غير المتأدّب المتحرّج.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

المعنى: فما يصحُ لك ان تتكبّرَ فيها وتعصي.

وهذا من لطيف استعمال الفعل «يكون» وهو شيء آخر غير «كان» ذات العمل الخاص، وهو رفع المسند إليه ونصب المسند.

والمراد بـ «الصاغرين» أهل الصَّغار والهوان.

والصَّغار: الذُّلُّ والضَّيم وكذلك الصُّغْر، والمصدر الصَّغَر بالتحريك وصَغِرَ فلان يصغَر صَغَراً وصَغاراً فهو صاغر، إذا رضي بالضيم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

أي: أذلاء.

أقول: فُرّق في العربية بين الفعل ذي الدلالة المحسوسة، والفعل ذي الدلالة المجرّدة أو المعنوية، فالصِّغر ضد الكِبَر، وهو في الجسم والسن، والصَّغر والصَّغار، الذل والهوان، والفعل صغُر في الأول، وصَغِرَ في الثاني.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الآية ١٧].

الأيمان جمع يَمين وهو الجهة اليُمنَى، والشمائل جمع شِمال وهو الجهة اليُسْرى.

وكذلك اليد اليمين، واليَدُ الشِّمال؛ وفلان يُنعِم بيمينه، ويقبِض بشماله.

والشِّمال: الطَّبع، والجمع شَمائل أيضاً، والشِّمال: الخُلُق.

وقلّما نجد كلمة «الشمال» في كلامهم بل نجدها مفردة.

على أن الشمال قد وردت في الشعر، قال عبد يغوث بن وقاص:

ألم تعلما أن الملامة نفعها
قليلٌ، وما لومي أخي من شِماليا

وقال صخر بن عمرو الشريد أخو الخنساء:

أبى الشَّتمَ أنّي قد أصابوا كريمتي
وأنْ ليسَ إهداءُ الخَنَى من شِماليا

وقال آخر:

هُمُ قومي وقد أنكرتُ منهم
شَمائلَ بَدّلوها من شِمالي

أمّا الريح التي تهبّ من جهة الشمال فهي شَمال، وشَمْأل وشأمل.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الآية ١٨].

وقوله تعالى: «مذؤوماً» من ذأمَهَ إذا ذمّه.

أقول: والذأم، مهموزاً: الذَّمُّ ومثله الذّام.

ومن هنا نلمح القرابة بين المهموز والأجوف والمضاعف، وكنا قد أشرنا إلى الصلة بين المضاعف والأجوف، ومنه الذّامُ والذّم.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وأقسَمَ لهما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

فإن قلتَ: المقاسَمة أن تُقسِمَ لصاحبك ويُقسِمَ لك، تقول: قاسَمتُ فلاناً: حالفتُه، وتقاسَما، تَحالفا، ومنه قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل/٤٩][(١)].

وأقسمتُ: حلَفتُ: وأصله من القَسامة.

وقال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴿٩٠﴾﴾ [الحجر].

هم الذين تقاسموا وتحالفوا على كيد الرسول (ص) والقَسامة: الذين يحلفون على حقّهم ويأخذون.

وفي الحديث: «نحن نازلون بخَيْفِ[(٢)] بني كِنانة حيث تقاسَموا على الكفر».

وتقاسَموا من القَسَم اليمين، أي تحالفوا، يريد لمّا تعاهَدَت قريش على مقاطعة بني هاشم وترك مخالطتهم[(٣)].

أقول: لم يبق لنا من هذه الذخيرة اللغوية في العربية المعاصرة إلاّ أقسَم من الحلف، أي: اليمين أمّا اقتسَمَ، وقاسَم، وتقاسَم فكلّه يرجع الى القَسْم، وهو القطع والقصّ، والقِسْم: الجزء.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية ٢٢].

أي: وجعَلا يخصفان. وقد ورد الفعل طفق في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طـه/١٢١].

وفي قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴿٣٣﴾﴾ [ص].

هذا كلّ ما نعرف عن استعمال «طَفِقَ» في العربية فلم يؤثر استعمالها في غير هذه الآيات الكريمة.

وقالوا: طفَقَ بالفتح لغة رديئة، وهي ملازمة لحالة المَضِيّ فلم يرد يطفَق ولا المصدر، فهو نظير كَرَبَ، وحَرَى، وعَسَى، في أنها وردت جامدةً على هذه الهيئة، وليس من أبنية أخرى.

٩ ـ وقال تعالى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا

(١) «الكشاف» ٢/ ٩٥.

(٢) الخَيْف: ما انحدر من غِلَظ الجبل، ولرتفع عن مسيل الماء.

(٣) «اللسان» (قسم).

﴿عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الآية ٢٦].

و«الريش»: لباس الزينة استعير من ريش الطير، لأنه لباسُه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسَيْنِ: لباساً يُواري سوآتكم، ولباساً يزينكم.

قرأ عثمان، رضي الله عنه: ورياشاً، جمع ريش.

أقول: والرِّيشُ والرِّياش: الخِصبُ والمعَاش والمال والأثاث واللباس الحَسنُ الفاخر. وأكبر الظن، أنّ هذه المعاني قد جاءت من «الريش» في الآية الكريمة التي تفيد الزينة.

والرِّياش في عصرنا، تفيد ما يُفرش من البُسط والزرابيّ، ونحو ذلك.

١٠ ـ وقال تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الآية ٢٧].

المراد بـ «قبيله» جنوده من الشياطين.

والقبيل: الجماعة من الناس، يكونون من الثلاثة فصاعداً، من قوم شَتّى كالزّنج والرّوم والعرب؛ وقد يكونون من نحو واحد؛ وربما كان القبيل من أبٍ واحد كالقبيلة. وللقبيل دلالات أخرى هي: يقال: ما يعرف قبيلاً من دَبير: يريد القُبُل والدُّبُر.

والقبيل: طاعة الرَّبِّ تعالى، والدبير معصيته.

والقبيل: باطن الفَتْل والدبير ظاهره، أو ما أُقبِلَ به على الصدر، والدبيرُ: ما أُدبِرَ به عنه.

والقبيل: فوز القِدْح في القِمار، والدبير: خيبة القِدْح.

والقبيل: الكفيل والعريف.

على أنّنا لا نملك من كلّ هذه المادّة في هذه الدّلالات إلاّ شيئاً واحداً، لا نجد له أصلاً واضحاً قديماً؛ وذلك قولهم مثلاً: اجتمعت أشياء كثيرة في البيت، من أثاث ورياش ولباس وغير ذلك من هذا القبيل، أي من هذه الأشياء وما يشبهها.

١١ ـ وقال تعالى ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الآية ٤٠].

الجَمَل معروف وهو الحيوان.

ولنرجع إلى القراءات، فقد ذُكِرَ أنّ ابن عباس قَرَأ: (حتى يلج الجُمّل)، بضم فتشديد، وهي الحبال المجموعة.

ورُوِيَ عن أبي طالب أنه قال: رواه القُرّاء (الجُمّل) بتشديد الميم، قال: ونحن نظن أنه أراد التخفيف.

قال أبو طالب: وهذا لأن الأسماء إنما تأتي على فَعَل مخفف، والجماعة تجيء على فُعَّل مثل صُوَّم وقُوَّم.

قال أبو الهيثم: قرأ أبو عمرو والحسن وهي قراءة ابن مسعود: حتى يلجَ الجُمَل، مثل النُّغَر في التقدير.

فأما الجُمَل بالتخفيف فهو الحبل الغليظ، وكذلك (الجُمَّل) مشدَّد، وهما قراءتان لابن عبّاس.

قال ابن جني: هو الجُمَل على مثال نُغَر، والجُمْل على مثال قُفْل، والجُمُل على مثال طُنُب، والجَمَل على مثال مَثَل.

قال ابن برّي: وعليه فُسِّر قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، فأما الجُمْل فجمع جَمَل، كأَسْد وأسَد.

والجُمْل: الجماعة من الناس.

وحُكي عن عبدالله وأُبَيّ: حتى يَلِجَ الجُمْل.

أقول: لقد عُدِل عن الجَمَل، وهو الحيوان إلى الجُمَل والجُمَّل وهو الحبل الغليظ والعدول وجه مقبول.

وأما الخِياط فهو المِخْيط، والخِياط بوزن فِعال، من أوزان الآلة والأداة نحو الصِّمام، والقِناع، والعِفاص، والوِكاء، والسِّداد؛ واللِّثام وكثير غير ذلك. ولعل هذا من الأبنية القديمة قبل أن يكون للآلة أبنية قياسية هي: مِفعَل، ومِفعَلة، ومِفْعال نحو مِبْرَد، ومِجْرَفة، ومِكْسار.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ [الآية ٤٤].

قالوا: «أنْ»، في قوله تعالى ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مُفسِّرة كالتي في الآية السابقة.

﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الآية ٤٣].

أقول: أن تكون مُفسِّرة أوجَهُ، ذلك أنها تتصدّر الكلام الذي نُودي به؛ ولعلّهم جعلوها مخفَّفة من الثقيلة، لأن الجملة التي جاءت بعدها قد صُدِّرت بـ «قد»، وعندهم أنّ المخففة إن وقع خبرها جملة فعلية، فلا يخلو: إما أن يكون الفعل متصرِّفاً أو غيرَ متصرف، فإن كان غير متصرف لم يُؤتَ بفاصل؛ وإن كان متصرِّفاً غير دعاء، فُصِل بفاصل في الأكثر، والفاصل هو «قد» أو حرف التنفيس، أو حرف نفي، أو لو.

أقول: فلمّا سبق الفعل في الآية المذكورة «قد»، ذهبوا إلى أنّ «أنْ» مخفّفة من الثقيلة. والذي يَعْضُد أنها مفسِّرة، ما ورد من الآيات التي صدرت بفعل النداء وهو: نادى، ونودوا، كما في الآية الثالثة والأربعين من هذه السورة، وقد أشرنا إلى ذلك، والآية السادسة والأربعين، من هذه السورة أيضاً، وفيها قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ والآية الخمسين من السورة نفسها، وفيها قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الآية ٤٦].

«الأعراف»، أعراف الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنّة والنار، وهي أعاليه، جمع عُرْف، استُعير من عُرْف الفَرَس وعُرْف الديك.

أقول: وهذا من معالم الآخرة التي أثبتتها لغة التنزيل كالصّراط وعلّيين، وغيرهما.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الآية ٤٦].

السيما: هي العلامة التي أعلمهم الله تعالى بها.

وقد جاءت «السِيما» في ست آيات من سور مختلفة بهذا المعنى الذي ذكرناه، ومنها: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح/٢٩].

ولقد أدرج أهل المعجمات «السِيما» في «سوم» وقالوا فيها:

والسُّومَةُ والسِّيمَةَ والسِّيماء والسِّيمياء: العلامة، وسَوَّمَ الفَرَسَ: جَعَلَ عليه السِّمَةَ، أي: العلامة، وقالوا: إنّ «السِّيما» ياؤها واو.

وللكلمة عدّة صيغ، ومنها المدّ «سيماء» وهي لغة.

قلت: أدرج أهل المعجمات هذه الكلمة في «سوم»، وهي ألصق بـ «الوَسْم» وليس شيئاً أن يُحْدث القلب في الأصوات في الكلمات العربية، ألا تَرَى أنهم قالوا: ساوَى وواسَى مثلاً[1].

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ

(١) لقد لمح الغربيون المستعربون أن «سيما» قد تكون من «Sema» اليونانية، وتعني العلامة، ومنها أخذ Sémantique و Séméiologie ويراد بالأولى علم الدلالة، وبالثانية علم دلالة الألفاظ.

﴿سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الآية ٥٧].

قال الزمخشري[1]: سحائب ثِقالاً بالماء جمع سحابة.

والضمير في «سُقناه» يرجع للسحاب على اللفظ، ولو حُمِلَ على المعنى كالثقال لَأُنِّثَ كما لو حُمِل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلاً.

أقول: السّحاب في العربية يراعى فيه اللفظ في الغالب، أي: أنه مفرد كالماء والهواء، وإن كان في الحقيقة شيئاً لا يتبيّن فيه الإفراد من الجمع، وهو شيء كثير كالغمام والماء والهواء، ولكثرته رُوعي المعنى في الآية، فجاء الوصف «ثقالاً»، بصيغة الجمع.

ثم جاء الضمير فعاد على السحاب في لفظه المفرد، فبدا هذا النمط الخاص في الآية من المراعاة.

أقول: هذه من خصائص لغة القرآن التي احتفظت بخصائص العربية القديمة.

١٦ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

«الملأ» في الآية تعني: الأشراف والسادة، وقيل: الرجال ليس معهم نساء. وسُمُّوا بذلك لأنهم مِلاءٌ بما يُحتاج إليه.

أقول: ولنا أن نقول إن الفعل مَلُؤ يملُؤُ مَلاءةً فهو مليء، أي: صار مليئاً، أي: ثقةً.

هذا هو المليء وهو ليس بعيداً من جماعة «المَلأ»، ولكن المعاصرين استعملوه بمعنى «ملآن» و«مملوء».

١٧ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ [الآية ٦١].

أقول إن كلمة «قوم» منادًى مضاف إلى ياء المتكلم، فهو «يا قومي»، غير أن العربية في أدائها السليم، تفرض أن يُجتَزَأ بالكسرة عن المدّ الطويل وهو الياء، وأرى أن ذلك بسبب طول الكلمة، فأداة النداء «يا»، تشتمل على مدّ طويل، يكون هو والمنادى تركيباً طويلاً لا يحتمل الياء الأخيرة، فقُصر المدّ، واكتفي بالكسرة، ومثله: يا ربِّ، ثم استحسن هذا الحذف فبقيت «ربِّ» في لغة الدعاء مع حذف «يا» منها.

---

(١) «الكشاف» ٢/ ١١١.

١٨ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ .

لم يجئ الجمع «عُمْياً» جمع أعمى، ولا عُمياناً، وإنما جاء «عَمين» جمعاً لـ «عَمٍ»، وهو الصفة على «فَعِل»، لتجمع بالياء والنون على شاكلة أواخر الآيات (الفواصل)، مختومةً بالنون. فقد جاءت الفواصل بالنون فهي ترحمون، وتعلمون، وتفلحون وغيرها. وقالوا: وقُرئ عامين، وقالوا: إن «العَمِي» يدلّ على عَمًى ثابت، والعامي على عمًى حادث.

ومن النادر أن يأتي الوصف على «فاعل» من الفعل اللازم على «فعل» مثل «فَرِح» فهو ضَجِرٌ ولا يقال ضاجر، وهو طَرِبٌ ولا يقال طارب، وهو حَزِنٌ ولا يقال حازن، ولكنهم قالوا: عام وعَمٍ على السواء؛ وهذا من لطائف العربية.

١٩ ـ وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

الآلاء: النِّعَم، والمفرد أَلى وإِلَى وإِلْيٌ.

والعجيب أن الكلمة لا نراها إلا جمعاً؛ فأمّا قول الأعشى:

أبيض لا يرهبُ الهُزال ولا
يقطعُ رَحماً، ولا يخونُ إلا

فنادرٌ، لا نجد له شاهداً آخر، وقال فيه ابن سيده: يجوز أن يكون «إلا» هنا واحد آلاء الله، ويجوز ان يكون مخفّفاً من الإلّ الذي هو العهد.

أقول: وقد يشيع في العربية الجمع، ويُنسى المفرد نحو «أرجاء»، وقلّما يوجد «رَجاً» مستعملاً، ومثله «آناء» كآناء الليل، وقلما نجد «إنَى» وهو المفرد.

٢٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الآية ٦٥].

قال الزمخشري: و«أخاهم» عطف على «نوحاً».

أقول: كيف يجوز عطف على معطوف عليه قبله بكلام طويل، أي في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ .

والذي أراه أن «أخاهم» في الآية الخامسة والستين، منصوب بفعل محذوف للعلم به، وهو «أرسلنا»، فكأننا نقرأ: وإلى عادٍ أرسلنا أخاهم هوداً. ونستطيع أن نقول مثل هذا في قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الآية ٧٣] أي: أرسلنا أخاهم صالحاً.

٢١ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قرأ جميع القُراء «تعثَوْا» بفتح الثاء من عَثِيَ يَعْثَى عُثُوّاً، وهو أشدّ الفساد.

وفي الفعل «عَثِي» لغتان: هما عَثا يعثُو عُثُوّاً، وعاث يعيث عَيْثاً، ولم يُقرأ بهما.

أقول: وليس لنا من هذا الفعل في العربية المعاصرة إلاّ عاث يعيث. وحقيقة عَثي يَعثَى، مقلوب عاث يعيث، كما قال كُراع.

ولكنهم قالوا: إن اللغة الجيدة عَثِيَ يعثَى. وقد كنا عرضنا لهذا الفعل في آية سابقة.

٢٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: من الذين غَبَروا في ديارهم، أي: بَقُوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث.

وغَبَرَ الشيء يَغْبُرُ غُبُوراً: مَكَثَ وذَهَبَ وغَبَرَ الشيءُ: بَقِي. والغابر: الباقي، والغابر: الماضي. ومن هنا قالوا: هو من الأضداد.

أقول: ولعلّ هذا كلّه جاء من أنّ الغابر، باقياً أو ماضياً، إنّما يكون سائراً عابراً: أي: متحرّكاً.

ومن هنا كانت العلاقة بين غَبَرَ، وعَبَرَ علاقة أصيلة.

٢٣ ـ وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: ربّنا احكُم بيننا، والفِتاحة الحكومة، أي؛ الحكم بين المتخاصمين، أو أظهر أمرنا حتّى يتفتّح ما بيننا وبين قومنا.

أقول: وهذا من الكلم الشريف الذي اشتملت عليه لغة القرآن، والفتّاح، من صفة الله، هو الحاكم. وهو الفتّاح العليم. والفتّاح من أسماء الله تعالى الحسنى. وفي حديث ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ حتّى سمعت بنت ذي يَزَن تقول لزوجها:

تعالَ أفاتِحْك، أي: أحاكِمْكَ، ومنه: «لا تفاتِحوا أهل القَدَر»، أي: لا تُحاكموهم.

أقول: وليس في عربيّتنا المعاصرة

شيء من هذا، فهل أدركنا ضعف هذه اللغة التي صرنا إليها؟ فكيف يراد لها أن تكون لغة العصر والحضارة الجديدة، بغير الجد والعمل الدائب والرجوع الى الأصول!

٢٤ ـ وقال تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الآية ١٠٥].

قال الزمخشري(١): ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فيه أربع قراءات: المشهورة، وحقيق عليَّ أن لا أقول، وهي قراءة نافع، وحقيق أن لا أقول، وهي قراءة عبدالله، وحقيق بأن لا أقول، وهي قراءة أُبَيّ.

وفي القراءة المشهورة إشكال، ولا تخلو من وجوه: أحدها: أن تكون مما يُقلَب من الكلام لأمنِ الإلباس كقوله:

نزلت بخيلٍ لا هَوادة بينها
وتَشقى الرِّماحُ بالضَّياطرةِ الحُمْرِ

ومعناه: وتشقى الضياطرةُ بالرِّماح.

والثاني: أن ما لزِمَكَ فقد لزِمتَه، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه، كان هو حقيقاً على قول الحق، أي: لازماً له.

والثالث: أن يُضَمَّن «حقيق» معنى حريص كما ضُمِّن «هيَّجني» معنى «ذكّرني» في بيت الكتاب(٢).

والرابع: وهو الأوجه والأدخل في نُكَت القرآن: أن يُغرِقَ موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، ولا سيما وقد رُوي أن عدو الله فرعون قال له لما قال: «إني رسولٌ من ربِّ العالمين»: كَذَبتَ، فيقول: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب علي قول الحق، أن أكون أنا قائله والقائم به، ولا يُرضَى إلاّ بمثلي ناطقاً به.

٢٥ ـ وقال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الآية ١٢٤].

«من خلاف»، أي من كل شِقٍّ طرفاً، وهذا يعني قطع اليد اليمنى مع الرجل اليُسْرى.

فكلمة «الخلاف» مصطلح تاريخي خاص.

---

(١) «الكشاف» ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) البيت هو:

إذا تغنّى الحمامُ الوُرْق هَيَّجني، وإن تغيَّبتُ عنها، أمّ عَمَّارِ

٢٦ - ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الآية ١٣٠].

المراد بـ «السنين» سِنينُ القَحْط. والسنة من الأسماء الغالبة كالدّابّة والنجم، ونحو ذلك؛ وقد اشتقوا منها، فقالوا: أسنَتَ القوم، بمعنى أقحطوا.

أقول:

إن دلالة «السنة» على القحط، وصيرورتَها من الأسماء الغالبة كالدّابة والنّجم، إنما جاءت في الأصل من الوصف أو الإضافة، كأن يقال: سنة شديدة أو سنة قحط، ثم جُرّدت من الوصف أو الإضافة للعلم بها وشيوعها، فصارت «سنة»، وقد يشير الى صحة هذا التعليل ما يقال لدى العامة من أن «السنة سنة»، يريدون بها سنة شديدة تأخذ بخناقهم.

قال، وقد اشتقوا منها: أسنت القوم بمعنى أَقْحَطوا؛ وقد كنا أشرنا إلى هذا.

قلت: ومن ذلك قول ابن الزِّبعْرَى:

عَمرو العُلا هَشَمَ الثريدَ لقومِهِ
ورجالُ مَكّةَ مُسْنِتُون عِجافُ

ولنسرّح الطرف في سعة هذه المفردة الغنية، فماذا فيها؟:

قالوا: أسنَى القومُ إذا أقاموا سنة في موضع.

ويقال: تَسَنَّتَ فلانٌ كريمةَ آل فلانٍ، إذا تزوَّجها في سنة القَحْط.

وجاء في «الصحاح»: يقال تَسَنَّتَها إذا تَزَوَّجَ رَجُلٌ لئيم امرأة كريمةً لقلّة مالها، وكثرة ماله.

والسَّنِتَةُ والمُسْنَتَةُ: الأرض التي لم يُصِبْها مَطَرٌ فلمْ تُنْبِتْ.

قال أبو حنيفة: فإن كانَ بها يبيسٌ من يبيس عامٍ أوّلَ، فليست بمُسنتةٍ ولا تكون مُسنتةً حتى لا يكون بها شيء.

وعامٌ سَنيتٌ ومُسْنِتٌ: جَدْبٌ.

وسانَتوا الأرضَ: تَتَبّعوا نباتَها.

أقول: وإذا كانت العربية قد أفادت من التاء في «السنة» فولدت هذه الفوائد الكثيرة، فقد أفادت من «الهاء»[1]،

(١) أقول: إن الفوائد اللغوية التي عرضنا لها، قد جاءت استفادة من هاء التأنيث لا من «الهاء»، التي زعم اللغويون أنها من أصل «سنة» الذي هو «سَنَهة»؛ فكما استفيد من التاء فجاءت «أسنت» وغيرها من الفوائد، كذلك استفيد من الهاء، علامة التأنيث في توليد فوائد أخرى.

وهي نظيرة التاء، وكلاهما علامة تأنيث فولّدَث فوائد أخرى هي هذه:

قالوا: سَنَهَتِ النخلة وتَسَنَّهَت إذا أتى عليها السّنون.

ولقد ابتعد اللغويون المتقدّمون في النظر الى المواد الثنائية، مثل شفة وسنة وعِضة وغيرها؛ وزعموا أنها ثلاثية حذفت لامها، واللام إما هاء وإما واو على خلاف بينهم، ولذلك قالوا: تَسنَّهتُ فجعلوا اللام هاءً، وقالوا تسنَّيت عنده إذا أقمتُ عنده سنة، وكأن اللام واو لقولهم في التصغير سُنَيَّة، وفي الجمع سَنَوات، والذي ذهب الى الهاء قال: سُنَيهة في التصغير وسَنَهات في الجمع.

وعندي، أنّ الفوائد اللغوية التي جاءت فيها الهاء، قامت على اعتبار هاء التأنيث أصلاً، كما عُدَّت التاءُ أصلاً، وهي للتأنيث.

وكما قالوا تَسنَّهتُ عنده، قالوا تسنَّيتُ إذا أقَمتُ عنده سنةً.

وقالوا: سانَهَه مُسانَهةً وسِناهاً، أي: عامَلَه بالسنة أو استأجَرَه لها.

وسانَهتِ النخلة، وهي سَنهاء: حَمَلَت سنةً ولم تحمِلْ أخرى، قال سُوَيد بن الصامت:

فليست بسَنْهاءٍ ولا رُجَّبِيَّةٍ
ولكنْ عَرايا في السنين الجَوائحِ

والسَّنْهاء: التي أصابتها السنةُ المُجدبة، وقد تكون النخلة التي حَمَلت عاماً ولم تحمِلْ آخَرَ، وقد تكون التي أصابَها الجَدْبُ، وأضرَّ بها فنَفَى ذلك عنها.

وقالوا: طعامٌ سَنِهٌ وسنٍ إذا أتت عليه السُّنون؛ وسَنِهَ الطعامُ والشرابُ سَنَهاً وتَسَنَّهَ: تَغَيَّرَ، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة/ ٢٥٩].

والتَّسَنُّهُ: التَّكَرُّجُ الذي يَقَعُ على الخُبز، والشراب وغيره.

وقُرئت الآية: (لم يَتَسَنَّ) لمن نظر الى أنّ الواو هي لام الكلمة في الأصل.

وكثير من هذا قد كنا أشرنا إليه في آيات سابقة.

٢٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٣١].

يَطَّيَّروا، أي: يتطيَّروا، أي: يَتشاءموا.

و«طائرهم عند الله» أي: سبب خيرهم وشرّهم عند الله.

وأصل الطائر: ما تَيَمَّنْتَ به أو تَشاءمْتَ، وأصله في الجناح.

وقالوا للشيء يُتَطيَّر به من الإنسان وغيره: طائرُ الله لا طائرُك. فرفعوه على إرادة: هذا طائر الله، وفيه معنى الدعاء، وإن شئت نَصبت أيضاً.

وقال ابن الأنباري: معناه فِعْلُ الله لا فِعلُك وما تتخوّفه.

وقال اللّحياني: يقال: طَيْرُ الله لا طيرُك، وطائر اللهِ لا طائرُك، وصباح اللهِ لا صباحُك.

قال: يقولون هذا كلّه إذا تطيّروا من الإنسان، والنصب على معنى: نُحبّ طائرَ الله، وقيل بنصبهما على معنى أسأل اللهَ طائرَ الله لا طائرَك.

والمصدر: الطِّيَرَة.

وجَرَى له الطائر بأمر كذا، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٣١] المعنى ألا إنما الشؤم الذي يلحقهم، هو الذي وعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا.

ومن هنا كان الطائر الحظّ، وطائر الانسان عَمَلُه الذي قُلِّدَه، وقيل: رزقُه؛ وهذا يعني، أن الطائر يكون الحظّ في الخير والشر.

وفي حديث أمّ العلاء الأنصارية: اقتَسَمْنا المهاجرين، فطار لنا عثمان بن مظعون، أي: حصل نصيبنا منهم عثمان.

ومنه حديث رُوَيْفع: إنْ كان أحدنا في زمان رسول الله (ص)، ليَطير له النصل، وللآخر القِدْح. معناه: إن الرَّجُلَيْن كانا يقتسمانِ السَّهْمَ فيقع لأحدهما نَصْلُه، وللآخر قِدْحُه.

وطائر الإنسان: ما حصل له في علم الله مما قُدِّر له؛ ومنه الحديث: «بالميمون طائرُه»، أي: بالمبارك حظُّه.

ويجوز أن يكون أصله من الطير السانح والبارح.

وقوله ـ عز وجل ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الاسراء/١٣].

قيل: حظّه، وقيل: عمله.

أقول: ولقد أمدّ «الطير»، وهو من المخلوقات المعروفة العربية بقدر من الفوائد، ذلك أنّهم قرنوا بعضها بالخير

وبعضها بالشر، فكان السانح منها وكان البارح، والسانح ما أتى عن يمينك من ظبي أو طائر، وهو أمارة يُمْنٍ وخير؛ والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك، وهو أمارة شؤم وشر.

٢٨ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾.

«إذا هم ينكثون» جَواب «لمّا»، يعني فلما كشفناه عنهم فأجاءوا[1] النكث، وبادَروا لم يؤخّروه، ولكن لمّا كُشِفَ عنهم نَكثوا.

أقول: جاءت الجملة الإسمية من المبتدأ والخبر بعد «إذا» الفجائية، وعلى هذا جرى أسلوب لغة التنزيل. ثم جَدَّ في العربية منذ أزمان قولهم: خرجت فإذا به ماشٍ في الطريق، والجديد المولَّد هو خفض الضمير بالباء؛ وهذا هو الأسلوب المتّبع في العربية المعاصرة.

ومثل هذه الآية، قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾.

٢٩ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾.

«إنّ هٰؤلاء»، أي: عبدة الأصنام الذين مَرَّ بهم بنو أسرائيل، ورأوهم يعكفون على أصنام لهم؛ فسألوا موسى (ع) أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء آلهة، فقال كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾، أي: مُدَمَّرٌ مُكَسَّرٌ ما هم فيه، من قولهم: إناء مُتَبَّرٌ إذا كان فُضاضاً، أي: فتاتاً، أو يقال لكُسار الذهب: تِبْر. والمعنى: يُتَبِّرُ الله ويهدم دينَهم الذي هم عليه.

وفي حديث علي (ع) عَجْز حاضر ورأي مُتَبَّر، أي: مُهْلِكٌ، والتَّبارُ الهلاك.

وقال ـ عزّ وجلّ ـ ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ٣٩﴾ [الفرقان].

٣٠ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الآية ١٤٤].

والمعنى اخترتك على أهل زمانك وآثرتُكَ عليهم برسالاتي وبكلامي. والاصطفاء: الاختيار، واصطفاه اختاره، وهو افتعال من الصَّفوة، ومنه النبيُّ المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ أي: اصطفاه ربُّه، أي: اختاره.

---

(١) أجاءوا: جاءوا به.

والصفوة، مثلثة الصاد، خِيار كل شيء.

وقد كان مع الاختيار في الآية الإيثار، وما أرى ذلك إلا من استعمال الخافض «على». وقد جاء الاصطفاء بمعنى الاختيار مع الإيثار، باستعمال الخافض في عدة آيات هي:

قال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات].

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٤٧].

ونجد هذا الفعل بمعنى الاختيار دون الإيثار، وذلك لخلوّ الآيات من حرف الخفض «على» كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران/ ٤٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة/ ١٣٢].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل/ ٥٩].

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر/ ٤].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر/ ٣٢].

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة/ ١٣٠].

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج/ ٧٥].

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص].

٣١ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

والمعنى: ولما اشتدّ نَدَمُهم وحَسرتُهم على عبادة العِجْل، لأنّ من اشتدّ ندمه وحَسرته، يَعَضّ يَدَه غمّاً، فتصير يَدُه مَسقوطاً فيها.

أقول: وسُقِطَ في أيديهم بمعنى وَقَعَ البلاء في أيديهم، أي: وجدوه وجدان من يَدُه فيه، يقال ذلك للنادم عندما يجده مما كان خَفِيَ عليه، ويقال: سُقِطَ في يده وأُسقِطَ، وبغير الألف أفصح.

وقيل، معناه: صار الذي كان يضربه، ملقًى في يده.

أقول: وهذا من جملة أفعال جاءت

على بناء المفعول مثل: حُمّ وغُمّ وهُرِعَ وهُزِل وغيرها، وهي مسندة إلى الفاعل في الحقيقة.

٣٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ [الآية ١٥٠].

«ابنَ أُمَّ»، منادى حذفت منه أداة النداء، وقُرِئَ بالفتح تَشبيهاً بخمسةَ عَشَر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة؛ وابن أمي بالياء، وابنَ إمّ بكسر الهمزة والميم.

أقول: قولهم تشبيهاً بخمسةَ عشرَ، أرادوا بها أن «ابن» و«أم»، قد اتّحدا بالإضافة، فكأنهما رُكّبا تركيباً لازماً؛ وقد جَرَت العربية في المركّبات على تحريكهما بالفتح نحو: بَينَ بينَ، وصباحَ مساءَ، وبيتَ بيتَ، وباباً باباً، وهَرَجَ مَرَجَ، وشَذَرَ مَذَرَ وغير ذلك.

ولا أريد أن أقول كما قال الأقدمون: إنهم اختاروا الفتحة لخفتها، ولكن أقول: كذا درجوا عليه، وكذا وردت لغتهم.

٣٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الآية ١٥٤].

قال أهل اللغة المراد بـ «سَكَتَ الغَضَب» سكن الغضب، وهو قول الزجّاج.

وقال المفسّرون يجوز أن يكون المعنى على القلب، أي: سكت موسى عن الغضب كما تقول: أدخَلتُ القَلَنسُوةَ في رأسي، والمعنى أدخلتُ رأسي في القلنسوة.

أقول: إطلاق السكوت على هدوء الغضب من الاستعارات الجميلة التي حفلت بها لغة التنزيل، فلا حاجة إلى هذا التخريج.

٣٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الآية ١٥٥].

والمعنى: من قومه سبعين رجلاً، فحذف الجار، فأوصل الفعل إلى الاسم، كقوله:

ومِنّا الذي اختير الرجالَ سماحةً
وجُوداً إذا هَبَّ الرِّياحُ الزعازعُ

أي: ومنّا الذي اختاره الناس من بين الرجال، فـ «الرجال» نُصِبَ على نزع الخافض. أقول: إن مسألة نزع الخافض يمكن أن نفسر بها مجيء الأفعال اللازمة التي تأتي متعدية أيضاً، فقولهم: التقاه لا بد أن يكون أصله

التقى به. ثم نزع الخافض فأوصِلَ الفعل الى الضمير. ولعل الكثير من الافعال المتعدية كانت لازمة في الأصل، ثم صير الى هذه الطريقة التماساً للخفة التي آلت إلى الإيجاز.

٣٥ ـ وقال تعالى ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الآية ١٥٦].

والمعنى لقوله تعالى ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تُبنا إليك، وهو قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم.

قال ابن سيدة: عَدّاه بإلى لأنّ فيه معنى «رَجَعنا»، وقيل: معناه تبنا ورَجَعنا وقَرُبْنا من المغفرة، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة/ ٥٤].

أقول: وليس لأهل اللغة أن يعقدوا صلةً بين هذا الفعل وبين الفعل «هادوا» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البقرة/ ٦٢، والمائدة/ ٦٩، والحج/١٧]، ذلك بأن هذا الفعل الأخير يرجع الى «يهود»، وهو اسم قبيلة نسب اليها اليهود.

ولنعد الى مادة «هاد يهود» التي وردت في الآية في كلامنا عليها فنقول: المُتَهَوِّد: المتوصِّل بهَوادة إليه، وهو المُتَقَرِّب.

والتهويد والتَّهواد والتَهَوُّد: الإبطاء في السَّير واللين والترفُّق.

والتهويد: المشي الرُّوَيد كالدَّبيب ونحوه، وهو السَّير الرفيق.

وفي حديث ابن مسعود: «إذا كنتَ في الجَدْب، فأسرع السيرَ ولا تُهَوِّد».

أي: لا تَفْتُرْ، وكذلك التهويد في المنطق، وهو الساكن، يقال: غناء مُهَوِّد، قال الراعي:

وَخُودٌ من اللائي تَسَمَّعْنَ بالضُحىَ
قَريضَ الرُّدافَى بالغِناء المُهَوِّدِ

والتهويد أيضاً النوم.

وتهويد الشراب: إسكارُه. وهَوَّدَه الشرابُ إذا فَتَّرَه فأنامَه، وقال الأخطل:

ودافَعَ عَنّي يومَ جِلَّقَ غَمْرُه
وصَهْباءُ تُنسيني الشرابَ المُهَوِّدا

أقول: إن معنى «هاد» في الآية بمعنى التوبة أو الرجوع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، واستفيد هذا المعنى من التضمين، الذي دَلّ عليه الخافض «إلى»، فقد نقل من «السير» وهو المعنى القديم، إلى «التوبة» وهي

«الرجوع» أيضاً، فاقتضى استعمال «إلى».

ولمّا كان أصل المعنى السير والترفق، فهو قريب من الفتور، فقالوا: «هوّد الشراب». ألا ترى أن في ذلك شيئاً من مقلوب «هدأ» مثلاً؟

ثم من المفيد أن نذكر أن العامة في الحواضر العراقية يقولون: «هَوَّد الألم»، في الكلام على الجراحات والأوجاع.

٣٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الآية ١٦٠].

والمراد بـ «الأسباط» القبائل، ومن أجل ذلك قيل: ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مطابقةً. وحقيقة الأسباط أولاد الولد جمع سِبْط، والسبط مذكر، ولكنه أريد به القبيلة، وهم أسباط اليهود من ولد يعقوب (ع).

٣٧ ـ ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [الآية ١٦١].

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة/ ٥٨].

وقال الزجّاج: معناه قولوا مسألتنا حِطّةٌ، أي: حَطُّ ذنوبنا عنّا، أو أمْرُنا حِطّةٌ، قال: ولو قُرِئت (حِطّةً) بالنصب كان وجهاً في العربية، كأنه قيل لهم: قولوا احْطُطْ عنّا ذنوبَنا حِطّةً، فحرَّفوا هذا القول وقالوا لفظةً غير هذه اللفظة التي أمِرُوا بها، وجملة ما قالوا أنّه أمر عظيم، سمّاهم الله به فاسقين.

وقال الفَرّاء: قولوا ما أُمِرتم به حِطّةٌ، أي: هي حِطّةٌ، فخالفوا إلى كلام بالنَّبْطية، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة/٥٩].

ورَوَى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنهم قالوا «حنطة» حينما بدّلوا.

٣٨ ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الآية ١٦٣].

والمعنى إذ يتجاوزون حَدَّ الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نُهُوا عنه، وأُمِروا بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة.

والسَّبْتُ: مصدر سَبَتَ اليهود، إذا عَظّموا سبْتَهُم بترك الصيد والاشتغال بالتعبُّد.

أقول: السبت من الكَلِم السامي

القديم، الذي أفادت منه العربية، ودخل في عِداد الكلمات المتصرّفة، فكان منه الفعل والمصدر.

٣٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الآية ١٦٧].

قوله تعالى: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ بمعنى عَزَم ربُّك، وهو «تَفَعَّلَ» من الإيذان وهو الإعلام، لأنَّ العازم على الأمر يحدِّث نفسَه به، ويُوذِنُها بفعله، وأُجريَ مُجرى فعل القَسَم، كعَلِمَ الله وشَهِدَ الله، ولذلك أجيب بما يُجاب به القَسَم، وهو قوله تعالى ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، والمعنى: وإذ حَتَم ربُّك، وكَتَبَ على نفسه، ليَبْعَثَنَّ على اليهود إلى يوم القيامة[١].

٤٠ ـ وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ بمعنى قَلَعناه ورَفَعناه، كقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة/٦٣].

ومنه نَتَقَ السِّقاءَ، إذا نَفَضَه ليقتلعَ الزُّبْدةَ منه[٢].

أقول: وهذا من الكلم العربي القديم الذي حفظته لغة القرآن.

قالوا: نَتَقْتُ الغَرْبَ من البئر، أي: جذبتُه بمرَّة.

وفي الحديث في صفة مكّة والكعبة: أَقَلُّ نَتائِق الدنيا مَدَراً. والنَّتائق جمع نَتيقة، فعيلة بمعنى مفعولة من النَّتْق، وهو أن يَقلَع الشيء فيرفعه من مكانه ليرميَ به. هذا هو الأصل، وأراد بها هٰهنا البلاد لرفع بنائها وشهرتها في موضعها.

٤١ ـ وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حَمْلٌ على اللفظ، وقوله سبحانه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، حَمْل على المعنى.

أقول: يُريد أن لفظ «من» مفردٌ في وضعه، جمعٌ في معناه.

(١) الكشاف ٢/ ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٧٥.

والحقيقة أن لفظ «من» يكون مفرداً وجمعاً في المعنى. وكأن الآية حين حمل الجزء الأخير منها على المعنى، فجاء قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، كان ذلك مراعاة للسياق الذي درجت عليه السورة، فالفواصل كلها بالنون، ومن أجل ذلك حُمِلَ على المعنى.

٤٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الآية ١٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾، أي واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمّونه بغير الأسماء الحسنى.

أقول: اشتهر الإلحاد بأنه الكفر بالله، والإشراك به والشك فيه، وهذا مجاز، حقيقته الميل والعدول عن الشيء، وقد جاء في الآية على الحقيقة.

ويَعْرِض للألفاظ ان يشتهر فيها المجاز، وتُتْرك الحقيقة؛ هذا كثير، نتبيّنه في جمهرة كبيرة من الكلم.

٤٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾، أي سنَسْتَدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يُهلِكُهم، ونُضاعِفُ عِقابَهم.

أقول: و«الاستدراج» من الكلم المعروف في اللغة المعاصرة، ويراد به استدناء المرء بضرب من الحيلة والمخادعة، لأخذه بشيء، والإفادة منه.

٤٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ [الآية ١٨٧].

السؤال عن الساعة وعن موعدها، وقوله تعالى ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ معناه: كأنك عالم بها.

وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحكم علمُه فيه ورَصُن؛ وهذا التركيب، معناه المبالغة. ومنه إحفاء الشارب، واحتفاء البقل: استئصاله.

وأحفى في المسألة إذا ألحفَ. وحَفِي بفلان وتَحَفّى به: بالَغَ في البِرّ به[1] وجاء في «الانتصاف»[2]: وفي

---

(١) «الكشاف» ٢/ ١٨٤.

(٢) «الانتصاف» لأحمد المنير الإسكندري، حاشية على «الكشاف»٢/ ١٨٤.

هذا النوع من التكرير نكتةٌ لا تُلْفَى إلاّ في الكتاب العزيز... وذاك أن المعهود في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بُني على مقصد، واعترض في أثنائه عارض، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول، وقد بَعُدَ عهده، طُرِّيَ بذكر المقصد الأول لتتصل نهايتُه ببدايته، وقد تقدَّم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وهذا منها، فإنه لما ابتَدَأ الكلام بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، ثم، اعترض ذكر الجواب المُضَمّن في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، إلى قوله ﴿بَغْتَةً﴾، أريد تتميم سؤالها عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمَّن في قوله جلّ وعلا: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بَعُدَ عهدُه فطُرِّيَ ذكره تطرية عامة؛ ولا نراه أبداً يُطَرّى إلا بنوع من الإجمال، كالتذكرة للأوّل مُستَغنًى عن تفصيله بما تَقَدَّم، فمن ثَمَّ قيل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، ولم يذكر المسؤول عنه وهو الساعة، اكتفاء بما تقدم، فلما كُرِّرَ السؤال لهذه الفائدة، كُرِّرَ الجواب أيضاً مُجمَلاً، فقيل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أقول: واستعمال «حفيّ» في العربية المعاصرة يكون بتطلّبه الباء حرف جر بعده، فيقال: هو حفيٌ بما فاز به.

٤٥ ـ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ بكسر النون، اجتُزئ بالكسرة عن الياء.

لم يكن ذلك مِنْ خطِّ المصحف الذي جَرَى على نمطٍ خاص، وإنما كان ذٰلك لسبب صوتي، هو أنّ أواخر الآيات قد ختمت بالنون في الأسماء والأفعال نحو الشاكرين وصامتين والصالحين ويؤمنون ويشركون وغيرها؛ وإنما حُرِّكت النون في هذه الآية بالكسرة، كي يُستغنى عنها عند الوقف على آخر الآية، فتكون كسائر الفواصل الأخرى؛ ولا يتأتى ذٰلك، لو أثبتت الياء. وإذا كان هذا هو السبب في حذف الياء والاستغناء عنها بالكسرة، فما السبب في حذف الياء في الذي يسبق قوله تعالى: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾، وهو قوله سبحانه: ﴿كِيدُونِ﴾؟ الجواب عن هذا: أن الياء حذفت استحساناً لتأتي الكلمة مشاكلة للكلمة الأخرى التي خُتمت بها الآية قوله: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

والمشاكلة في الأصوات كثيرة في لغة التنزيل، وهي تؤدي غرضاً صوتياً

يرمي الى حسن الأداء والتلاوة.

٤٦ ـ وقال تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ قال الزمخشري[١]:

«العفو» ضد الجهد، أي: خُذ ما عَفَا لك من أفعال الناس، وأخلاقهم، وما أتِيَ منهم، وتَسَهَّلْ من غير كُلفة، ولا تداقُّهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشُقُ عليهم حتى لا ينفِروا كقوله (ص): يَسِّروا ولا تُعَسِّروا.

قال الشاعر:

خذي العَفْوَ مِنّي تَستديمي مَوَدَّتي
ولا تَنْطِقي في سَوْرَتي حين أغضَبُ

وقيل: خذ الفضل وما تَسَهَّلَ من صدقاتهم.

أقول: والعَفو بهذه الخصوصية المعنوية أصل المعنى، وقولنا: عفو الخاطر، ما جاء سهلاً على البديهة من غير قصد ولا رويّة.

٤٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الآية ٢٠٠].

والمعنى وإما يَنْخَسَنَّك منه نَخْسٌ، بأنْ يحمِلَكَ بوَسْوَسِته على خلاف ما أُمِرتَ به، فاستعذْ بالله.

أقول: النَزْغ والنَخْس والنَّسغ واحد، وكذلك النَدْغ. ونَزَغَهُ: طَعَنَهُ بيدٍ أو رمح. ونَسَغَتِ الواشمة بالإبرة.

والنَغْز في الألسن الدارجة كالنسغ بالإبرة، وهو منه على القلب والإبدال.

٤٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الآية ٢٠٣].

واجتَبى الشيء بمعنى جَباهُ لنفسه، أي: جَمَعَه، أو جُبِيَ إليه فاجتباه، أي: أخذه.

ومعنى قوله تعالى ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾: هلا اجتَمَعْتها، افتعالاً من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ/٤٣] أو هلاّ أخذتَها مُنَزَّلةً عليك مُقتَرحة؟[٢].

وقال ثعلب: معناه: جئتَ بها من نفسك.

وقال الفرّاء: هلّا اجتَبَيْتَها، بمعنى هلا اختلَقْتَها وافتَعَلْتَها من قِبَل نفسك.

---

(١) «الكشاف»، ٢/١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ٢/١٩٢.

وقال الزّجّاج في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف/٦]. معناه وكذلك يختارُك ويَصطفيكَ.

وهذا المعنى يرد في ثماني آيات.

أقول: لم يبق شيء من هذا الفعل المفيد في العربية المعاصرة، وكان خليقاً بالكُتّاب أن يعودوا إليه.

٤٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الآية ٢٠٤].

تُوجب الآية الاستماع والإنصات، عند قراءة القرآن في الصلاة وغير الصلاة.

وقيل: كانوا يتكلّمون في الصلاة، فنَزَلَتْ.

أقول: ألا ترى أن المجرَّد من أنصت وهو «نَصَتَ» غير وارد في الاستعمال؛ وهو والفعل «صمت» شيء واحد، ثم جاء القلب المكاني ليحدث خصوصية معنوية في أنصت.

المعاني اللغوية في سورة «الأعراف»(*)

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الآية ٢] على الابتداء(١).

وقال: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الآية ٢] على النهي كما قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف/٢٨] أي: «الحَرَجُ فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ»، و: «عَيْنَاكَ فلا تَعْدُوَا عَنْهُم».

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الآية ٦] أي «لَنَسْأَلَنَّ القوم الذين بُعِثَ إِلَيْهِم وأُنذروا». ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ [الآية ٧] بالنون واللام، لأنّ قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ على القسم.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الآية ١٠] فالياء غير مهموزة وقد هَمَزَ بعضُ القراء(٢) وهو رديء لأنها ليست بزائدة.

وانما يُهمز ما كان على مثال «مفاعِل» اذا جاءت الياء زائدة في الواحد والألف والواو التي تكون الهمزة مكانها نحو «مَدائن» لأنها «فعايِل». ومن جعل «المدائن» من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب « معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقل رأي الأخفش في زاد المسير ٣/ ١٣٥.

(٢) في الطبري ٢/ ٣١٦ و٣١٧ الى عبد الرحمن، وفي السبعة الى نافع، وغلطها نقلا عن أبي بكر، وفي الشواذ ٤٢ الى خارجة عن نافع والأعرج، وفي الجامع ٧/ ١٦٧ الى الأعرج ونافع، وفي البحر٤/ ٢٧١ الى الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة، عن نافع وابن عامر في رواية.

«دان» «يدين» لم يهمز لأن الياء حينئذ من الأصل. وأمّا «قَطائِع» و«رسائل» و«عجائز» و«كبائر» فإنّ هذا كلّه مهموز، لأنّ واو «عَجُوز» زائدة، ألا ترى أنك تقول: «عجز»؛ وألِفُ «رسالة» زائدة اذ تقول «أرسلت» فتذهب الألف منها. وتقول في «كبيرة» «كبرت» فتذهب الياء منها. وأما «مصايب» فكان أصلها «مصاوب» لأن الياء إذا كانت أصلها الواو، فجاءت في موضع لا بد من أن تحرك فيه، قلبت الواو في ذلك الموضع إذا كان الأصل من الواو، فلمّا قلبت صارت كأنها قد أفسدت حتى صارت كأنها الياء الزائدة، فلذلك همزت، ولم يكن القياس أن تهمز. وناس من العرب يقولون «المصاوب» وهي قياس[1].

وقال تعالى: ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الآية ١١]. «ثُمَّ» في معنى الواو[2] ويجوز أن يكون معناه (لآدَم) كما تقول للقوم:

«قَدْ ضَرَبْنَاكُم» وإنّما ضربت سيدهم.

وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الآية ١٢] ومعناه: ما منعك أنْ تسجد، و(لا) هٰهنا زائدة. وقال الشاعر[3] [من الطويل وهو الشاهد الرابع بعد المئتين]:

أبى جُودُهُ «لا» البُخْلَ واستعجلتْ بِهِ
«نَعَمْ» مِنْ فَتىً لا يَمْنَع الجوعَ[4] قاتِلَهْ[5]

وفسرته العرب: أبى جودُه البخلَ «وجعلوا (لا) زائدة حشواً هٰهُنا وصلوا بها الكلام. وزعم يونس أنّ أبا عمرو، كان يجرّ«البخل» ولا يجعل «لا» مضافة إليه أراد: أبى جوده (لا) التي هي للبخل لأن (لا) قد تكون للجود والبخل. لأنه لو قال له: «اِمْنَع الحقَّ»

---

(١) وقد نقلت من هذه الآراء جذاذات في التهذيب ١٢/ ٢٥٣ «صاب» وإعراب القرآن ١/ ٣٥١ و٣٥٢ والجامع ٧/ ١٦٧ و١٦٨.

(٢) نقله في الجامع ٧/ ١٦٨.

(٣) لم تفد المصادر والمراجع شيئاً في الشاعر.

(٤) في ما عدا الصحاح واللسان «لا» وردت بـ «الجود».

(٥) البيت في الخصائص ٢/ ٣٥ و٢٨٣، ومغني اللبيب ١/ ٢٤٩ و٢١٧، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٢٨، واللسان «لا»، وفيه نقلت عبارات الأخفش من غير نسبة، وكذلك في الصحاح «لا».

او «لا تُعْطِ المساكينَ» فقال «لا» كان هذا جوداً منه.

وقال تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ أي: على صراطك. كما تقول: «تَوَجَّهَ مَكَّةَ» أي: إلى مكة. وقال الشاعر (من الطويل وهو الشاهد الخامس بعد المئتين):

كَأَنّـيَ إذْ أَسْعـى لأَظْـفَـرَ طـائـراً
مَعَ النَّجْمِ في جَوِّ السَّماءِ يَصُوبُ

يريد: لأَظْفَرَ بطائرٍ. فألقى الباء ونحوه ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الآية ١٥٠] يريد: عن أمر ربكم.

وقال تعالى ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الآية ١٨] لأنه من «الذَّأْم» تقول «ذَأَمْتُه» فـ «هُوَ مَذْؤُومٌ» والوجه الآخر من «الذَّمّ»: «ذَمَمْتُه» فـ «هو مَذْمُومٌ» تقول: «ذَأَمْتُهُ» و«ذَمَمْتُه» و«ذِمْتُه» كلّه في معنى واحد ومصدر: «ذِمْتُهُ» «الذَّيم».

وقال تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الآية ١٨] فاللام الاولى للابتداء والثانية للقسم.

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الآية ٢٠] والمعنى: فوسوس إليهما الشيطان[1]. ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلّها الفعل، ومنهم من يقول: «غَرِضْتُ» في معنى: اشتقت اليه. وتفسيرها: غَرِضْتُ مِنْ هٰؤلاءِ إلَيْهِ.

وقال تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الآية ٢٠] كأنه يقول: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ﴾ كراهة ﴿أَن تَكُونَا﴾[2] كما تقول: «إيّاكَ أنْ تَفْعَلَ» أي: كَراهَةَ أنْ تَفْعَلَ.

وقال تعالى: ﴿وَطَفِقَا﴾ [الآية ٢٢] وقرأ بعضهم (وَطَفَقَا)[3] فمن قال «طَفَقَ» قال: «يَطْفِقُ»[4] ومن قال «طَفِقَ» قال «يَطْفَقُ».

وقرأ قوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ [الآية ٢٢] قرأه (يَخِصِّفانِ) جعلها من «يَخْتَصِفانِ» فأدغم التاء في الصاد

(١) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٥٣.

(٢) نقله في زاد المسير ٣/ ١٧٩، وأشرك معه الزجاج.

(٣) في الشواذ ٤٢، والبحر ٤/ ٢٨٠ نسبت القراءة بالفعل من باب «ضرب» الى ابي السمال، وكذلك في الكشاف ٢/ ٩٦.

(٤) نقله في الجامع ٧/ ١٨٠، وإعراب القرآن ١/ ٣٥٤، والصحاح «طفق».

فسكنت، وبقيت الخاء ساكنة، فحرّكت الخاء بالكسر، لاجتماع الساكنين[1]. ومنهم من يفتح الخاء ويحوّل عليها حركة التاء[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكأنه على القسم، والله أعلم، كأنه قال: «وَاللهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا».

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الآية ٢٦] برفع قوله سبحانه ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على الابتداء، وجعل خبره في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[3] وقد نصب بعضهم (وَلِباسَ التقوى)[4].

وقال تعالى ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الآية ٣٠] بتذكير الفعل بسبب الفصل كما في قوله تعالى ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد/١٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ٣٥] كأنّ المعنى (فأَطِيعُوهُم).

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الآية ٤٠] من «وَلَجَ» «يَلِجُ» «وُلُوجاً».

وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الآية ٤١] بكسر (غَواشٍ) لأن هذه الشين في موضع عين «فواعِل» فهي مكسورة. وأما موضع اللام منه فالياء، والياء والواو اذا كانتا بعد كسرة وهما في موضع تحرك برفع أو جرّ، صارتا ياء ساكنة في الرفع، وجُرتّا ونُصبتا في النصب. فلمّا صارتا ياء ساكنة وأدخلت

---

(١) في المحتسب ٢٤٥، والجامع ٧/ ١٨٠، والكشاف ٢/ ٩٦ أنها قراءة الحسن، وزاد في البحر ٤/ ٢٨٠ الأعرج ومجاهداً وابن وثاب.

(٢) في الشواذ ٤٢ الى الزهري، وفي المحتسب ٢٤٥ بلا نسبة. وفي الجامع ٧/ ١٨١ الى ابن بريدة ويعقوب، وفي البحر ٤/ ٢٨٠ الى الحسن في رواية محبوب وابن بريدة ويعقوب. وقد نقل هذا عنه في الصحاح «خصف».

(٣) في السبعة ٢٨٠ الى ابن كثير وعاصم وأبي عمرو وحمزة، وزاد في الوقف ٢/ ٦٥٢ مجاهداً والأعمش، وفي الكشف ١/ ٤٦٠ والتيسير ١٠٩/ إلى غير من أخذ بالأخرى.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٣٧٥ الى الكوفيين، وفي الجامع ١/ ٣٧٥ إلى أهل المدينة والكسائي، وفي السبعة ٢٨٠ والكشف ١/ ٤٦٠ والتيسير ١٠٩ الى نافع وابن عامر والكسائي، وفي الوقف ٢/ ٦٥٣ أهمل ابن عامر، وزاد أبا جعفر وشيبة.

عليها التنوين وهو ساكن ذهبت الياء لاجتماع الساكنين.

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الآية ٤٣] وهو ما يكون في الصدور. وأما الذي يُغَلُّ به الموثق فهو «الغُلُّ».

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الآية ٤٣] كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس/٣٥] وتقول العرب: «هوَ لا يَهتَدي لهذا» أي: لا يعرفه. وتقول: «هَدَيْتُ العروسَ إلى بَعْلِها». وتقول أيضاً: أهْدَيْتُها إلَيه» و«هُدِيَتْ لَهُ» وتقول: «أهْدَيْتُ لَهُ هَدِيَّةً». وبنو تميم يقولون «هَدَيْت العروسَ إلى زَوْجِها» جعلوه في معنى «دَلَلْتُها» وقيس تقول: «أهْدَيْتُها» جعلوها بمنزلة الهدية.

وقال تعالى ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴿٤٣﴾﴾ و﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الآية ٤٤] وقال أيضاً في موضع آخر: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [يونس/١٠] و﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الآية ٤٤] فهذه «أنْ» الثقيلة خُفِّفَتْ وأُضْمِرَ فيها، ولا يستقيم أن تجعلها الخفيفة لأنّ بعدها اسماً. والخفيفة لا يليها الأسماء. وقال الشاعر[1] [من البسيط وهو الشاهد السادس بعد المئتين]:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفى وَيَنْتَعِلُ[2]

وقال الشاعر[3] [من الوافر وهو الشاهد السابع بعد المئتين]:

أُكاشِرُهُ وَأعْلَمُ أنْ كِلانا
عَلى ما سَاءَ صاحِبَهُ حَرِيصُ.

وتكون ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ في معنى «أي».

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الآية ٥٠] تكون «أيْ أفيضوا»

---

(١) هو الأعشى ميمون بن قيس، الصبح المنير والإنصاف ١/١١٣، وفي الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/٢٨٢ و٤٤٠ و٤٨٠ و٢/١٢٣، والخزانة ٣/٥٤٧.

(٢) عجزه في الصبح المنير «أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل» وفي تحصيل عين الذهب ٢/١٢٣ بـ «من فتية». والبيت بعد في الخصائص ٢/٤٤١، والمنصف ٣/١٢٩، والخزانة ٤/٣٥٦، والمقاصد النحوية ٢/٢٨٧، والدرر ١/١١٩.

(٣) هو عَدِيّ بن زيد معجم شواهد العربية ٢٠٣، وليس في ديوانه، وذلك ما أشار اليه مؤلف المعجم، ولكنه ليس كما ذكر موجوداً في الخصائص ١/١٢٦ و٢٦١، وهو في شرح المفصل ١/٥٤ وفيه «شاء» بالمعجمة المثلثة. وفي الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/٤٤٠ والإنصاف ١/١١٣ و٢٣٦ وأمالي ابن الشجري ١/١٨٨.

وتكون على «أنْ» التي تعمل في الأفعال لأنك تقول: «غاظني أنْ قامَ» و«غاظني أنْ ذهَبَ» فتقع على الأفعال، وإن كانت لا تعمل فيها؛ وفي كتاب الله ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص/٦] معناها: أي امْشُوا.

وقال تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الآية ٥٣] بنصب ما بعد الفاء، لأنه جواب استفهام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الآية ٥٤] عطف على قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الآية ٥٤][1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ بتذكير (قريب) وهي صفة «الرحمة» وذلك كقول العرب «رِيحٌ خَرِيقٌ» و«مِلْحَفَةٌ جديدٌ» و«شاةٌ سَدِيسٌ». وإن شئت قلت: تفسير «الرحمة» هٰهنا: المطر، ونحوه[2]. فلذلك ذُكّر. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية ٨٧] بالتذكير على إرادة «الناس». وإن شئت جعلته كبعض ما يذكرون من المؤنث[3] كقول الشاعر[4] [من المتقارب وهو الشاهد الحادي والثلاثون]:

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها
وَلا أرْضَ أبْقَلَ إبْقالَها

وقال تعالى في أول هذه السورة: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الآية ٢] ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الآية ٢] ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الآية ٢] هكذا تأويلها على التقديم والتأخير. وفي كتاب الله مثل ذلك كثير، قال تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل] والمعنى ـ والله أعلم ـ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وفي كتاب الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ

(١) نقله في اعراب القرآن ١/٣٦٣، والجامع ٧/ ٢٢١.

(٢) نقله في التهذيب ٩/ ١٢٥ «قرب»، والمشكل ١/ ٢٩٤، والبحر ٤/ ٣١٣، وزاد المسير ٣/ ٢١٦، والتصريح ٢/ ٣٢، واعراب القرآن ١/ ٣٦٥، والجامع ٧/ ٢٢٨.

(٣) نقله مع الشاهد في اعراب القرآن ١/ ٣٦٤، والجامع ٧/ ٢٢٨.

(٤) هو عامر بن جوين الطائي، او الخنساء، الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٢٤٠، ومجاز القرآن ٢/ ٦٧، والصحاح واللسان «بقل»، والبيت بعد في معاني القرآن ١/ ١٣٧.

﴿ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ [النحل] والمعنى - والله أعلم - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وفي غافر ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر/٨٣].

والمعنى - والله أعلم - ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم﴾. وقال بعضهم ﴿فَرِحُواْ بِمَا﴾ هو ﴿عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: كان عندهم العلم وهو جهل؛ ومثل هذا في كلام العرب وفي الشعر كثير من التقديم والتأخير. يكتب الرجل: «أمّا بَعْدُ، حَفِظَكَ الله وَعافاكَ، فإنّي كَتَبْتُ إلَيْكَ» فقوله « فَإنّي» محمول على «أمّا بَعْدُ» وانما هو «أمّا بَعْدُ فإنّي» وبينهما كما ترى كلام. قال الشاعر [من الكامل وهو الشاهد الثامن بعد المئتين]:

خيرٌ مِنَ القومِ العُصاةِ أميرَهُم
يا قومُ فاسْتَحْيُوا النِساءُ الجُلَّسُ

والمعنى: خيرٌ مِنَ القَوْمِ العصاةِ أميرَهُم النِّساءُ الجُلَّسُ يا قومُ فاسْتَحْيُوا. قال الآخر[1] [من البسيط وهو الشاهد التاسع بعد المئتين]:

الشَّمْسُ طالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكاسِفَةٍ
تَبْكِي عليكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والقَمَرا[2]

ومعناه: الشمسُ طالعةٌ لَمْ تكسِفْ نُجُومَ الليلِ والقمرَ لِحُزْنِها على «عُمَر»[3] وذلك أنّ الشمس كلما طلعت كسفت القمر والنجوم فلم تترك لها ضوءاً.

وقوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة/٢٥٨] ثم قال ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ [البقرة/٢٥٩] فـ «الكاف» تزاد في الكلام. والمعنى: «ألم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه أوالّذي مَرّ على قَرْيَةٍ». ومثلها في القرآن. ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى/١١] والمعنى ليس

---

(١) هو جرير بن عطية بن الخطفي. ديوانه ٢/٧٣٦، والكامل ٢/٦٥٢.

(٢) في الديوان «فالشمس كاسفة ليست بطالعة»، وكذلك شرح الأبيات للفارقي ١١٨، وفي الكامل بـ «فالشمس» والشاهد بعد في الصحاح «بكى».

(٣) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الخليفة الأموي، ترجمته وأخباره في مروج الذهب ٣/١٩٢ - ٢٠٥، والأغاني ٨/١٥١.

مثله شيء. لأنه ليس لله مثل[1]. وقال الشاعر[2] [من الرجز وهو الشاهد العاشر بعد المئتين]:

فَصُيِّرُوا مثلَ كَعَصْفٍ مَأكُولْ[3]

والمعنى: فَصُيِّرُوا مثلَ عَصْفٍ، والكاف زائدة. وقال الآخر[4] (من الرجز وهو الشاهد الحادي عشر بعد المئتين):

وَصَالِياتٍ كَكَما يُؤَثْفَيْن

فإحدى الكافين زائدة

وقوله تعالى ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا﴾ [النساء/٥٦] يعني غيرها في النضج، لأنَّ الله عز وجل يجدّدها فيكون أشدّ للعذاب عليهم. وهي تلك الجلود بعينها التي عصت الله تعالى، ولكن أذهب عنها النضج، كما يقول الرجل للرجل: «أنتَ اليومَ غيرُكَ أمسِ» وهو ذلك بعينه إلا أنه نقص منه شيء أو زاد فيه. وفي كتاب الله عز وجل ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام] فيسأل السائل فيقول كيف كانوا كاذبين ولم يعودوا بعد. وإنما يكونون كاذبين إذا عادوا. وقد قلتم إنه لا يقال له كافر، قبل أن يكفر، إذا علم أنه كافر. وهذا يجوز أن يكون أنَّهم الكاذبون بعد اليوم كما يقول: «أنَا قائِمٌ» وهو قاعد، يريد «إني سأقوم». أو يقول تعالى ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني ما وافوا به القيامة من كذبهم وكفرهم، لأنَّ الذين دخلوا النار كانوا كاذبين كافرين.

وقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] يقول «تنظر في رزقها وما يأتيها من الله». يقول الرجل: «ما أَنْظُرُ إلاّ إليك» ولو كان نظر البصر، كما يقول بعض الناس، كان في الآية التي بعدها بيان ذلك. ألا ترى أنه قال ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة] ولم يقل: «وَوُجُوهٌ لا تَنْظُر ولا تَرى» وقوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴿٢٥﴾﴾ يدلّ

(١) سبق للأخفش أن ذكر هذه الآراء، في كلامه على الآيتين ٢٥٨ و٢٥٩ في سورة البقرة، بعبارة لا تكاد تختلف.

(٢) هو رؤبة بن العجّاج. ديوانه ١٨١، والخزانة ٤/ ٢٧٠، وقيل هو حميد الأرقط الكتاب ١/ ٢٠٣.

(٣) في الخزانة «فأصبحوا». والبيت بعد في شرح الأبيات للفارقي ١٨٠.

(٤) هو خطام المجاشعي، الكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ١٣، والكتاب ١/ ٢٠٣ و٢/ ٣٣١، والخزانة ١/ ٣٦٧، والشاهد أيضاً في الخزانة ٢/ ٣٥٤ و٤/ ٢٧٣.

«الظن» هٰهنا على النظر ثم الثقة بالله وحسن اليقين، ولا يدل على ما قالوا. وكيف يكون ذلك والله سبحانه يقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الانعام/١٠٣] وقوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الانسان/٣٠] يعني ما تشاؤون من الخير شيئاً إلاّ أن يشاء الله أنْ تَشاؤوه.

وقوله تعالى ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور/٤٠] حمل على المعنى، وذلك أنه لا يراها؛ وذلك أنّك إذا قلت: «كادَ يفعل إنما تعني قارب الفعل ولم يفعل» فإذا قلت «لم يكد يفعل» كان المعنى أنه لم يقارب الفعل ولم يفعل على صحة الكلام. وهكذا معنى هذه الآية. إلاّ أنّ اللُّغَةَ قد أجازتْ «لَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ» في معنى: فعل بعد شدة، وليس هذا صحة الكلام أنه اذا قال: «كاد يفعل» فإنما يعني قارب الفعل. واذا قال: «لم يكد يفعل» يقول: «لم يقارب الفعل» إلا أنّ اللغة جاءت على ما فسرت لك، وليس هو على صحة الكلمة.

وقال تعالى ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية ٦٩] كأنه قال: «صنعوا كذا كذا وعجبوا» فقال «صنعتم كذا وكذا أوَعَجِبْتُمْ» فهذه واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

وقال تعالى ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الآية ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الآية ٧٣] فكلّ هذا ـ والله أعلم ـ نصبه على الكلام الأول على قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الآية ٥٩] وكذلك ﴿وَلُوطًا﴾ [الآية ٨٠]، وقال بعضهم: «واذْكُرْ لُوطاً». وإنما يجيء هذا النصب على هذين الوجهين، أو يجيء على أن يكون الفعل قد عمل فيما قبله، وقد سقط بعده فعل على شيء من سببه، فيضمر له فعلاً. فإنّما يكون على أحد هذه الثلاثة، وهو في القرآن كثير.

وقال تعالى ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام/١٦٥] وقال ﴿خُلَفَآءَ﴾ [الآية ٦٩] و[الآية ٧٤] وكلٌ جائز، وهو جماعة «الخليفة».

وقال تعالى ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الآية ٦٩] أي: انْبِساطاً.

وقال في موضع آخر ﴿بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة/٢٤٧] وهو مثل الأول.

وتقرأ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٧٣] بالجزم اذا جعلتَهُ جواباً،

وبالرفع اذا أردت (فَذَرُوها آكِلَةٌ). وقال تعالى ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الآية ١٤٥] وقال ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ [الجاثية/ ١٤] و﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ [الزخرف/ ٨٣] فصار جواباً في اللفظ، وليس كذلك في المعنى.

وقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الآية ٨٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الآية ٨٦] تقول: «هُمْ فِي البَصْرَةِ» و«بِالبَصْرَةِ» و«قَعَدْتُ لَهُ في الطَّرِيقِ» و«بِالطَّرِيقِ».

وقال تعالى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الآية ٩٢] وهي من «غَنِيتَ» «تَغْنَى»[(١)] «غِنًى».

وقال تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ [الآية ٩٨] فهذه الواو للعطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الآية ١٠٠] أي: (أَوَ لم يَتَبَيَّنْ لَهُم) وقرأ بعضهم (نَهْدِ)[(٢)] بالنون أي: «أو لم نُبَيِّنْ لهم» ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ [الآية ١٠١] «مِنْ» زائدة وأراد «قَصَصْنا» كما تقول «هل لك في ذا» وتحذف «حاجة».

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الآية ١٠١] فقوله سبحانه ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ والله أعلم يعني: «بِتَكْذِيبِهِم» باعتبار (ما كَذَّبُوا) اسماً للفعل والمعنى: «لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا بالتكذيب» أي لا نسمّيهم بالإيمان بالتكذيب[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ [الآية ١٢٦][(٤)] وقرأ بعضهم (وَمَا تَنْقَمُ مِنّا)[(٥)]

(١) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٦٩.

(٢) في الشواذ ٤٥ إلى ابن عباس والسلمي، وفي المشكل ١/ ٢٩٧ الى مجاهد، وفي البحر ٤/ ٣٥٠، والكشاف ٢/ ١٣٤، والبيان ١/ ٣٦٩، والإملاء ١/ ٢٨٠، بلا نسبة.

(٣) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٧١.

(٤) هي قراءة الجمهور، كما في البحر ٤/ ٣٦٦.

(٥) في الشواذ ٤٥، الى يحيى وإبراهيم وأبي حيوة، وفي البحر ٤/ ٣٦٦، إلى أبي حيوة وأبي اليسر هاشم وابن أبي عبلة، وفي الجامع ٧/ ٢٦١، الى الحسن، وكذلك في إعراب القرآن ١/ ٣٧٤.

وهما لغتان[1] (نَقِمَ)، «نقَمَ»، «يَنْقِمَ» و«يَنْقَمُ» وبالأولى نقرأ.

وقال تعالى ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [الآية ١٣٢] لأن (مَهما) من حروف المجازاة وجوابها (فَمَا نَحْنُ).

وقال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[2] «ويَعْرُشُون»[3] لغتان؛ وكذلك (نبطِشُ) و (نبطُشُ)[4]، و«يَحْشِرُ» و «يَحْشُرُ»، و«يكُفُ» و«يكِفُ»، و «ينفُرُ» و «ينفِرُ».

وقال تعالى: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ [الآية ١٣٣] وواحدتها في القياس «الطُّوفانَة»[5]. وقال الشاعر[6] [من الرمل وهو الشاهد الثاني عشر بعد المئتين]:

غَيَّرَ الجِدَّةَ مِنْ آياتِها[7] ... خُرُقُ الرِّيحِ وَطُوفانُ المَطَر

وهي من «طافَ» «يَطُوفُ».

وقال تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الآية ١٤٣] وهو سبحانه حين قال «جَعَلَه» كان كأنه قال «دَكَّهُ» وقرأ بعضهم (دَكّاء) وإذا أراد هذا فقد أجرِيَ مُجرى ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف/٨٢] لأنه يقال: «ناقَةٌ دَكّاءُ» إذا ذهب سَنامها.

وقال تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الآية ١٤٣] على معنى «تَجَلى أَمْرُهُ» نحو ما يقول الناس: «بَرَزَ فُلانٌ لِفُلانٍ» وإنّما برز جُنْدُه.

---

(١) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٧٤، والجامع ٧/ ٢٦١.

(٢) في الطبري ٩/ ٤٤، أنها قراءة عامة قراء الحجاز والعراق، إلا عاصماً، وهي إحدى لغتين مشهورتين عند العرب، وفي السبعة ٢٩٢، إلى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وحمزة والكِسائي، وإلى عاصم في رواية. وفي البحر ٤/ ٣٧٧، إلى الحسن ومجاهد وأبي رجاء، وفي السبعة إلى غير ابن عامر، وأبي بكر، وفي الكشف ١/ ٤٧٥، والتيسير ١١٣، إلى غير أبي بكر، وابن عامر.

(٣) في الطبري ٩/ ٤٤، الى عاصم بن أبي النجود، وفي السبعة ٢٩٢، إلى ابن عامر، وإلى عاصم في رواية، وفي الجامع ٧/ ٢٧٢، إلى ابن عامر وأبي بكر عن عاصم، وفي الكشف ١/ ٤٧٥، والتيسير ١١٣، والبحر ٤/ ٣٧٧ الى ابن عامر وأبي بكر.

(٤) نصر لتميم، وضرب للحجاز، اللهجات العربية ٤٤٤، ولهجة تميم ١٩٣، والمزهر ٢/ ٢٧٥. وكذلك الأمر في «عرش».

(٥) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٧٥، والجامع ٧/ ٢٦٧، والبحر ٤/ ٣٧٢.

(٦) هو حسيل بن عرفطة. نوادر أبي زيد ٧٧.

(٧) في نوادر أبي زيد ٧٧، والمنصف ٢/ ٢٢٨، بـ «عرفانه» بدل «آياتها».

وأمّا قولهُ تعالى ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الآية ١٤٣] فإنما أراد علماً لا يُدْرَكُ مثله إلاّ في الآخرة فأعْلَمَ الله سبحانه موسى (ع) أن ذلك لا يكون في الدنيا. وقرأها بعضهم «دكّاء»(١) جعله «فَعْلاء» وهذا لا يشبه أن يكون.

وهو في كلام العرب: «ناقَةٌ دَكّاءُ» أي: ليس لها سَنامٌ. والجبل مذكّر، إلاّ أن يكون «جَعَلَهُ مِثْلَ دَكّاء» وحذف «مِثْل».

وقال تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ [الآية ١٤٨](٢) وقرأ بعضهم «حِلِيِّهِمْ»(٣) و«حَلْيِهِمْ»(٤) ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الآية ١٤٨] وقرأ بعضهم «جُؤارٌ»(٥) وكلّ من لغات العرب.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الآية ١٤٩] وقرأ بعضهم «سَقَطَ»(٦) وكلٌّ جائز، والعرب تقول: «سُقِطَ في يديه» و«أُسْقِطَ في أيديهم»(٧).

وأمّا قوله تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء فانه «فُعول» وهي جماعة «الحَلْي» ومن قرأ «حِلِيِّهِم» في اللغة

---

(١) هذه القراءة في الطبري ٩/ ٥٤، الى عامة الكوفيين وعكرمة، وفي الجامع ٧/ ٢٧٨ إلى أهل الكوفة، وفي السبعة ٢٩٣، والكشف ١/ ٤٧٥، والتيسير ١١٣، والبحر ٤/ ٣٨٤، الى حمزة والكسائي. أمّا قراءة «دكّاً»، ففي الطبري ٩/ ٥٤، الى عامة قراء أهل المدينة والبصرة، وفي الشواذ ٤٥، الى يحيى بن وثاب، وفي السبعة ٢٩٣ الى ابن كثير ونافع وابن عمرو وابن عامر وعاصم، وفي الجامع ٧/ ٢٧٨ إلى أهل المدينة وأهل البصرة، وفي الكشف ١/ ٤٧٥، والتيسير ١١٣، إلى غير حمزة والكسائي.

(٢) في الطبري ٩/ ٦٢ أنها قراءة مستفيضة، وفي السبعة ٢٩٤ إلى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم وابن عامر، وفي البحر ٤/ ٣٩٢ إلى السبعة غير من أخذ بسواها، والى الحسن وأبي جعفر وشيبة. وفي الجامع ٧/ ٢٨٤، إلى أهل المدينة وأهل البصرة، وفي الكشف ١/ ٤٧٧، والتيسير١١٣، إلى غير حمزة والكسائي، وفي الجامع ٧/ ٢٨٤، إلى أهل الكوفة إلاّ عاصماً، وفي البحر ٤/ ٣٩٢ الى الأخوين وأصحاب عبدالله، ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش.

(٣) في السبعة ٢٩٤ إلى حمزة والكسائي، والى عاصم في رواية. وفي الكشف ١/ ٤٧٧، والتيسير ١٣٣.

(٤) في البحر ٤/ ٣٩٢ إلى يعقوب.

(٥) في الشواذ ٤٦، الى أبي السمال، وفي البحر ٤/ ٣٩٢ الى الإمام علي وأبي السمال، وقد نقل هذا في الصحاح «جار».

(٦) في الشواذ ٤٦، الى اليماني، وفي البحر ٤/ ٣٩٤، الى فرقة منهم ابن السميفع.

(٧) في البحر ٤/ ٣٩٤، إلى ابن أبي عبلة. ويبدو مما جاء في اللهجات العربية، أنّ الزيادة لغة تميم، والتجريد لغة الحجاز ٤٩٤ وما بعدها، ولهجة تميم ٢٠٣ وما بعدها.

الأخرى فالمكان الياء كما قالوا: «قِسِيّ» و«عِصِيّ».

وقال تعالى ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الآية ١٥٠] بإثبات نونين، واحدة للفعل والأخرى للاسم المضمر؛ وإنّما ثبتت في الفعل، لأنه رفع؛ ورفع الفعل اذا كان للجميع، والاثنين بثبات النون، إلاّ أن نون الجميع مفتوحة ونون الاثنين مكسورة، وقد قال تعالى: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ [الأحقاف/١٧] وقد يجوز في هذا الإدغام والإخفاء.

وقال تعالى: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الآية ١٦٠] على تقدير اثنتي عشرة فرقة، ثمّ أخبر أن الفِرَق أسباط، ولم يجعل العدد على الأسباط.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ [الآية ١٥٤] وقرأ بعضهم (سَكَنَ)[1] إلاّ أنّها ليست على الكتاب، فنقرأ ﴿سَكَتَ﴾ وكلٌ من كلام العرب.

وقال تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الآية ١٥٥] أيْ: اختارَ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمّا نُزِعَت «مِنْ» عمل الفعل. وقال الشاعر[2] [من الطويل وهو الشاهد الرابع عشر]:

مِنا الذي اُختِيرَ الرجالَ سَماحَةً
وَجُوداً[3] إذا هَبَّ الرِّياحُ الزَعازِعُ

وقال آخر[4] [من البسيط وهو الشاهد الخامس عشر]:

أمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ
فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذا مالٍ وَذا نَشَبِ

وقال النابغة[5]: [من الكامل وهو الشاهد السادس عشر]:

نُبِّئتُ زُرْعَةَ والسَّفاهَةُ كاسْمِها
يُهْدي إلَيَّ أوابِدَ الأشْعارِ[6]

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ

---

(١) في الشواذ ٤٦، والجامع ٧/٢٩٢، والبحر ٤/٣٩٨، أنها قراءة معاوية بن قرة.

(٢) هو الفرزدق همّام بن غالب: ديوانه ٢/٥١٦، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/١٨.

(٣) في الديوان بـ «وخيراً».

(٤) هو عمرو بن معدي كرب الزُبَيدي، ديوانه ٣٥، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/١٧، والخزانة ١/١٦٤، وفيها منسوب أيضاً إلى أعشى طرود إياس بن عامر، أو العباس بن مرداس، أو زرعة بن السائب، أو خفاف بن ندبة، وفي الكامل ١/٣٢، منسوباً إلى أعشى طرود إياس بن عامر.

(٥) هو زياد بن معاوية، وقد سبقت ترجمته.

(٦) البيت في ديوانه ٩٧، والمقاصد النحوية ٢/٤٣٩.

يَرْهَبُونَ﴿١٥٤﴾ كما قال ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف] بوصل الفعل باللام.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الآية ١٥٦] أي: وسعت كلّ من يدخل فيها، لا تعجز عَمَّنْ دخل فيها؛ أو يكون يعني الرحمة التي قسّمها بين الخلائق، يعطف بها بعضهم على بعض، حتى عطف البهيمة على ولدها.

وقال ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الآية ١٦٩] إذا قلت «خَلْفُ سوء» و«خَلَفُ صِدْقٍ» فهما سواء. و«الخَلْفُ» إنّما يريد به الذي بعد ما مضى خَلَفاً كانَ منهُ، أوْ لَمْ يكن خَلَفاً إنّما يكون يعني به القرن الذي يكون بعد القرن، و«الخَلَفُ» الذي هو بدل ممّا كان قبله، قد قام مقامه وأغنى غناه. تقول «أصَبْتُ مِنْكَ خَلَفاً»[١].

وقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الآية ١٦٩] بإضافة «العَرَضَ» الى «هذا»؛ وفسر «هذا» بـ «الأدنى» وكل شيء فهو عَرَضٌ سوى الدراهم والدنانير فانها عَيْنٌ. وأما «العَرْضُ» فهو كلّ شيء عَرض لك تقول: «قد عرض له بعدي عَرَضٌ» أي: «أصابَتْهُ بَلِيَّةٌ وشرّ» وتقول: «هذا عُرْضَةٌ للشرّ» و«عُرْضَةٌ للخَيْر» كلُّ هذا تقوله العرب. وقال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٢٤] وتقول: «أعْرِضَ لك الخيرُ» و«عَرَضَ لكَ الخَيْرُ» وقال الشاعر[٢] [من الكامل وهو الشاهد السابع عشر بعد المئتين]:

لا أعْرِفَنَّكَ مُعْرِضاً لِرِماحِنا
فـي جُفِّ تَغْلِبَ واردَ الأمْرارِ[٣]

و«العارِضُ» من السحاب: ما استقبلك وهو ما ورد في قول الله عزّ وجلّ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ [الأحقاف/ ٢٤]

---

(١) جاء في الصحاح: «الخَلَف والخَلْف: ما جاء من بعد. يقال: «هو خَلَف سوء من أبيه وخلف صدق من أبيه» بالتحريك اذا قام مقامه. قال الأخفش: هما سواء منهم من يحرّك ومنهم من يسكّن فيهما جميعاً إذا أضاف. ومنهم من يقول «خلف صدق» بالتحريك ويسكّن الآخر. ويريد بذلك الفرق بينهما قال الراجز:

إنّا وجدنا خَلَفاً بئس الخَلَفْ عبداً إذا ما ناء بالحِمْلِ خَضَفْ

«الصحاح» «خلف».

(٢) هو النابغة الذبياني زياد بن معاوية، «ديوانه ١٢٨». اللسان «جفف» و«مرر» والصحاح كذلك.

(٣) في الصحاح واللسان كما مر، «عارضاً» بدل «معرضاً»، و«وارد» بدل «واردي» كما هو في الأصل.

وأما «الحَبِيُّ»: فما كان من كل ناحية وتقول: «خذْوهُ من عُرْضِ الناس» أي: ممّا وَلِيَكَ منهم، وكذلك «اضرب به عُرْضَ الحائط» أي، ما وَلِيَكَ منه. وأما «العَرْضُ» و«الطول» فإنه ساكن. وأما قوله[1] [من الطويل وهو الشاهد الثامن عشر بعد المئتين]:

لَهُنَّ عَلَيْهِمْ عادَةٌ قَدْ عَرَفْنَها[2]
إذا عَرَضُوا الخَطِّيَّ فَوْقَ الكَواثِبِ[3]

وأعرضوا، فهذا لأنّ: عَرَضَ عَرْضاً. و: «عَرَضْتُ عَلَيْهِ المَنْزِلَ عَرْضاً»

و«عَرَضَ لِيَ أَمْرٌ عَرْضاً» هذا مصدره. و«العَرَضُ من الخَيْرِ والشَّرِّ»:

ما أصبت عَرَضاً من الدنيا فانتفعت به تعني به الخير، و«عَرَضَ لك عَرَضُ سَوْءٍ».

وقال تعالى: ﴿مِنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الآية ١٦٨] لا أعلم أحداً يقرأها إلاّ نصباً.

وقال تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الآية ١٧٧] فجعل «القومُ» هم «المَثَل» في اللفظ أي: مِثْلُ القوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الآية ١٧٩] من: «ذَرَأَ» «يَذْرأُ» «ذَرْءاً».

وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الآية ١٨٠][4] وقرأ بعضهم (يَلْحَدُونَ)[5] جعله من «لَحَدَ» «يَلْحَدُ» وهي لغة[6]. وقال في موضع آخر

---

(١) هو النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، ديوانه ٥٨، واللسان «كثب».

(٢) الصدر من الديوان واللسان.

(٣) في الديوان واللسان «عرض» والديوان «عرض».

(٤) في الطبري ٩/ ١٣٤، أنها قراءة عامة قراء أهل المدينة، وبعض البصريين والكوفيين، وفي السبعة ٢٩٨ إلى ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبي عمرو والكِسائي، وفي البحر ٤/ ٤٣٠ إلى السبعة، إلاّ من أخذ بالأخرى، وفي الكشف ١/ ٤٨٤، والتيسير ١١٤، إلى غير حمزة.

(٥) في الطبري ٩/ ١٣٤ الى عامة قراء أهل الكوفة، وفي السبعة ٢٩٨، والتيسير ١١٤، والكشف ١/ ٤٨٤، إلى حمزة، وفي البحر ٤/ ٤٣٠، إلى حمزة وابن وثاب والأعمش وطلحة وعيسى.

(٦) لغة المجرّد هي للحجاز، وبعض قرى العالية، وقريش، ولغة المزيد هي لتميم وقيس ومنطقة نجد ودبير وعقيل، اللهجات العربية ٤٩٢ ـ ٤٩٨.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ [النحل/١٠٣][1] وقرأ بعضهم (يَلْحَدُونَ)[2] وهما لغتان؛ و﴿يُلْحِدُونَ﴾ أكثر، وبها نقرأ؛ ويقويها ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج/٢٥][3].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ١٧٦] ولا نعلم أحداً يقول (خَلَدَ). وقوله (أَخْلَدَ) أي: لَجَأَ إليها.

وقال تعالى ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الآية ١٨٩] لأنّ «الحَمْل» ما كان في الجَوْفِ و «الحِمْل» ما كان على الظهر. وقال ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج/٢] وأمّا قوله تعالى ﴿أَثْقَلَت﴾ [الآية ١٨٩] أي: «صارت ذاتَ ثِقَلٍ» كما تقول «أَتْمرْنا»[4] أي: «صِرْنا ذَوِي تَمْرٍ»[5] و«أَلْبَنّا» أي: صرنا ذوي لَبَنٍ» و«أَعْشَبَتِ الأرْضُ» و«أَكْمَأَتْ» وقرأ بعضهم: (فَلَمّا أُثْقِلَتْ)[6].

وقال تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الآية ١٩٠] وقرأ بعضهم (شِرْكاً)[7] لأنّ «الشِرْكَ» إنّما هو «الشِرْكَةُ»؛ وكان ينبغي في قول من قال هذا، أن يقول «فَجَعَلا لغيرِه شِرْكاً فيما آتاهما»[8].

وقال تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الآية ٢٠١] و«الطَّيْفُ» أكثر

---

(١) في الطبري ١٤/ ١٧٩ هي قراءة عامة قراء المدينة والبصرة، وفي السبعة ٣٧٥ إلى ابن كثير ونافع ولابن عامر وعاصم وأبي عمرو، وفي المحتسب ٢/ ١٢ إلى الحسن، وفي البحر ٥/ ٢٣٦ إلى غير من أخذ بالأخرى، وفي السبعة وفي التيسير ١٣٨ إلى غير حمزة والكِسائي، وفي الكشف ١/ ٤٨٤ اقتصر على حمزة.

(٢) في الطبري ١٤/ ١٨٠ أنها قراءة أهل الكوفة، وفي الكشف ١/ ٤٨٤، والجامع ١٠/ ١٧٨، إلى حمزة، وزاد في السبعة ٢٩٨ و٣٧٥، والتيسير ١٣٨، الكسائي، وفي البحر ٥/ ٥٣٦ زاد عبدالله بن طلحة والسلمي والأعمش ومجاهداً.

(٣) نقل هذا في زاد المسير ٣/ ٢٩٣.

(٤) نقله بعبارة أخرى في إعراب القرآن ١/ ٣٩١.

(٥) نقله في الصحاح «تقل» وزاد المسير ٣/ ٣٠١.

(٦) في الشواذ ٤٨، نسبت إلى اليماني، وفي البحر ٤/ ٤٤٠ بلا نسبة.

(٧) في الطبري ٩/ ١٤٨ و١٤٩ إلى عامة قراء أهل المدينة، وبعض المكيين والكوفيين، وفي السبعة ٢٩٩ إلى نافع وإلى عاصم في رواية، وفي الكشف ١/ ٤٨٥ والتيسير ١١٥ أبدل أبا بكر بعاصم، وفي البحر ٤/ ٤٤٠ زاد ابن عباس وأبا جعفر وشيبة وعكرمة ومجاهداً وأبان بن ثعلب.

(٨) نقل هذا في إعراب القرآن ١/ ٣٩١، والجامع ٧/ ١٩٠.

في كلام العرب. وقال الشاعر[1] [من المتقارب وهو الشاهد التاسع عشر بعد المئتين]:

ألا يـا لَـقَـوْمٍ لِـطَـيْـفِ الـخَـيَـالِ
أرَقَّ مِــــــنْ نــــــازحٍ ذِي دَلالِ[2]

ونقرأها (طائِف) لأنّ عامة القراء عليها.

وقال تعالى ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [الآية ٢٠٥] وتفسيرها «بالغَدَوَاتِ» كما تقول: «آتيك طلوعَ الشَّمْسِ» أي: في وقتِ طلوعِ الشمس كما قال تعالى ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران/ ٤١ وغافر/ ٥٥] وهو مثل «آتيكَ في الصَّباحِ وبِالمَساءِ» وأما «الآصال» فواحدها: «أصيلٌ»[3] مثل: «الأشرار» واحدها: «الشَّرِير» و«الأيمانُ» واحدتها: «اليَمينُ».

(١) هو أمية بن أبي عائذ الهذلي: ديوان الهذليين ٢/ ١٧٢، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٣١٩.

(٢) في ديوان الهذليين والصاحبي ١١٤ بـ «يؤرق» بدل «أرق» وقد نقله في زاد المسير ٣/ ٣٠٩ و٣١٠.

(٣) نقله في إعراب القرآن ١/ ٣٩٦، ونقله في الجامع ٧/ ٣٥٦.

لكل سؤال جواب في سورة «الأعراف»(*)

إن قيل: النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الآية ٢] متوجّهٌ الى الحرج فما وجهه؟

قلنا: هو من باب القول لا أرَيَنَّك هنا، معناه: لا تقم هنا فإنّك إن أقمت رأيتك، فمعنى الآية، فكن على يقين منه ولا تشكّ فيه، لأنّ المراد بالحرج الشكّ.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الآية ٤]، والإهلاك، إنّما هو بعد مجيء البأس وهو العذاب؟

قلنا: معناه أردنا إهلاكها، كقوله تعالى ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة/٦] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل/٩٨].

فإن قيل: ميزان القيامة واحد، فلِمَ قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الآية ٨] و﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الآية ٩]؟

قلنا: إنما جُمِعَ، لأنّ السّياق أراد بالميزان الموزونات من الأعمال. وقيل إنما جمعه، لأنه ميزان يقوم مقام موازين، ويفيد فائدتها، لأنه يوزن به ذرّات الأعمال، وما كان منها في عظم الجبال.

فإن قيل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض لا ثقل لها ولا جسم، والوزن من خواص الأجسام؟

قلنا: الموزون صحائف الأعمال. الثاني أنه قد ورد أن الله تعالى يحيلها

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» لمحمد بن أبي بكر الرازي، الناشر: مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

في جواهر وأجسام، فتتصور أعمال المطيعين في صورة حسنة، وأعمال العاصين في صورة قبيحة، ثم يزنها؛ والله على كل شيء قدير.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الآية ١١] وكلمة ثم للترتيب، وخطاب الملائكة، عليهم السلام، بالسجود، سابق على خلقنا وتصويرنا؟

قلنا: المراد ولقد خلقنا أباكم، ثم صوّرناه بطريق حذف المضاف. وقيل المراد: ولقد خلقنا أباكم، ثم صوّرناكم في ظهره. والقول الأول أظهر.

فإن قيل: لم قال تعالى لإبليس ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الآية ١٣] أي في السماء، وليس له ولا لغيره أن يتكبر في الأرض أيضاً.

قلنا: لما كانت السماء مقرّ الملائكة المطيعين، الذين لا توجد منهم معصية أصلاً، كان وجود المعصية منهم أقبح، فلذلك خصّ مقرهم بالذكر.

فإن قيل: لِمَ أجيب إبليس الى الإنظار، وإنما طَلَبَ الإنظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى، ويغويهم؟

قلنا: لما في ذلك من ابتلاء العباد، ولما في مخالفته من عظم الثواب، ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى في الدنيا من أصناف الزخارف، وأنواع الملاذّ والملاهي، وما ركّبه في الأنفس من الشهوات، ليمتحن بها عباده.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الآية ٢٠] ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما، بل إخراجهما من الجنة، ويؤيّده قوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [الآية ٣٦]؟

قلنا: اللام في ﴿لِيُبْدِىَ﴾ لام العاقبة والصيرورة، لا لام كي، كما في قوله تعالى ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص/٨] وقول الشاعر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ
فَكُلُّكُمُ يَصِيرُ إلى التُّرَابِ

فإن قيل: أيُّ آية لله تعالى، في اللباس والكسوة، حتى قال تعالى في آية اللباس والكسوة ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٢٦]؟

قلنا: معناه أنّ اللباس والكسوة للإنسان خاصة، علامة من العلامات الدالّة على أن الله تعالى فضّله على سائر الحيوانات، وقيل معناه: ذلك من نعم الله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في حقّ إبليس ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الآية ٢٧] ونازع لباسهما هو الله تعالى؟

قلنا: لمّا كان ذلك السبب، بسبب وسوسته وإغوائه أضيف النزع إليه، كما يقال: أشبعني الطعام وأرواني الشراب، والمشبعُ والمروي في الحقيقة، إنّما هو الله تعالى، وهما سبب.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ وهو بدأنا أوّلاً نطفة، ثمّ علقةً، ثمّ مضغةً، ثمّ عظاماً، ثمّ لحماً كما ذكر، ونحن لا نعود عند الموت، ولا عند البعث بعد الموت، على ذلك الترتيب؟

قلنا: معناه كما بدأكم أوّلاً من تراب، كذلك تعودون تراباً. وقيل معناه: كما أوجدكم أوّلاً بعد العدم، كذلك يعيدكم بعد العدم، فالتشبيه في نفس الإحياء والخلق، لا في الكيفيّة والترتيب. وقيل معناه: كما بدأكم سعداء وأشقياء، كذلك تعودون، ويؤيّده تمام الآية، وقيل معناه: كما بدأكم لا تملكون شيئاً كذلك تعودون، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ [الأنعام/ ٩٤].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى مخبراً عن الزينة والطيّبات ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية ٣٢] مع أن الواقع المشاهد، أنّها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم؟

قلنا: فيه إضمار، تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا، لأن المشركين شاركوهم فيها خالصة للمؤمنين في الآخرة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ والميراث عبارة عمّا ينتقل من ميت إلى ميت، وهو مفقود هنا؟

قلنا: هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار، بالوارث وبالموروث عنه. وذلك أن الله تعالى، خلق في الجنة منازل للكفار على تقدير الايمان، فمن لم يؤمن منهم، جعل منزله لأهل الجنّة. الثاني أنّ نفس دخول الجنة بفضل الله

ورحمته، من غير عوض، فأشبه الميراث، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الآية ٥٤] أمّا الخلق بمعنى الإيجاد والإحداث، فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى، وأمّا الأمر فلغيره أيضاً، بدليل قوله تعالى ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران/ ١٠٤ و١١٤؛ التوبة/ ٧١] وقوله تعالى ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الآية ١٩٩] وقوله تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه/ ١٣٢]؟

قلنا: المراد بالأمر هنا، قوله تعالى ﴿كُنْ﴾ عند خلق الاشياء، وهذا الأمر الذي به الخلق مخصوص به كالخلق. الثاني أن المراد بالخلق والأمر ما سبق ذكرهما في هذه الآية، وهو خلق السماوات والأرض، وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر، وذلك مخصوص به عزّ وجلّ.

فإن قيل: لم قال تعالى على لسان نوح (ع) ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الآية ٦١] بالتاء، ولم يقل ليس بي ضلال كما وصفه قومه به، وذلك أشدّ مناسبة ليكون نافياً ما أثبتوه عَيْنَهُ؟

قلنا: الضلالة أقل من الضلال، فكان نفيها أبلغ في نفي الضلال عنه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل ألك ثمر فقلت مالي ثمرة؟ كان ذلك أبلغ في النفي من قولك مالي ثمر.

فإن قيل: لِمَ وُصِفَ الملأ بالذين كفروا في قصة هود، دون قصة نوح (ع)؟

قلنا: لأنه كان في أشراف قوم هود، من آمن به منهم عند هذا القول، فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الآية ٦٦] بخلاف قوم نوح فإنه لم يكن منهم من آمن به عند قولهم كما ورد في التنزيل ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ فكان كل الملأ قائلين ذلك، هكذا أجاب بعض العلماء؛ وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة هود في قصة نوح (ع) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود/ ٢٧]، وجواب هذا النقض، أنه يجوز أن القول كان وقع مرتين، والمرة الثانية بعد إيمان بعضهم.

فإن قيل: لِمَ ورد على لسان صالح عليه السلام، قوله لقومه بعد ما أخذتهم الرجفة وماتوا ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن

﴿لَا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ ولا يحسن من الحي مخاطبة الميت لعدم الفائدة؟

قلنا: هذا مستعمل في العرف، فإن من نصح إنساناً فلم يقبل منه حتى قتل أو صلب ومرّ به ناصحه، فإنه يقول له: كم نصحتك يا أخي فلم تقبل حتّى أصابك هذا. وفائدة هذا القول، حثّ السامعين له على قبول النصيحة ممّن ينصحهم، لئلاّ يصيبهم ما أصاب المنصوح الذي لم يقبل النصيحة، حتّى هلك.

فإن قيل: لم قال شعيب (ع) كما ورد في التنزيل ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الآية ٨٥] وهم ما زالوا كافرين مفسدين لا مصلحين؟

قلنا: بعد أن أصلحها الله تعالى، بالأمر بالعدل، وإرسال الرسل. وقيل معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها، بحذف المضاف. وقيل معناه بعد الإصلاح فيها: أي بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء، وأتباعهم العاملين بشرائعهم، فإضافته كاضافة قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ/٣٣] يعني بل مكرهم في الليل والنهار.

فإن قيل: كيف خاطبوا شعيباً (ع) بالعود في الكفر بقولهم كما ورد في التنزيل: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الآية ٨٨] وهو أجابهم ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الآية ٨٩] وهو لم يكن في ملّتهم قط، لأن الانبياء (ع) لا يجوز عليهم شيء من الكبائر خصوصاً الكفر؟

قلنا: العرب تستعمل عاد بمعنى صار ابتداء، ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾. الثاني، أنه قيل ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد، باشتمال الكلام على الذين آمنوا منهم بعد كفرهم، وبجعلهم عائدين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب؛ وعلى ذلك أجرى شعيب (ع) جوابه.

فإن قيل: لم ورد على لسان فرعون ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ بعد ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ [الآية ١٠٦]؟

قلنا: معناه إن كنت جئت بآية من عند الله، فأتني بها: أي أحضرها عندي.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ وفي سورة الشعراء ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ

﴿هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء] فنسب هذا القول الى فرعون؟

قلنا: قاله هو وقالوه هم؛ فحكى تعالى قوله، ثمّ قولهم هنا.

فإن قيل: السحرة إنّما سجدوا لله تعالى طوعاً، لمّا تحققوا معجزة موسى (ع)، فلِمَ قال تعالى ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قلنا: لمّا زالت كلّ شبهة لهم بما عاينوا من آيات الله تعالى على يد نبيِّهِ، اضطرهم ذلك الى مبادرة السجود؛ فصاروا من غاية المبادرة، كأنّهم ألقوا الى السجود تصديقاً لله ولرسوله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ الى قوله سبحانه ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ثمّ حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه، وسورة الشعراء، بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم؛ وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرّة واحدة، فلِمَ اختلفت عبارتهم فيها؟

قلنا: الجواب عنه، أنهم إنما تكلموا بذلك بلغتهم لا باللغة العربية، وحكى الله ذلك عنهم باللغة العربية مراراً لحكمة اقتضت التكرار والإعادة، نبيّنها في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى، فمرّة حكاه مطابقاً للفظهم في الترجمة رعاية للفظ؛ وبعد ذلك حكاه بالمعنى جرياً على عادة العرب في التفنّن في الكلام، والمخالفة بين أساليبه، لئلاّ يَمَلَّ إذا تمحّض تكراره.

فإن قيل: في قوله تعالى ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الآية ١٣٢] لِمَ سموها آية، ثم قالوا لتسحرنا بها؟

قلنا: ما سموها آية لاعتقاد أنها آية، بل حكاية لتسمية موسى (ع) على طريق الاستهزاء والسخرية.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي أهلكنا، وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء]؟

قلنا: معناه: ودمرنا، أي أبطلنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المكر والمكيدة في حق موسى (ع) ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي يبنون من الصرح الذي أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته الى السماء. وقيل هو

على ظاهره، لأن الله تعالى أورث ذلك بني إسرائيل مدّة، ثم دمّره جميعه.

فإن قيل: في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾: إن كان إشارة إلى الإنجاء فليس فيه بلاء، بل هو محض نعمة، وإن كان إشارة إلى القتل والأسر، فإضافته إلى آل فرعون بقوله تعالى ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أشدّ مناسبة لسياق الآية، وهو الامتنان: ولهذا قيل: يُقتّلون ويَستَحيُونَ، فأضاف إليهم الفعلين.

قلنا: البلاء مشترك بين النعمة والمحنة، لأنه من الابتلاء وهو الاختبار؛ يقال بلاه وابتلاه: أي اختبره، والله تعالى يختبر شكر عباده بالنعمة، ويختبر صبرهم بالمحنة، يؤيّده قوله تعالى ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الآية ١٦٨] وقوله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء/ ٣٥] فمعنى الآية، وفي ذلك الإنجاء نعمة عظيمة من ربكم عليكم.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الآية ١٤٢] المواعدة كانت أمره بالصوم في هذا العدد، فلِمَ ذُكرت الليالي مع أنها ليست محلاً للصوم، بل يقع في القلب أنّ ذكر الأيام أولى، لأنها محل الصوم الذي وقعت به المواعدة؟

قلنا: العرب في أغلب تواريخها إنّما تذكر الليالي وإن كان مرادها الأيام؛ لأن الليل هو الأصل في الزمان، والنهار عارض لأن الظلمة سابقة في الوجود على النور. وقيل إنه كان في شريعة موسى (ع) جواز صوم الليل.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الآية ١٤٢] وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الآية ١٤٢]؟

قلنا: فيه فوائد: إحداها التأكيد. الثانية أن يعلم أن العشرَ ليالٍ لا ساعات. الثالثة أن لا يتوهم أنّ العشر التي وقع بها الإتمام كانت داخلة في الثلاثين، يعني كانت عشرين وأتمّت بعشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت/ ١٠] على مانذكره مشروحاً في حم السجدة.

فإن قيل: لم قال موسى (ع) ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد كان قبله كثير من المؤمنين، وهم الأنبياء ومن آمن بهم؟

قلنا: معناه، وأنا أوّل المؤمنين بأنّك يا الله، لا تُرى بالحاسّة الفانية من الجسد الفاني، في دار الفناء. وقيل معناه: وأنا أوّل المؤمنين من بني إسرائيل في زماني. وقيل أريد بالأوّل الأقوى والأكمل في الإيمان، يعني كأنّ القول: لم يكن طلبي للرؤية لشكّ عندي في وجودك أو لضعف في إيماني، بل لطلب مزيد الكرامة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الآية ١٤٥] أي التوراة، وهم مأمورون بالعمل بكلّ ما في التوراة؟

قلنا: معناه بحسنها وكلّها حسن. الثاني أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير أحسن من ترك الشر. الثالث أن فيها حسناً وأحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر، والواجب والمندوب والمباح، فأمروا بالأخذ بالعزائم والفضائل، وما هو أكثر ثواباً.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الآية ١٤٨] واتّخاذهم العجل كان في زمن موسى (ع) بالنقل، وفي سياق الآية ما يدلّ على ذلك.

قلنا: معناه من ذهابه إلى الجبل. وقيل من بعد الأخذ عليهم أن لا يعبدوا غير الله.

فإن قيل: لِمَ عُبّرَ عن الندم بالسقوط في اليد، في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الآية ١٤٩] وأي مناسبة بينهما؟

قلنا: لأنّ من عادة من اشتدّ ندمه وحسرته على فائت، أن يعضّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها، لأنّ فاه قد رُفِعَ فيها؛ و«سُقِطَ» مسند إلى «في أيديهم»، وهو من كنايات العرب كقولهم للنائم: ضُرِبَ على أُذنه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الآية ١٥٠] وهما متقاربان في المعنى؟

قلنا: لأن الآسف الحزين، وقيل الشديد الغضب؛ ففيه فائدة جديدة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الآية ١٥٤] ولم يقل وفيها، وإنّما يقال

نسختها لشيء كتب مرة ثم نقل؛ فأما أوّل مكتوب فلا يسمّى نسخة، والألواح لم تكتب من مكتوب آخر؟

قلنا: لما ألقى الألواح، قيل إنّه انكسر منها لوحان، فنسخ ما فيهما في لوح ذهب، وكان فيهما الهدى والرحمة، وفي باقي الألواح تفصيل كل شيء؛ وقيل إنما قيل ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ لأن الله تعالى لقّن موسى (ع) التوراة، ثمّ أمره فنقلها بكتابتها من صدره إلى الألواح، فسمّاها نسخة.

فإن قيل لِمَ قال تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الآية ١٥٧] أي مع النبي (ص) يعني القرآن، والقرآن إنما أنزل مع جبريل (ع) على النبي (ص)، لا مع النبي (ص)؟

قلنا: معه: أي مقارناً لزمانه. وقيل معه: أي عليه، وقيل معه: أي إليه، ويجوز ان يتعلّق معه باتّبعوا لا بأنزل؛ معناه: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي (ص) والعمل بسنته، أو واتّبعوا القرآن كما اتّبعه هو، مصاحبين له في اتباعه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الآية ١٦٢] وهم إنّما بدّلوا القول الذي قيل لهم، لأنهم قيل لهم ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة/٥٨] فقالوا حنطة؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الآية ١٦٦] وانتقالهم من صورة البشر الى صورة القردة، ليس في وسعهم؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.

فإن قيل: الحلم من صفات الله تعالى، فلماذا قال عزّ وعلا ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الآية ١٦٧] وسرعة العقاب تنافي صفة الحلم، لأن الحليم هو الذي لا يعجّل بالعقوبة على العصاة؟

قلنا: معناه شديد العقاب. وقيل معناه سريع العقاب إذا جاء وقت عقابه، لا يردّه عنه أحد.

فإن قيل: التمسّك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فلماذا قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الآية ١٧٠].

قلنا: إنّما خصّها بالذكر، إظهاراً

لمزيتها، لكونها عماد الدين بالحديث، وناهية عن الفحشاء والمنكر بالآية.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الآية ١٧٦] تمثيل لحال بلعام[1]، فلماذا ورد بعده قوله عز وجل ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الآية ١٧٧] والمثل لم يضرب إلاّ لواحد؟

قلنا: المثلُ في الصورة، وإن ضُرب لبلعام، ولكن أريد به كفار مكّة كلّهم؛ لأنهم صنعوا مع النبي (ص)، بسبب ميلهم الى الدنيا وشهواتها، من الكيد والمكر، ما يشبه فعل بلعام مع موسى (ع). الثاني أنّ ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ راجع إلى قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ لا إلى أول الآية.

فإن قيل: لِمَ ورد على لسان النبي (ص) ﴿إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو (ص)، كان بشيراً ونذيراً للناس كافّة؛ كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ/ ٢٨]؟

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لقوم كتب عليهم في الأزل أنهم يؤمنون، وإنما خصّهم بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم، فكأنه نذير وبشير لهم خاصّة، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات] ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفاً تقديره: إن أنا إلاّ نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقوم يؤمنون؛ فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر، كما استغنى بالجملة عن التفصيل، في تلك الآية؛ لأن المعنى: وما أرسلناك إلا كافّة بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى حكاية عن آدم (ع) وحوّاء رضي الله عنهما ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الآية ١٩٠] وقال عزّ وجلّ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر، فضلاً عن الشرك الذي هو أكبر الكبائر؟

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿جَعَلَا لَهُ﴾ أي جعل أولادهما بطريق حذف المضاف، وكذا قوله تعالى ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي فيما آتى أولادهما، ويؤيّد هذا قوله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

(١) بلعام: عراف في بني اسرائيل.

﴿يُشْرِكُونَ﴾ حيث ذكر ضمير الجمع، ولم يقل يشركان؛ ومعنى اشتراك أولادهما فيما آتاهم الله تعالى، تسميتهم أولادهم بعبد العزّى وعبد مناف، وعبد شمس، ونحو ذلك، مكان عبدالله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم.

وقيل الضمير في «جعلا» للولد الصالح، وهو السليم الخُلُق، وإنّما قيل «جعلا» لأنّ حواء كانت تلد في بطنٍ ذكراً وأنثى. وقيل المراد بذلك تسميتها إياه عبد الحارث، والحارث اسم إبليس في الملائكة، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية، وإنما قيل «شركاء» إقامة للواحد مقام الجمع، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه، بل قصد أنه كان سبب نجاته. وقال جمهور المفسّرين: قوله تعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في مشركي العرب خاصّة، وهو منقطع عن قصّة آدم وحواء عليهما السلام.

المعاني المجازية في سورة «الأعراف»(*)

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴿٩﴾﴾. استعارة. لأن الخسران في التعارف إنّما هو النقص في أثمان المبيعات. وذلك يخصّ الأموال لا النفوس. إلاّ أنه سبحانه لمّا جاء بذكر الموازين وثقلها وخفّتها، جاء بذكر الخسران بعدها، ليكون الكلام متّفقاً، وقصص الحال متطابقاً. وكأنه سبحانه جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم، كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم.

وذكر خسرانهم لها، لأنهم عرّضوها للخسار، وأوجبوا لها عذاب النار. فصارت في حكم العروض المتلفات، وتجاوزوا حدّ الخسران في الأثمان، إلى حد الخسران في الأعيان.

وفي قوله سبحانه حاكياً عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴿١٦﴾﴾ استعارة، والصراط هنا كناية عن الدين، جعله الله سبحانه طريقاً للنجاة والمفاز، وفي داري القرار والمجاز؛ وإنما قال صراطك، لمّا كان الدين كالطريق المؤدية إلى رضا الله سبحانه ومثوبته، الموصلة إلى نعيمه وجنته. فكان إبليس ـ لعنه الله ـ إنما يوعِد بالقعُود على طريق الدين ليُضِلَّ عنه كلَّ قاصد، ويَرُدَّ عنه كلَّ وارد، بمكره وخدائعه، وتلبيسه ووساوسه. تشبيهاً بالقاعد على ملرجة بعض السُّبُل ليخوّف السالكين منها، ويعدل

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

بالقاصدين عنها. والمراد: لأقعدنّ لهم على صراطك المستقيم، فلمّا حذف الجارُ انتصب الصراط.

والحذف هنها أبلغ في الفصاحة، وأعرقُ في أصول العربية. ونظيره قول الشاعر[1].

* كما عَسَل الطريقَ الثعْلَبُ *

أي عَسَل في الطريق.

وكلّ ما في القرآن من ذكر سبيل الله سبحانه، فالمراد به الطريق المفضية إلى طاعته عاجلاً، وإلى جنّته آجلاً.

وقوله سبحانه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الآية ٢٢]. استعارة. والمراد أنه أوقعهما في أهوائه بغروره لهما. وكل واقع في مثل ذلك فإنه نازل من علو إلى استفال، ومن كرامة إلى إذلال. فلذلك قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾. وقد استقصينا الكلام على ذلك في كتابنا الكبير، عند القول فيما اختلف العلماء فيه من ذنوب الأنبياء (ع).

وقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الآية ٢٦] وقد قرئ: ورياشا[2]، وهما جميعاً استعارة هنا[3]. لأنّ المراد بهما اللباس. وسمي اللباس ريشاً ورياشاً تشبيهاً بريش الطائر الذي يستر جُملته. ومن كلام العرب: أعطيته رَجُلاً بِرِيشِهِ. أي بكسوته.

وقال المفسّرون: معنى لباس التّقوى، ما كان من الملابس يستر العورة، لأنّ ستر العورة من أسباب التّقوى. وقرئ: «ولباسَ التّقْوَى». نَصْباً بأنزلنا عليكم. والرفع فيه على معنى الابتداء. ويكون «خيرٌ» خبراً له. فيكون المعنى: ولباسُ التقوى المشار إليه خير. وهذا أسدُّ القولين في هذا المعنى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ

---

(١) هو الشاعر ساعدة بن جؤية يصف رمحاً. والبيت كاملا هو:

لَدْنٌ بِهـزِّ الكَـفِّ يَعْسِـلُ مَتْـنُـهُ فيه، كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعلَبُ

انظر ابن هشام في «أوضح المسالك» جـ ٢ من ١٦.

(٢) قرأ ذلك الحسن وعاصم من رواية المفضّل الضبّي، كما قرأه ابو عمرو من رواية الحسين بن علي الجعفي.

(٣) الاستعارة في قوله تعالى ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ لا تتضح إلا اذا كان اللباس هو المطر الذي به ينبت القطن والكتان. أي انزلنا عليكم مطراً ينتج القطن والنبات الذي تتخذون منه ملابسكم ـ انظر القرطبي جـ ٧ من ١٨٤.

﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الآية ٢٩] استعارة. لأن الوجه لا يصح عليه القيام. والمعنى: «فوجّهوا وجوهكم عند كل مسجد». ويجوز أن يكون معنى ذلك: «فتوجّهوا بجملتكم نحو كل مسجد». لأن وجه الشيء عبارة عن جملته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الآية ٤٠] استعارة. والمراد لا يَصِلون إلى الجنة ولا يتسهّل لهم السبيلُ إليها، ولا يستحقّون بأعمالهم الدخول إليها. ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر] أي سهّلنا خروجه من السماء إلى الأرض، ورفعنا الحواجز بينه وبين الخَلْق.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الآية ٤١] وهذه استعارة. وقد مضى في (آل عمران) إلاّ أنّ الزيادة هُهنا قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ فكأنه جعل لهم من النار أمهدة مفترشة وأغشية مشتملة، فيكون استظلالهم بحرها، كاستقرارهم على جمرها. نعوذ بالله من ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الآية ٤٣]. وهذه استعارة. لأنه ليس هناك شيء يتأتى نزعه على الحقيقة. والمعنى: أزلنا ما في صدورهم من الغِلّ بإنسائهم إيّاه، وبإحداث أبدال له تشغل أماكنه من قلوبهم، وتشفع مواقعه من صدورهم. وقال بعض المفسّرين: معنى ذلك: أهل الجنة لا يحسد بعضهم بعضاً على علوّ المنزلة فيها، والبلوغ إلى مشارف رتبها. والحسد: الغلّ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ وهذه استعارة خفيّة. وقد تكون استعارة خفيّة، واستعارة جليّة. وذلك أن حقيقة الميراث في الشرع، هو ما انتقل إلى الإنسان من مِلْك الغير بعد موته على جهة الاستحقاق.

فأما صفة الله تعالى بأنه الوارث لخلقه، كقوله سبحانه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص] وكقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران/ ١٨٠؛ الحديد/ ١٠] فهو مجاز. والمراد: أنه سبحانه الباقي بعد فناء الخلق، وتقوّض السماء والأرض.

وقد استعمل ذلك أيضاً في نزول قومٍ ديارَ قومٍ بَعْدَهم، وأخْذِ قومٍ أموالَ

قوم بعد إجلائهم وحربهم. فقال سبحانه في هذه السورة: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الآية ١٣٧]. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب/ ٢٧] وليس يصحّ في ميراث الجنّة مثل هذه المعاني التي ذكرت، لأن الجنة لا يسكنها قوم بعد قوم قد فارقوها وانتقلوا عنها. فقوله سبحانه: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ على الأصل الذي قدّمناه استعارة. ويكون المعنى الذي يسوّغ هذه الاستعارة، أنّ هؤلاء المؤمنين لمّا عملوا في الدار الدنيا أعمالاً استحقّوا عليها الجزاء والثواب، ولم يصحّ أن يوفّر عليهم ذلك إلا في الجنّة، وهي من الدار الآخرة؛ فكأنّهم استحقّوا دخولها. فَحَسُنَ من هذا الوجه أن يوصفوا بأنهم أورثوها، وإن لم يكن سكناهم لها بعد سكنى قوم آخرين انتقلوا عنها.

وسوّغ ذلك أيضاً اختلافُ حال الدّارين، وانتقالهم من الأولى إلى الآخرة. فكأنّ ما عملوه في الدار الأولى كان سبباً لما وصلوا إليه في الدار الآخرة، كما يُستحقُّ الميراث بالسبب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية ٤٥] وهذه استعارة، فإن، سبيل الله سبحانه: دينه. ومعنى ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يبتغون عنها المتَحاول، ويطلبون منها الفُسَح والمخارج، ويوهمون بالشُّبهات أنّها معوجّة غير قويمة، ومضطربة غير مستقيمة.

وقوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وقد مضى نظير ذلك في أوّل السورة.

وقوله سبحانه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ﴾ [الآية ٥٤] وهذه استعارة.

سورة الأنفال

٨

أهداف سورة «الأنفال»(*)

أهداف السورة

من الأسباب المباشرة لنزول سورة الانفال معالجة شؤون حدثت بين المسلمين في غزوة بدر؛ منها كراهتهم للخروج إلى بدر حينما دعاهم الرسول إلى الخروج، وكراهتهم للقتال حينما وصلوا إلى بدر وتحتّم عليهم أن يقاتلوا.

ومنها اختلافهم بعد تمام النصر في قسمة الغنائم.

ومنها اختلاف الرأي في معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم؟

وفي جو هذه الشؤون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون في خاصة أنفسهم، من جهة امتثال الأمر، والإخلاص، والحيطة والحذر من الأعداء، وتذكُّر نِعَمَ الله عليهم، والآداب التي يجب مراعاتها في أثناء القتال، وفيما يتصل به، من إعداد العُدّة، والمحافظة على العهود، وعلاقة بعضهم ببعض، حتى يكونوا أهلاً لما وعدهم الله من النصر والتأييد وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله.

ولا يفهم من ذلك أن كراهة القتال كانت طابعاً عاماً؛ بل كانت رغبة فريق قليل ونفر محدود، كان يفضّل الغنيمة والحصول على التجارة على القتال، لكن بقية الجيش كان على استعداد للتضحية والفداء، وكان القرآن يوحّد

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمد شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الهدف، ويرشد الجميع إلى أن القتال أفضل لأن فيه انتصافاً للمؤمنين، وإعلاءً لكلمة الله، ودحراً للطغيان، وتحطيماً لطواغيت الكفر، وردعاً للمشركين، وقد استشار النبي (ص) المسلمين قبل بدء المعركة: هل يقدم على القتال؟ أم يعود إلى المدينة؟

فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة] ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

ثم قال النبي (ص) «أشيروا عليّ أيها الناس»، فقام سعد بن معاذ زعيم الأنصار، وقال: يا رسول الله، آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك؛ فوالذي بعثك بالحق نبيّاً، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً؛ إنّا لصبرٌ في الحرب وصدق في اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرّ به عينك. وعندئذ أشرق وجه الرسول (ص) بالمسرّة، وقال لأصحابه سيروا وابشروا، فإن الله وعدني إحدى الحسنيين العير أو النفير، وقد فرّت العير فلم يبق إلا النفير؛ فسار المسلمون، وكلهم أمل في النصر وتأييد الله.

صور من معركة بدر

نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر، وهي الموقعة الفاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين، بل في تاريخ البشرية كلها إلى يوم الدين. الموقعة التي قدّر المسلمون أن تكون غايتها غنيمة أموال المشركين، وقدّر رب المسلمين أن تكون فاصلاً بين الحق والباطل، وأن تكون مفرق الطريق في تاريخ الإسلام، ثم تكون مفرق الطريق في خط سير التاريخ الإنساني العام، وفيها ظهرت الآماد البعيدة، بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير، وتدبير رب البشر لهم، ولو كرهوه في أول الأمر.

نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر، فتضمّنت الكثير من دستور السلم

والحرب، ودستور الغنائم والأسرى، ودستور المعاهدات والمواثيق؛ وتضمنت بعد ذلك، الكثير من دستور النصر والهزيمة، بتضمّنها لأسباب النصر والهزيمة، ولواجبات المجاهدين في الإعداد والاستعداد، ثم ترك الأمر بعد ذلك لله، وما النصر إلا من عند الله. ثم إنها تضمنت بعد ذلك، مشاهد من الموقعة ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة، وفي ثناياها وبعدها. مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة، وصورها وسماتها، كأن القارئ يراها. وإلى جوار المعركة استطراد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول (ص) وحياة أصحابه في مكة، حينما كانوا قليلاً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطّفهم الناس؛ وصور من حياة المشركين قبل هجرة الرسول (ص) من بين ظهرانيهم ومن بعدها؛ وأمثلة من مصائر الكافرين من قبل ـ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ـ والدأب معناه الصفة والشأن، أي إن شأن الكافرين واحد في تكذيب الرسل، واستحقاق العقاب؛ وبذلك تقرر السورة سُنّة الله، التي لا تتخلّف في نصر المؤمنين وهزيمة المكذبين.

الغنائم

لقد افتتحت السورة بالحديث عن الأنفال. وهي الغنائم التي يغنمها المسلمون في جهادهم لإعلاء كلمة الله. وقد ثار بين أهل بدر جدال حول تقسيمها بعد النصر في المعركة، فردهم الله إلى كلمته وحكمه فيها، ردهم إلى تقواه وطاعته، وطاعة رسوله، واستجاشَ فيهم وجدان التقوى والإيمان، ثم ذكّرهم بما أرادوا هم لأنفسهم من الغنيمة وما أراد الله لهم من النصر، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لهم ولا عدة، وأعداؤهم كثرة في الرجال والعتاد، وكيف ثبتهم الله سبحانه بمدد من الملائكة، وبالمطر يستقون منه، ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ في الرمال، وبالنعاس يغشاهم، فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان، ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم، وينزل بهم شديد العقاب. قال تعالى:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)﴾.

الحرب والسلام

تضمنت سورة الأنفال دراسة كاشفة وتصويراً ملموساً، للمواقف الناجحة والحروب الهادفة؛ كما رسمت السورة، مع سورة أخرى في القرآن الكريم، أسباب النصر في الميدان، ومن هذه الأسباب ما يأتي:

١ ـ إخلاص النية، والرغبة في الشهادة، وإيثار الآخرة على الدنيا، وتحمّل تبعات الحرب وآلام القتال.

٢ ـ الثبات في اللقاء، وتذكّر الله سبحانه في العسر واليسر، وعدم الفرار من الميدان، وبذل النفس والنفيس في سبيل الله.

٣ ـ إعداد العُدّة، وتجهيز أدوات القتال والتدريب عليها، مع وحدة الصف، وتماسك القوى، وترابط المقاتلين.

٤ ـ التوكل على الله، والالتجاء إليه بعد الأخذ في الأسباب، وطاعة القائد وتنفيذ الأوامر، والمحافظة على النظام وأخذ الحذر.

٥ ـ البعد عن التنازع والاختلاف في حال القتال وما يتعلق به، فإن النزاع والخلاف من أكبر الأسباب في إذهاب القوة وتمكين الأعداء: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الآية ٤٦].

أي لا تختلفوا، فإنّ الخلاف يؤدي الى الضعف والهزيمة، وضياع القوة والدولة.

٦ ـ عدم تصديق الخلافات والأراجيف، ومصاولة اليأس والقنوط، والقضاء على أساليب العدو وعلى الحرب النفسية التي يشنها، رغبة منه في تثبيط الهمم والتيئيس من النصر.

* * *

ثم يأمر الله المؤمنين في سورة الأنفال، أن يثبتوا في كل قتال، مهما خُيِّلَ إليهم في أول الأمر من قوة أعدائهم. فإن الله هو الذي يقتل، وهو الذي يرمي، وهو الذي يدبّر، وما هم إلا أسباب ظاهرة لتنفيذ إرادة الله.

وسخر القرآن من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم، فيقول:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الآية ١٩].

ويحذر المسلمين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين الذين يسمعون

بآذانهم، ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم، لأنهم لا يستجيبون ولا يهتدون.

ثم تدعو السورة إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ولو خُيِّل إليهم أن فيه القتل والموت، وتذكّرهم كيف كانوا قليلاً مستضعفين يخافون أن يتخطّفهم الناس، فأعزهم الله ونصرهم، وأنهم، إذا اتقوا الله جعل لهم فرقاناً من النصر الكامل، ذلك فوق تكفير السيئات وغفران الذنوب، وما ينتظرهم من فضل الله الذي تتضاءل دونه المغانم والأموال.

وكما وضعت سورة الأنفال صفحة في كتاب الإسلام عن الجهاد، فإنها قابلتها بصفحة أخرى عن السلم لمن يجنح إليه ويختار الهدنة. ويتّضح لنا من السورة، أن السلم هو القاعدة في الإسلام، أما الحرب فطارئة لدفع الباطل وإقرار الحق؛ ثم يدعو الإسلام إلى السلم دعوته إلى الجهاد، ويحافظ على العهد ما وفى به المعاهدون، ويؤمّن المخالفين للاسلام في العقيدة من كل اعتداء غادر، ويحصر الحروب في أضيق نطاق تقتضي به ضرورة تأمين السلم والحق والعدل.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١)﴾.

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح، تعبير لطيف، يلقي ظل الدعة الرقيق، فهي حركة جناح يميل إلى السلم، ويرخي ريشه في وداعة واطمئنان، فإذا الجوُّ من حوله طمأنينة وسلام.

وهناك حالة استثنائية واحدة، هي حالة جزيرة العرب، التي سيجيء في سورة براءة، نبذ عهود المشركين فيها جميعاً، وتخليصها من الشرك كافّة، لتكون موطناً خالصاً للاسلام.

صفات المؤمنين

تعرّضت سورة الأنفال لبيان صفات المؤمنين، كما ورد تحديد هذه الصفات في أول سورة «البقرة» وأول سورة «المؤمنون»، وفي سورة «الفرقان» وفي كثير من السور.

واذا استوعبنا هذه الآيات، وجدناها تدور حول تحديد المؤمن ـ الذي يريده الله ـ بمن يجمع بين سلامة العقيدة وسلامة الخلق، وصلاح العمل، وبمن يكون في ذلك كله، مثالاً صادقاً، وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته.

وقد وصف الله المؤمنين في سورة الأنفال بخمس صفات هي: وَجَلُ القلوب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته، والتوكل على الله وحده، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزق الله. ثم بيّن أنهم بهذه الصفات يكونون أهل الإيمان حقا، ويكون لهم عند الله درجات عالية في الجنة.

فالمؤمن حقاً يراقب مولاه، ويرجو رحمته، ويخشى عقابه، ويخشع عند تذكّر آياته؛ وهو في خشوعه وخضوعه وعبادته، مخلص القلب، ثابت اليقين.

ومن صفات المؤمن، زيادة إيمانه ورسوخ عقيدته عند تلاوة القرآن وتدبر آياته، ومعرفة أحكامه وأسراره؛ كما أن إقامته للصلاة وإداءه للزكاة، تقتضيان هذا الإيمان سلوكاً وتطبيقاً، ممّا يزيّن الإيمان في القلب ويزيده ثقة ويقيناً.

فالصلاة في حقيقتها، مناجاة، ومناداة، وخشوع، وخضوع، وقراءة، ودعاء. ومن ثمرتها، طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر، وتهذيب الغرائز، وتقويم السلوك، وتربية الضمير. والزكاة فيها تكافل المجتمع، وترابط الأغنياء والفقراء.

وفي سورة الأنفال، حثٌ على الإنفاق من كل ما رزق الله، وهو يشمل، كما فصّل الفقهاء، زكاة الأموال، وزكاة الزروع والثمار، وزكاة الماشية، وزكاة الرِّكاز وكل ما يستخرج من باطن الأرض، وزكاة التجارة. ولا نكاد نجد آية عرضت للصلاة، إلا وتذكر الإنفاق في سبيل الله. كما أنا لا نكاد نجد آية تعرضت لأوصاف المؤمنين، وتهملهما أو تهمل أحدهما.

فقد جعل الله إقامة الصلاة، مثالاً لبذل النفس في سبيله، وجعل الإنفاق مثالاً لبذل المال في سبيله.

وبذلك يتّسم الإيمان بطابع تهذيب النفس وطهارة القلب، كما يتّسم بأنه دافع عملي إلى السلوك النافع، والعمل الصالح الذي يؤدي إلى إصلاح المجتمع، وتماسك الأمة، وتقوية روابط المودة والرحمة والألفة بين الناس.

نداءات إلهية للمؤمنين

أخذت سورة الأنفال تنادي المؤمنين ست مرات بوصف الإيمان. في النداء الأول: تأمرهم بالثبات في الميدان، والشجاعة في القتال؛ وتنهاهم عن الفرار من المعركة، وتتوعد الفارَّ من

ميدان القتال بعذاب السعير، وغضب الله العليّ القدير. والنداء الثاني: يشتمل على الأمر بطاعة الله ورسوله؛ وقد امتثل المسلمون لذلك الأمر فانقادوا لأحكام الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيله سبحانه. وهذا الطريق هو طريق النصر للسابقين واللاحقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الآية ٢٠].

والنداء الثالث: الاستجابة لله وللرسول، وتغليب أمرهما على كل ماسواهما، من أوامر، وفي الحديث الشريف:

«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إليهِ مِمّا سِواهُما، وَأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ للهِ، وَأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النّار».

النداء الرابع: دعوة إلى ترك الخيانة، والبعد عن إفشاء أسرار الأمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

النداء الخامس: دعوى إلى تقوى الله في أحكامه وسننه، وبيان أن التقوى شجرة مثمرة، وأعظم ثمارها النور الذي يبصّر صاحبه بالحق، والعدل، وطريق الصلاح والهدى.

النداء السادس: يأمر بذكر الله، وتلاوة كتابه، وينهى عن الفرقة والتنازع والاختلاف، ويحث على الصبر والتمسّك بالوحدة والجماعة، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «الأنفال»(*)

تاريخ نزول السورة ووجه تسميتها

نزلت سورة الأنفال بعد سورة البقرة، وكان نزولها بعد غزوة بدر، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فتكون سورة الأنفال من السُّوَر التي نزلت بين غزوة بدر وصلح الحديبية.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ والأنفال هي الغنائم، وتبلغ آياتها خمساً وسبعين آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر لتشرح وقائعها، وتستخلص وجوه العبر منها، وكانوا قد تنازعوا بعدها في قسمة الأنفال، لأن النبي (ص) قسم على من حضرها وبعض من لم يحضرها، فأعطى ممن لم يحضرها عثمان بن عفان، لأنه تركه على ابنته رُقيّة زوجه وكانت مريضة، وأعطى طلحة بن عُبيد الله وسعيد بن زيد، وكان قد بعثهما للتجسس على العير، وثلاثتهم من المهاجرين، وكذلك أعطى خمسة من الأنصار، وقيل إن من باشر القتال فقتل وأسر نازع من كان يقف مع النبي (ص)، فقال الأولون: الغنائم لنا لأننا قتلنا وهزمنا. وقال الآخرون كنا ردءاً لكم، ولو انهزمتم

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا.

فسألوا النبي (ص) عن حكمها، فنزلت هذه السورة تجيبهم في أولها بأن قسمة الأنفال لله ورسوله، لأن الله هو الذي نصرهم ومكّنهم منها، فدبّر لهم ما دبّر في هذه الغزوة، وأمدّهم بما أمدّهم به من الملائكة، إلى غير هذا ممّا ذكره في هذا السياق؛ ثم تجيبهم بعد هذا ببيان مصرف الأنفال، وقد فصلت في هذا قسمتها، وبيّن السياق أنّ خمسها لله وللرسول ولذي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأيد حقهم في خمسها بمثل ما أيد به حق الله والرسول في قسمتها، ومضى السياق في هذا إلى آخر السورة.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة «الأعراف»، لأن فيها تحقيق ما أنذر به المشركون في هذه السورة، ولأنها تعدّ هي وسورة التوبة، كسورة واحدة متممة للسبع الطوال.

تفويض قسمة الأنفال لله والرسول
الآيات (١ ـ ٤٠)

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)﴾ فذكر جلّ وعلا أن قسمة الأنفال من حقه وحق رسوله، وأمرهم أن يتقوه ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا ما يؤمرون به، إن كانوا مؤمنين، لأن المؤمنين هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم.

ثم ذكر سبحانه أنه لا يفعل في تقسيم الأنفال إلا ما فيه مصلحتهم، وإن خفيت عليهم. كما أخرجه من بيته يوم بدر بوعده الحق من النصر على المشركين، وإنّ فريقاً منهم لكارهون لقتالهم، ثم ذكر إذ يعدهم إحدى الطائفتين وهي النفير أنّها لهم، وأنهم ودُّوا أن غير ذات الشوكة وهي العير تكون لهم، وأنه يريد أن يحق الحق بتسليطهم على ذات النفير، وأن يقطع دابر الكافرين.

ثم ذكر إذ يستغيثونه فأمدّهم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفين، وأنه لم يجعل هذا الإمداد إلا بشرى لهم، ولتطمئن به قلوبهم، وما النصر إلا من عنده وحده سبحانه، وليس بالملائكة ولا بغيرهم،

ثم ذكر إذ يُغشّيهم النوم ليحصل لهم به الأمن، وما أنزل عليهم من المطر ليطهِّرَهم به ويذهب عنهم وسوسة الشيطان، وكان المشركون قد سبقوا إلى الماء وغلبوا عليه، وطمعوا أن تكون لهم الغلبة به، وقد عطش المؤمنون وخافوا، وأعوزهم الماء للشرب والطهارة.

ثم ذكر إذ يوحي إلى الملائكة أنه معهم، وأمره لهم بتثبيت المؤمنين، وإخباره لهم بأنه سيلقي الرعب في قلوب المشركين، وأمره لهم بأن يضربوهم فوق الأعناق ويضربوا منهم كل بَنَانٍ، لأنهم شاقُّوا الله ورسوله، والله شديد العقاب، فليذوقوا هذا العذاب في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار، ثم ذكر نهيه للمؤمنين أن يولُّوهم الأدبار عند لقائهم، ووعيده لمن يفعل هذا منهم.

ثم ذكر أنه مع هذا لا يكون المؤمنون هم الذين قتلوهم، ولكنه هو الذي قتلهم بتدبيره لهم، وقد أراد ذلك ليُبلي المؤمنين بلاء حسناً على ما أصابهم من المشركين قبل هذه الغزوة، ويوهِنَ كيدهم بمن قُتِلَ من صناديدهم، ثم ذكر للمشركين أنهم إن يستنصروا بآلهتهم فقد جاءهم استنصارهم بنصر المؤمنين عليهم، وإن ينتهوا عن القتال فهو خير لهم، وإن يعودوا إليه يَعدْ إليهم بمثل ذلك النصر، ولن تغني عنهم فئتهم شيئاً ولو كَثُرَت.

ثم أخذ السياق في وعظهم بما يناسب مقام هذه الوقائع، فأمرهم سبحانه أن يستجيبوا له ولرسوله، ولا يتنازعوا فيما يدعوهم إليه، كما تنازعوا في تقسيم الأنفال، وفي دعوتهم إلى القتال، ثم حَذَّرَهم أن يصيبهم بالخلاف والتنازع فتنة تعمُّ الظالم وغيره منهم، وأمرهم أن يذكروا وهم قليل مُسْتَضْعَفُون بمكة، فآواهم في المدينة ونصرهم بفضل طاعتهم، وإذعانهم له ولرسوله.

ثم نهاهم أن يخونوا الله ورسوله بالتَّجَسُّسِ للأعداء وغيره، وأمرهم أن يعلموا أن أموالهم وأولادهم فتنة لهم، فلا يقاتلوا لأجل الغنائم، ولا يفتتنوا بها، كما افتتنوا في غنائم بدر، ثم ذكر لهم أنهم إن يتقوه ينصرهم على الكفار، ويغفر لهم ما حصل منهم.

ثُمَّ ذكر ما كان من مكْر المشركين

بالنبي (ص) في ليلة الهجرة، وأنه سبحانه مكر بهم فدبّر أمره حتى نجّاهُ منهم. وأنهم كانوا إذا تتْلى عليهم آياته في إنذارهم ووعيدهم، لم يؤمنوا بها، وسألوه أن يمطرهم حجارة من السماء، أو يأتيهم بعذاب أليم إن كانت من عنده، وأنه ما كان لِيعذّبهم والنبي معهم في مكة، وهم يستغفرونه، ويتوبون إليه، واحداً بعد واحد.

ثم ذكر أنهم يستحقون ما طلبوه من العذاب، لأنهم يَصُدّونَ عن المسجد الحرام، ولم تكن صلاتهم فيه إلا صفيراً وتصفيقاً، ثم ذكر أنه أذاقهم ما طلبوه من العذاب يوم بدر، وأنهم سيغلبون بعد هذا، ثم يحشرون إلى جهنّم، فيذوقون عذابها بعد عذاب الدنيا، ثم أمر النبي (ص) أن يذكر لهم، أنهم إن ينتهوا عن كفرهم يغفر لهم ما سلف منهم، وإن يعودوا إلى القتال فسيصيبهم ما أصاب أمم الكفر قبلهم؛ وأمر المؤمنين أن يستمرّوا في قتالهم حتى لا يفتنوهم في دينهم، ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا عن الكفر والقتال فإن الله بما يعلمون بصير ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

مصرف الأنفال
الآيات (٤١ ـ ٧٥)

ثم قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الآية ٤١]، فذكر أن خمس الأنفال يصرف لمن ذكرهم، والباقي، وهو أربعة أخماسها، يصرف للغانمين؛ ثم أيد حقه وحق المذكورين في الخمس، بأنه جلّ وعلا الذي أنزل النصر يوم بدر، وقد نزلوا بالعُدْوَةِ الدُّنيا بعيدين عن الماء، ونزل المشركون بالعدوة القصوى قريبين منه، ولو تواعد الفريقان على القتال لاختلفوا في الميعاد، لقلّة المسلمين وكثرة المشركين، ولكنّ الله جمع بينهم على هذا الحال ليكون النصر معجزة من المعجزات ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الآية ٤٢] ثم أيده أيضاً بأنه الذي أراهم للنبي (ص) في منامه قليلاً ليقدموا على قتالهم، ثم قلّلهمْ في أعين المؤمنين بعد التقائهم بهم لتقوى قلوبهم، ثم ذكر ما كان من أمره لهم أن يثبتوا ويستعينوا به ويطيعوا رسوله، وما كان من نهيه لهم أن يتنازعوا ويخرجوا كالمشركين بطراً

ورئاء الناس، وقد غرّهم الشيطان وأخبرهم بأنه جار لهم، فلما تراءت الفئتان للقتال فرّ منهم، لأنه رأى مالم يروه من مدد الملائكة للمؤمنين؛ ثم ذكر ما كان من استحقار المنافقين واليهود، لقلّة عددهم ورميهم لهم بالغرور لخروجهم بهذا العدد القليل، مع أن من يتوكل على الله ينصره ولو كان قليل العدد، ثم ذكر ما كان من الملائكة الذين سلّطهم على المشركين يَتَوَفَّوْنَهُمْ ويضربون وجوههم وأدبارهم، ويأمرونهم أن يذوقوا عذاب الحريق بما قدمت أيديهم؛ ثم ذكر أنه أخذهم بهذا أخذ آل فرعون والذين كفروا من قبلهم بذنوبهم، لأنه لا يُغَيِّرُ نعمةَ أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

ثم ذكر أن أولئك المنافقين واليهود الذين رموا المؤمنين بالغرور لقلة عددهم شر الدوَابّ عنده، لجهلهم ونقضهم عهودهم عهداً بعد عهد؛ ثم أمر النبي (ص) إذا وجدهم في الحرب، أن يفعل بهم ما يشرد به من خلفهم من أعدائه، وإذا خاف منهم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم نَبْذاً ظاهراً، بألاّ يبادرهم بالحرب قبل علمهم بنبذ العهد.

ثم أوعد الكفار جميعاً، بأنه لا يعجزه أن يصيبهم بمثل ما أصابهم يوم بدر، وأمر المؤمنين أن يعدّوا لقتالهم ما استطاعوا من آلات الحرب ليرهبوهم بذلك، ويرهبوا من يبطن لهم العداوة من المنافقين واليهود، ثم أمره إذا جنحوا بعد ذلك للسلم أن يجنح لها؛ وذكر أنهم إن يريدوا خداعه بها فإنه هو حسبه، وهو الذي أيّده بنصره وبالمؤمنين، ثم أمره أن يحرّضهم دائماً على القتال، ووعدهم بأنهم إن يكن منهم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منهم مائة صابرة تغلب ألفاً، ثم خَففَ عنهم وأمرهم أن يثبتوا المائة منهم لمائتين، والألف لألفين.

ثم عاتب النبي (ص) والمسلمين على اتخاذهم الأسرى في غزوة بدر، لأنه لا يصح له اتخاذ الأسرى من الكفار إلا بعد أن يثخن فيهم بالقتل، ليضعف جمعهم، ويقلّ عددهم؛ ثم ذكر أنهم آثروا الأسر طمعاً في الفداء، ولولا أنه لا يعذب إلاّ بعد الإنذار لمسّهم فيما أخذوا عذاب عظيم؛ ثم أباح لهم بأن يأكلوا ممّا أخذوه من الفداء، لئلاّ يفهموا من ذلك أنه محرّم عليهم؛ ثم أمره أن يذكر لمن قاتل مع

المشركين من مسلمي مكة وأسر معهم، أنه إن يعلم في قلوبهم خيراً يؤتهم خيراً ممّا أخذ منهم، وأنهم إن يريدوا خيانته بعد إطلاقهم فقد خانوه من قبل فأمكن منهم؛ ثمّ رغّبهم في الهجرة، فجعل ولاية الإسلام للمهاجرين والأنصار، وقطع الولاية بين من هاجر ومن لم يهاجر منهم، وأجاز للمهاجرين والأنصار إن استنصروهم أن ينصروهم إلا على من عاهدوهم من المشركين؛ وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض، فلا يصح للمسلمين أن يوالوهم ويقاتلوا معهم؛ وذكر أن المهاجرين والأنصار، هم المؤمنون حقّاً لا غيرهم ممّن لم يهاجر، وأن الذين آمنوا من بعد ذلك وهاجروا، فهم من المؤمنين حقّاً أيضاً؛ ثم أبطل الإرث بسبب الهجرة والنصرة، وجعله لذوي القرابة، فقال جلّ شأنه ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الآية ٧٥].

أسرار ترتيب سورة «الأنفال»(*)

إعلم أن وضع هذه السورة وبراءة هنا، ليس بتوقيف من الرسول (ص) والصحابة، كما هو الراجح في سائر السور، بل اجتهاد من عثمان رضي الله عنه.

وقد كان يظهر في بادئ الرأي: أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود، لاشتراك كل منها في اشتمالها على قصص الأنبياء، وأنها مكية النزول، خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطوال، وعدّوا السابعة يونس، وكانت تسمّى بذلك، كما أخرجه البيهقي في الدلائل[1]. ففي فصلها من الأعراف، بسورتين هما الأنفال وبراءة، فصل للنظير عن سائر نظائره، هذا مع قصر سورة الأنفال، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة.

وقد استشكل ابن عباس حَبْر الأمة قديماً ذلك. فأخرج أحمد وأبو داود والتّرمذي والنّسائي وابن حِبّان والحاكم، عن ابن عباس، قال، قلت لعثمان: ما حَمَلَكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني[2]، وإلى براءة وهي من المئين[3]، فقرنتم بينهما، ولم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) السبع الطوال كما أخرج النسائي: ١/ ١١٤ عن ابن عباس: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والانعام، والأعراف. وأورد السيوطي نقلا عن ابن أبي حاتم وغيره عن سعيد بن جبير: أن السابعة يونس(الاتقان: ١/ ٢٢٠).

(٢) المثاني: إما أنها من الثناء. أو فيها الثناء والدعاء. أو لأنها تثنى بغيرها. (الاتقان: ١/ ١٩٠) وقيل: لانها ثانية للمئين، تالية لها وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالعبر. حكاه السيوطي عن النّكزاوي (الاتقان: ١/ ٢٢٠).

(٣) المئين: ما زادت آياتها على المائة أو قاربتها، وهي ما وليت الطول (الإتقان: ١/ ٢٢٠).

تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله (ص) ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصّتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله (ص) ولم يبيّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم[1]، ووضعتها في السبع الطوال[2].

فانظر إلى ابن عباس رضي الله عنه، كيف استشكل على عثمان رضي الله عنه أمرين: وضع «الأنفال» و«براءة» في أثناء السبع الطوال، مفصولاً بهما بين السادسة والسابعة، ووضع الأنفال وهي قصيرة مع السور الطويلة. وانظر كيف أجاب عثمان رضي الله عنه، أولاً بأنه لم يكن عنده في ذلك توقيف، فإنه استند إلى اجتهاد، وأنه قرن بين «الأنفال» و«براءة» لكونها شبيهة بقصتها في اشتمال كل منهما على القتال، ونبذ العهود، وهذا وجه بيّن المناسبة جليّ، فرضي الله عن الصحابة، ما أدقّ أفهامهم! وأجزل آراءهم! وأعظم أحلامهم!

وأقول: يتم بيان مقصد عثمان رضي الله عنه في ذلك بأمور فتح الله بها:

الأول: أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها، لكونها مشتملة على البسملة، فقدّمها لتكون لفظة منها، وتكون «براءة» بخلوّها من البسملة كتتمتّها وبقيّتها، ولهذا قال جماعة من السلف: إن «الأنفال» و«براءة» سورة

---

(١) قال الباقلاني: إنّما لم تكتب البسملة أول براءة، لأن النبي (ص) أراد أن يعلم من بعده أن كاتبي فواتح السور لم يكتبوها برأيهم، وإنّما اتبعوا ما سنّ وشرع، وإلاّ فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طرق الرأي. وأيضاً فإن براءة نزلت بالسيف وبعض العهود، وفي البسملة رأفة ورحمة وأمان، فتركت لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن: ٧٧، ٧٨).

(٢) أخرجه احمد في المسند: ١/ ٥٧ وأبو داود في الصلاة: ١/ ٢٠٨، والترمذي في التفسير: ٨/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٣٠, وانظر الدر المنثور: ٢/ ٢٠٧، وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة والنسائي، ولم أجده في النسائي.

واحدة، لا سورتان[١]. الثاني: أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطول، فإنه ليس في القرآن بعد الأعراف أنسب لـ «يونس» منها، وذلك كاف في المناسبة.

الثالث: أنه خلّل بالسورتين (الأنفال وبراءة) أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف، وإلى أن رسول الله (ص) قبض قبل أن يبيّن محلهما، فوضعا كالموضع المستعار بين السبع الطوال، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال، فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوهم[٢].

فانظر إلى هذه الدقيقة التي فتح الله بها، ولا يغوص عليها إلاّ غوّاص.

الرابع: أنه لو أخّرهما وقدّم «يونس»، وأتى بعد «براءة» بـ «هود»، كما في مصحف أُبيّ بن كعب، لمراعاة مناسبة السبع الطوال، وإيلاء بعضها بعضاً، لفات مع ما أشرنا إليه أمرٌ آخَرُ آكَدُ في المناسبة. فإنّ الأولى بسورة يونس أن تولّى بالسور الخمس التي بعدها، لما اشتركت فيه من الاشتمال على القصص، ومن الافتتاح بالذكر، وبذكر الكتاب، ومن كونها مكّيات، ومن تناسب ـ ما عدا «الحجر» في المقدار ـ وبالتسمية باسم نبي، و«الرعد» اسم[٣] ملك، وهو مناسب لأسماء الأنبياء.

فهذه ستة وجوه في مناسبة الاتصال بين «يونس» وما بعدها، وهي آكد من ذلك الوجه السابق في تقديم «يونس» بعد «الأعراف».

ولبعض هذه الأمور، قُدّمت «سورة الحجر» على «النحل»، مع كونها أقصر منها، ولو أخرت «براءة» عن هذه السور الست المناسبة جدا بطولها، لجاءت بعد عشر سور أقصر منها، بخلاف وضع «سورة النحل» بعد

---

(١) أخرجه أبو الشيخ عن لبي روق، وابن أبي حاتم عن سفيان، وابن اشتة عن ابن لهيعة (الاتقان: ١/ ٢٢٥).

(٢) أي: وَهِمَ أن يكون وَضْعَهُما بين السبع الطوال بتوقيف. وقد جاء ترتيب السبع الطوال متواليات.

(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس: ٨/ ١٤٥ أن اليهود قالوا للنبي (ص): أخبرنا عن الرعد. فقال: «مَلَكٌ من الملائكة موكل بالسحاب». وذكر السيوطي في الاتقان: ٤/ ٧٩: أن ابن أبي حاتم أخرجه عن عكرمة، وأن مجاهداً سئل عن الرعد، فقال: ملك. ألم تر الله يقول ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد/ ١٣].

«الحجر»، فإنها ليست كـ «براءة» في الطول.

ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم «الحجر» على «النحل»، لمناسبة ذوات (الر) قبلها، وما تقدم من تقديم «آل عمران» على «النساء»، وإن كانت أقصر منها لمناسبة «البقرة»، مع الافتتاح بـ (الم)، وتوالي الطواسين والحواميم، وتوالي «العنكبوت» و«الروم» و«القمر» و«السجدة»، لافتتاح كلّ منها بـ (الم)، ولهذا قدّمت «السجدة» على الأحزاب، التي هي أطول منها.

هذا ما فتح الله به.

وأما ابن مسعود، فقدّم في مصحفه «البقرة» على «النساء»، و«آل عمران»، و«الأعراف»، و«الأنعام»، و«المائدة»، و«يونس»، فراعى الطوال، وقدم الأطول فالأطول. ثم ثنّى بالمئين، فقدّم «براءة»، ثم «النحل»، ثم «هود»، ثم «يوسف»، ثم «الكهف». وهكذا الأطول فالأطول، وذكر «الأنفال» بعد «النور»[(١)].

ووجه مناسبتها لها: أنّ كلاًّ منهما مدنية، ومشتملة على أحكام، وأن في «النور» ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور/٥٥]. وفي الأنفال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ﴾ [الآية ٢٦]. ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل، وفي الثانية تذكير به.

(١) انظر الاتقان: ١/ ٢٢٤ نقلا عن ابن أشتة في المصاحف، من رواية جرير بن عبد الحميد.

مكنونات سورة «الأنفال»(*)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الآية ١].

سُمِّيَ من السائلين: سعد بنُ أبي وَقّاص. كما أخرجه أحمدُ وغيره[١].

وأخرج ابنُ أبي حاتم من طريق ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: أن السّائلين قرابة النبي (ص).

٢ - ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

سُمِّيَ منهم: أبو أيوب الأنصاري.

ومن الفريق الذين لم يَكْرهوا: المقداد. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم وابنُ مَرْدُوْيه من حديث أبي أيوب.

٣ - ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ [الآية ٧].

هما: أبو سفيان، وأصحابه، وأبو جهل وأصحابُه؛ وهي ذات الشوكة[٢].

٤ - ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ [الآية ١٩].

أخرج الحاكم[٣] عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير[٤]، قال: كان المستفتح

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أحمد برقم (١٥٣٨)، والطبري (١٥٦٥٧) = ٩/١١٧، وأبو داود (٢٧٤٠) والترمذي(٣٠٨٠) والحاكم ٢/ ١٣٢، والبيهقي في «السنن الكبرى» ٦/ ٢٩١.

قال الترمذي: حسن صحيح. وقال أحمد شاكر في «شرح المسند» وتعليقه على «الطبري»: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري عن قتادة ٩/ ١٢٥.

(٣) في «المستدرك» ٢/ ٣٢٨، والطبري في «تفسيره» ٩/ ١٣٨. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) في «المستدرك»: «ابن أبي صعير». والوجهان جائزان كما في «الإصابة».

أبو جهل؛ وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن عروة بن الزبير وعطية.

٥ ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ [الآية ٢٢].

قال ابنُ عباس: هم نَفَرٌ من بني عبد الدّار. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[(١)].

٦ ـ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ٣٠].

سُمِّيَ منهم ـ وهم المجتمعون في دار النَّدْوة: عُتْبَة، وشَيْبَة ابنا ربيعة، وأبو سفيان، وطعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، وأبو جهل، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج[(٢)].

٧ ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الآية ٣١].

قاله: النَّضر بنُ الحارث: أخرجه ابن جرير وغيره، عن سعيد بن جبير[(٣)].

٨ ـ قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [الآية ٣٢].

وقال ذلك: أبو جهل؛ كما أخرجه البخاري عن أنس.

وأخرجه ابن أبي حاتم، عن طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنَّ قائل ذلك: النَّضرُ بن الحارث[(٤)].

وأخرجَ عن قَتادة قال: قال ذلك سَفِلةُ هذهِ الأُمَّةِ، وجَهلتُها.

٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٦].

قال الحَكَم بن عُتَيْبَة[(٥)]: نزلت في أبي سفيان. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وأخرج ابنُ إسحاق عن مشايخه: أنها نزلت في أبي سفيان، ومن كان له في العير من قريش تجارةٌ.

١٠ ـ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الآية ٤١].

---

(١) والبخاري في «صحيحه» برقم (٤٦٤٦) في التفسير، والطبري ٩/ ١٤٠.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٤٨١.

(٣) في «صحيحه» (٤٦٤٨) في التفسير.

(٤) رواه الطبري ٩/ ١٥٢ عن سعيد بن جبير.

(٥) «تهذيب التهذيب» ٢/ ٤٣٢، و«أسباب النزول» للواحدي ط صقر: ٢٣٤.

قال ابنُ عباس: هو يوم بدر، فَرَق الله فيه بين الحقّ والباطل.

أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

١١ - ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الآية ٤٢].

قال عَبَّاد بن عبد الله بنِ الزُّبَيْر: يعني أبا سُفْيان، وأصحابه؛ نحو الساحل. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

١٢ - ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الآية ٤٨].

عَنَى سُراقة بن مالك بن جُعشم. أخرجه ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس.

١٣ - ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الآية ٤٨].

قال ابنُ عباس: رأى جبريل، والملائكة. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

١٤ - ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الآية ٤٩].

سُمِّيَ من القائلين: عُتْبَة بن ربيعة؛ في حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة[(١)].

وسَمَّى منهم مُجاهد خمسة: (أبا)[(٢)] قَيْس بنَ الوليد بنِ المغيرة، وأبا قَيْس ابنَ الفاكهِ بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعليّ بن أُمية بنِ خلف، والعاصي بن مُنَبِّه. أخرجه ابن جرير[(٣)].

١٥ - ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الآية ٥٨].

قال ابن شهاب: نزلت في بني قريظة. أخرجه أبو الشيخ.

١٦ - ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الآية ٦٠].

ورد في حديث مرفوع: أنهم الجِنّ. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[(٤)].

وقال مجاهد: قُرَيْظة[(٥)].

---

(١) قال الهيثمي: فيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف. «مجمع الزوائد» ٦/ ٧٨.

(٢) زيادة من «الطبري» وهي مثبتة في «جمهرة النسب» لابن الكلبي ١/ ١٢٦.

(٣) «تفسير الطبري» الأثر رقم: (١٦١٩٥)= ١٠/ ١٦؛ جمهرة النسب ١/ ١٢٠.

(٤) ومُسَدَّد بن مُسَرْهَد في «مسنده»، كما في «المطالب العالية» ٣/ ٣٣٥؛ ورواه الطَّبراني، وفي إسناده مجاهيل. «مجمع الزوائد» ٧/ ٢٧.

(٥) الطبري ١٠/ ٢٢.

وقال السُّدِّي: أهْلُ فارِس[١].

وقال ابنُ اليَمَان: الشياطين التي في الدّور.

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم[٢].

١٧ - ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

نزلت لما أسلم معه (ص) أربعون؛ آخرهم عمر. كما أخرجه الطَّبَراني وغيره.

وقال الزُّهري: يُقال: نزلت في الأنصار. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

١٨ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الآية ٧٠].

سُمِّي منهم: العبّاس، وعَقيل، ونوفل بن الحارث، وسهيل بن بيضاء[٣].

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» ١٠/ ٢٣: «قول مَنْ قال عنى به الجن أقرب وأشبه بالصواب».

(٢) وفي سنده: إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب: قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٢٨.

(٣) أخرج ذلك: الحاكم وصحّحه، والبيهقي في «سننه» عن عائشة. كما في «الدر المنثور» ٣/ ٢٠٤، ووقع فيه: «عتبة بن عمر» بدل «سهيل بن بيضاء»، وفي «الإتقان ٢/ ١٥٠ : «سهل» بدل «سهيل»، وفي رواية ابن إسحاق في «السيرة»: «عمرو» بدل «عمر». وقد ساق ابن هشام في «السيرة النبوية» ٢/ ٣ ـ ٨ أسماء ستة وستين رجلاً، كانوا أسرى عند المسلمين يوم بدر.

لغة التنزيل في سورة «الأنفال»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الآية ١].

الأنفال: جمع نَفَل وهو الغنيمة، وإنّما سألوا عنها لأنها كانت حراماً على من كان قبلهم، فأحلّها الله لهم.

وقيل أيضاً: إنه (ص) نفّل في السرايا، فكرهوا ذلك في تأويله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ كذلك تنفّل مَنْ رأيتَ، وإن كرهوا، وكان سيدنا رسول الله (ص) جعل لكل من أتى بأسيرٍ شيئاً، فقال بعض الصحابة: يبقى آخر الناس بغير شيء.

قال الأزهري: وجِماع معنى النَفَلِ والنافلة، ما كان زيادة على الأصل.

وسمّيت الغنائم أنفالاً، لأنّ المسلمين فُضّلوا بها على سائر الأمم، الذين لم تَحِلّ لهم الغنائم.

وصلاة التطوّع نافلة، لأنها زيادة أجر لهم، على ما كتب لهم من ثواب ما فرض عليهم.

ونفل النبي (ص) السرايا في البَدْأةِ الرُّبع، وفي القفلة الثُلُث، تفضيلاً لهم على غيرهم من أهل العسكر، بما عانوا من أمر العدوّ، وقاسوه من الدأب والتعب، وباشروه من القتال والخوف.

وكل عطيّةٍ تبرّع بها معطيها، من صدقةٍ أو عمل خير، نافلة.

والنَّفَلُ: الهبة والعطيّة في التطوّع.

وتنفّل فلان على أصحابه: إذا أخذ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لابراهيم السّامرّائي، مؤسسة الرسالة العربية، بيروت، غير مؤرخ.

أكثر مما أخذوا، عند الغنيمة.

ونفّلتُ فلاناً على فلانٍ: فضّلتُهُ.

والنَّفَلُ والنافِلَةُ: ما يفعله الإنسان، ممّا لا يجب عليه.

أقول: وهذه من الموادّ القديمة التي اكتسبت في حياتهم معاني محددة، فكانت من رسومهم ومصطلحهم.

على أننا لا نجد الآن من هذه الذخيرة اللغوية، إلا قول المعاصرين: «ومن نافلة القول»، يريدون بها الزيادة غير الواجبة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الآية ٧].

الطائفتان هما العِيرُ والنَّفِيرُ.

والنفير نفير قريش، الذين كانوا نفروا إلى بدرٍ، ليمنعوا عِيرَ أبي سفيان.

ويقال: فلان لا في العير ولا في النفير، قيل هذا المثل لقريش من بين العرب، وذلك أن النبي (ص) لمّا هاجر إلى المدينة ونهض منها لتلقّي عير قريش، سمع مشركو قريش بذلك، فنهضوا ولقوه ببدر، لِيَأْمَنَ عيرهم المقبل من الشام مع أبي سفيان، فكان من أمرهم ما كان، ولم يكن تَخَلَّفَ عن العير والقتال إلا زمِنٌ أو من لا خير فيه، فكانوا يقولون لمن لا يستصلحونه لمهمٍّ: فلان لا في العير ولا في النفير، فالعير ما كان منهم مع أبي سفيان، والنفير ما كان منهم مع عتبة بن ربيعة قائدهم يوم بدر.

و﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، هي العير لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً و«الشوكة» كانت في النفير لعددهم وعُدّتهم.

والشّوكة: الحِدّة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال: شَوْك القَنا لشَباها.

ومنها قولهم: شائك السلاح؛ أي: تَتَمنّون أن تكون لكم العِير.

أقول: وأصل الشوكة كما قلنا واحدة الشوك، ولحدّتها وما تؤذي من الأذى، أطلقت على القوة والسلاح، وهكذا كانت مواد العربية البدوية مصدراً، أمدّ العربية بموادّ كثيرة من اللغة العالية، ومنها مواد الحضارة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٣﴾.

والمُشاقّةُ والشِّقاق، غَلَبة العداوة

والخلاف، وشاقَّه يشاقُّه مُشاقَّةً وشِقاقاً: خالفه.

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج].

الشِّقاق: العداوة بين فريقين، والخلاف بين اثنين؛ سُمِّي ذلك شِقاقاً، لأنَّ كلَّ فريق من فريقي العداوة قَصَد شِقّاً، أي ناحيةً غير شِقِّ صاحبه.

أقول: والكثير ممّا جاء على «فاعَلَ» من المضاعف أن يدغم في الماضي والمضارع، غير أن الفعل في الآية قد قُرِئ بفكّ الإدغام، وحُرِّك بالكسر لسكون اللام بعده، وذلك خير من إبقاء الإدغام، وتحريكه بكسر أو فتح لوقوع الساكن بعده، ولولا هذا لكان الإدغام واجباً، وهذا شيء من لطائف هذه اللغة الشريفة، على أن العربية تجيز إبقاء الإدغام في مثل هذه الحال، وسيأتي شيء من هذا.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٦].

المراد بقوله تعالى: ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ هو الكرُّ بَعْدَ الفرّ، يخيِّل الى عدوّه أنه منهزم، ثم يعطِفُ عليه. وهو باب من خُدَع الحرب ومكايدها.

أقول: و«التّحرُّف» بهذه الخصوصية المعنوية من الكلم المفيد، الذي ينبغي أن يصار إليه في مثل هذه الأحوال والظروف في عصرنا؛ فهو من الكلم الخاص، الذي يخص ظرفاً خاصاً، كما يخصّ جماعة المعنيين بالقتال.

وطبيعي أن «التحرُّف» من معنى الميْل، والعدول إلى جهة ما.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾، أي: منحازاً إلى جماعة أخرى من المسلمين، سوى الفئة التي هو فيها.

والتحوُّز والتحيُّز سواء وهو التَّنحِّي.

أقول: و«التّحيّز» في عربيتنا المعاصرة هو الميل إلى جهة ما، وهي في الكثير الجهة السائرة في طريق الباطل وغير الحق، فإذا قيل: فلان متحيِّز فكأنهم قالوا: فلان جائر يميل مع الباطل.

وأما التحوُّز فلا نعرفه في العربية المعاصرة.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الآية ٣٠].

المراد بقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليَسْجُنوكَ أو يُوثِقوكَ أو يُثْخِنُوكَ بالضرب والجَرْح، من قولهم: ضَرَبوه حتى أثبَتوه لا حَراكَ به ولا بَراح، وفلان مُثْبَتٌ وَجَعاً، وقُرِئ: «ليُثَبّتوكَ»، بالتشديد.

وقَرَأ النَخَعي: ليُبيتوك من البيات.

وعن ابن عباس: ليُقيِّدوك، وهو دليل لمن فسّره بالإيثاق.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾.

و﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ما سطَره الأوّلون من الأمم السالفة، أي: ما كتبوه.

ولمّا كانت كتابات هؤلاء وما سطروه وما خلفوه من رموز كذباً، أطلقت «الأساطير» على الأباطيل والأكاذيب.

وقد جاء ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في تسع آيات مختلفات بهذا المعنى.

وقال أهل اللغة: الأساطير واحدتها إسطارٌ وإسطارة بالكسر، وأسطير وأسطيرة وأسطور وأسطورة بالضم.

وقالوا أيضاً الأساطير جمع الأسطورة كالأحاديث جمع الأحدوثة.

وقال آخرون: الأساطير جمع أسطار، وأسطار جمع سطر، فكأنه جمع الجمع.

ومنهم من قال: الأساطير لا واحد لها.

أقول: ومن العجيب أننا لم نقف إلا على «الأساطير» بلفظ الجمع، فلم نجد الأسطور ولا الأسطورة، ولا الأسطير، ولا الأسطيرة، ولا الإسطارة.

وعندي أن هذه المواد استحدثت بعد أن رأى اللغويون الكلمة مجموعة «أساطير»، فذهبوا إلى هذه المواد المفترضة، قياساً على نظائره، فالذي قال: إن مفردها أسطورة قاسها على الأحاديث والأحدوثة، ومثل هذا سائر ما افترضوه من المفرد، لهذه الكلمة المجموعة.

وأرى أن من ذهب إلى أنها جمع أسطار، وأسطار جمع سطر، مثل السطور على حق، فالكلمة جمع الجمع وهي تعني ما كتبه الأولون من سطور، أي: كتابات.

غير أن المعاصرين أجروها مُجرى الأحاديث والألاعيب فقالوا: مفردها أسطورة، فما الأسطورة في اصطلاح أهل عصرنا؟

أقول: إن الكثير من المسمّيات في هذا العصر، أُخِذَ فحواها، وعرفت حقائقها من اللغات الأجنبية، ومن هذه مادة «الميثولوجيا»(١) التي تعني حكايات غريبة فيها أخبار، وحقائق، وشخوص، ومخلوقات، وسرد يرمي إلى فكرة أخلاقية، أو دينية، أو اجتماعية من عادات وتقاليد وغيرها، ورُبّما لا ترمي إلى شيء، وهي تشتمل على أناسيّ، وحيوانات، وطيور، ومخلوقات أخرى غريبة من الإنس والجن، بعضها إنسان وبعضها حيوان غريب.

وهذه المواد الأدبية التاريخية القديمة حفلت بها الآداب القديمة في العراق، ومصر، وسائر بلاد العرب، واليونان، والرومان، والهند، والصين وغيرها.

وقد أشير إليها في عصرنا هذا لدى الدارسين العرب، فماذا يستعيرون لها من الأسماء العربية؟ لقد استعاروا «الأساطير» لهذه المواد بما اشتملت عليه من رسوم وتقاليد وشخوص، وما يضطرب فيها المخلوقات، من هنا لزموا المفرد الذي أشارت إليه المعجمات العربية القديمة، فكانت «الأسطورة» بهذا المعنى المعروف.

ثم حاول نفر من الدارسين إلى الكتابة في الأساطير العربية، فذهبوا إلى أن «أوابد» العرب في معتقدهم، وعاداتهم، وسلوكهم شيء من الأساطير.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الآية ٣٥].

المُكاء من المصادر الدالة على الأصوات، وهو الصفير، ومكا الإنسان يمكو مَكْواً ومكاءً: صَفَرَ بِفِيهِ.

ومنه المُكّاء، كأنه سُمّي بذلك لكثرة مكائه، وهو طائر في ضرب القُنْبَرَةِ يألف الريف، وجمعه مكاكيّ.

والتصدية تفعلة من الصَّدَى، أو من صد يصدُّ صديداً، أي: ضجَّ. وهذا يعني أن الصلة واضحة بين المعتلّ والمضاعف. أي: أنهم جَعَلوا المُكاء

---

(١) علم «الميثولوجيا» من الكلمة الاغريقية «mythos».

والتصدية في موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عُراةً: الرجال والنساء، وهم مُشَبِّكون بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصَفِّقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك، إذا قرأ رسول الله (ص) في صلاته، يخلطون عليه.

أقول: والمكاء والتصدية، من الكلم ذي الدلالة التاريخية المفيدة.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الآية ٣٩].

أقول: إن الفعل «تكون»، فعل على نمط الأفعال التي تكتفي بالمرفوع الفاعل. وهو الذي يدعوه النحاة، «التام» غير الناقص الذي يقتضي مرفوعاً ومنصوباً. وهذا الضرب من الفعل كثير في العربية القديمة، قليل جداً في العربية المعاصرة، بل قل: إن المعاصرين يجهلونه، فلا يرد في كلامهم وأدبهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة/ ٧١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وغير ذلك من الآيات.

وأنت تقف على الفعل التام في الأدب القديم، وفي أسلوب القصص كأن يقال: فكان اليوم الثالث، وحدث فيه كذا وكذا.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الآية ٤٢].

أقول: هذه هي القراءة المشهورة، وقرأ أهل المدينة: «وَيحْيا من حييَ عن بيِّنة».

قال الفرّاء: كتابتها على الإدغام بياء واحدة، وهي أكثر قراءات القراء، وإنما أدغموا الياء في الياء، وكان ينبغي ألاّ يفعلوا لأن الياء، الأخيرة لزمها النصب في «فَعِلَ»، فأُدغِمَ لمّا التقى حرفان متحرِّكان من جنسٍ واحد، قال: ويجوز الإدغام في الاثنين، للحركة اللازمة للياء الأخيرة، فتقول: حيّا، وحيِيا.

وينبغي للجمع أن لا يُدغم إلا بياء، لأنّ الياء يُصيبها الرفع وما قبلها مكسور، فينبغي لها أن تُسكَّنَ فتسقط بواو الجماعة، وربّما أظهرت العربُ الإدغام في الجمع إرادة تأليف

الأفعال، وأن تكون كلها مشددة، فقالوا في حَيِيتُ حَيُّوا، وفي عَيِيتُ عيُّوا، قال وأنشدني بعضهم:

يَحِدْنَ بنا عن كلِّ حَيٍّ كأنَّما
أخاريسُ عَيُّوا بالسَّلام وبالكُتُبْ

قال: وأجمعت العرب على إدغام «التحية» لحركة الياء الأخيرة، كما استحبّوا إدغام «حيّ» و«عيّ» للحركة اللازمة فيهما، فأما إذا سكنَت الياء الأخيرة فلا يجوز الإدغام مثل: «يُحْيي ويُعيِي»، وقد جاء في الشعر الإدغام في مثل هذا الموضع، وهو قوله:

وكأنّها بين النّساء سبيكةٌ
تمشي بسُدَّة بَيْتِها فتُعَيِّي

أقول: ومن الواجب أن نقف قليلاً على هذه الألفاظ المشكلة لفائدتها اللغوية التاريخية، ولنهتدي إلى مكان علم الأصوات من الناحية التطبيقية.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ﴾ [الآية ٦١].

السَّلْم تؤنث تأنيث نقيضها، وهي الحرب، قال:

السَّلْمُ تأخُذُ منها ما رَضِيتَ به
والحَرْبُ يكفيك من أنفاسِها جُرَعُ

وقُرئ بفتح السين وكسرها.

أقول: والسِّلْم في العربية المعاصرة مذكر، يقال السِّلم العالمي.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٦٧].

أقول: كنا عرضنا للفعل «كان»، وهي مكتفية بالمرفوع الفاعل، تلك التي سمّاها النحويون «التامة».

وفي هذا، تأتي «كان» مرة ثانية في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾، والمعنى ما صح له وما استقام، وهذا معنى جديد للفعل يجعلها تامة أيضاً مكتفية بالمرفوع نظير «يكون»، التي تليها في الآية نفسها، ومعناها الحصول والثبوت، وهي تامة أيضاً مكتفية بالفاعل« أسرى».

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الآية ٧٣].

أقول : كنت قد عرضت لدلالة «بعض» على الإفراد، وأتيت بشواهد من لغة التنزيل، وها أنا أقف على هذه الآية لأشير إلى أن كلمة «بعض» فيها، تدل على الجمع دلالة صريحة، وفي هذا ردٌّ على من زعم أنها تدل على الواحد ليس غير.

المعاني اللغوية في سورة «الأنفال»(*)

الواحد من «الأنفال»: «النَّفَلُ»

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الآية ٥] فهذه الكاف يجوز أن تكون على قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ [الآية ٤].

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾[1] وقال بعض أهل العلم ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الآية ١] بإضافة «ذاتَ» إلى «البَيْنِ» وجعله (ذاتَ) لأن بعض الأشياء يوضع عليه اسم مؤنث، وبعضه يذكّر نحو «الدار» و«الحائط» أنّث «الدار» وذكّر «الحائط»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [الآية ٧] فقوله تعالى: ﴿أَنَّهَا﴾ بدل من قوله ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ وقال جلّ شأنه: ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ [الآية ٧] فأنّث لأنه يعني «الطائفة»[3].

وقال: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الآية ١٢] معناها: «اضرِبُوا الأعْناق»[4] كما تقول: «رأيتُ نَفْسَ زَيْدٍ» تريد «زيداً».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في إعراب القران ١/ ٣٩٧، والبحر ٤/ ٤٦٢.

(٢) نقله في المزهر ١/ ٥٣٣، والصحاح «ذا».

(٣) نقله في زاد المسير ٣/ ٣٢٤.

(٤) نقله في المشكل ١/ ٣١٢، وإعراب القرآن ١٥/ ٤٠١، وزاد المسير ٢/ ٣٣٠، والجامع ٧/ ٣٧٨، والبحر المحيط ٤/ ٤٧٠.

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الآية ١٢] واحد «البَنان» «البَنَانَةُ».

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية ١٤] كأنّ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ جُعِلَ خبراً لمبتدأ، أو مبتدأ أضمر خبره حتى كأنه قيل: «ذلكُمُ الأمْرُ» و«الأمْرُ ذلكم». ثم قال تعالى ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الآية ١٤] أيْ: الأمْرُ ذلكم وهذا، فلذلك انفتحت «أنّ». ومثل ذلك قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ وأمّا قول الشاعر[1] [من البسيط وهو الشاهد العشرون بعد المئتين]:

ذاكَ وإنّي على جاري لَذو حَدَبٍ
أحنو عليْهِ كما[2] يُحنى على الجارِ

فإنما كسر «إنّ» لدُخول اللام. قال الشاعر[3]: [من الطويل وهو الشاهد الحادي والعشرون بعد المئتين]:

وأعْلَمُ عِلْماً ليسَ بالظَنِّ أنّه
إذا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهْوَ ذَليلُ
وإنَّ لِسانَ المَرْءِ ما لَمْ تَكُنْ لَهُ
حَصاةٌ عَلى عَوْراتِهِ لَدَليلُ

فكسر الثانية لأن اللام بعدها. ومن العرب من يفتحها، لأنه لا يدري أن بعدها لاماً، وقد سمع مثل ذلك من العرب، في قوله تعالى بقراءة غير صحيحة: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العاديات] ففتح وهو غير ذاكر للّام، فوقع في غلط قبيح في القراءة[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ تقول العرب: «والله ما ضَرَبْتُ غَيْرَهُ» وإنما ضربت أخاه كما تقول: «ضَرَبَهُ الأميرُ» والأمير لم يَلِ ضربَهُ. مثل هذا في كلام العرب كثير.

وقال جلّ وعلا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا

(١) هو الأحوص الأنصاري. ديوانه ١٠٨، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٤٦٤.

(٢) في الكتاب والتحصيل «بما».

(٣) هو طرفة بن العبد البكري. ديوانه ٨٥، والتهذيب ٥/ ١٦٤ «حصا»، وقيل هو كعب بن سعد الغنوي، الصحاح «حصا» واللسان «حصا». في الديوان «إنه».

(٤) في إعراب ثلاثين سورة ١٥٨، نسبت قراءة مستهجنة إلى الحجاج بن يوسف، وزاد في الشواذ ١٧٨ أبا السمال، وكذلك في البحر ٨/ ٥٠٥، واقتصر في الجامع ٢٠/ ١٦٣ على أبي السمال. والشاهد في القراءة المغلوطة، قراءة الآية الثالثة وحدها.

﴿تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الآية ٢٥] فليس قوله سبحانه؛ والله أعلم؛ ﴿تُصِيبَنَّ﴾ بجواب، ولكنه نَهيٌ بعدَ أمر، ولو كان جواباً ما دخلت النون.

وقال جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الآية ٣٢] بنصب (الحقّ) لأن (هُوَ) ـ والله أعلم ـ جعلت هُهنا صلة في الكلام، زائدة توكيداً كزيادة (ما)[1]. ولا تزاد إلاّ في كل فعلٍ لا يستغني عن خبر، ليست «هُوَ» بصفة لـ «هذا» لأنك لو قلت: «رأيتُ هذا هُوَ» لم يكن كلاماً، ولا تكون هذه المضمرة من صفة الظاهرة، ولكنها تكون من صفة المضمرة، في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف/٧٦] و﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمّل/٢٠] لأنك تقول «وَجَدْتُهُ هُوَ» و«أتاني هُو» فتكون صفة، وقد تكون في هذا المعنى أيضاً غير صفة، ولكنها تكون زائدة كما كان في الأوّل. وقد تجري في جميع هذا مجرى الاسم، فيرفع ما بعده إن كان ما قبله ظاهراً أو مضمراً، في لغةٍ لبني تميم[2] في قوله تعالى بقراءة من قرأ: (إنْ كانَ هذا هُوَ الحَقُّ)[3] و(ولكنْ كانُوا هُمْ الظَّالِمون)[4] و(تَجِدُوهُ عندَ الله هوَ خَيْرٌ وأَعْظَمُ أجْراً)[5] كما تقول «كانُوا آباؤهم الظالمُون» إنما جعلوا هذا المضمر نحو قولهم «هوَ و«هُما» و«أنْتَ» زائداً في هذا المكان. ولم يجعل في مواضع الصفة، لأنه فصل، أراد أن يبيّن به أنه ليس بصفة ما بعده لما قبله، ولم يحتج الى هذا في الموضع الذي يكون له خبر.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٣٤] فـ «أنْ» هُهنا زائدة ـ

(١) نقله في إعراب القرآن ١/ ٤٠٤، والمشكل ١/ ٣١٤.

(٢) لهجة تميم ٢٨٣.

(٣) القراءة برفع الحق، هي في البحر ٤/ ٤٨٨ إلى الأعمش وزيد بن علي، وبنصبها هي في البحر كذلك، والجامع ٧/ ٣٩٨، إلى العامة والجمهور.

(٤) القراءة بالرفع، في معاني القرآن ٣/ ٣٧، إلى عبدالله، وفي الشواذ ١٣٦ إلى أبي زيد النحوي، وجمعهما في البحر ٨/ ٢٧؛ والقراءة بالنصب في البحر، كذلك إلى الجمهور.

(٥) القراءة بالرفع في الشواذ ١٦٤، نسبت إلى أبي السمال، وزاد عليه في البحر ٨/ ٣٦٧ ابن السميفع؛ والقراءة بالنصب في البحر، كذلك إلى الجمهور.

والله أعلم. وقد عملت[1] وقد جاء في الشعر، قال[2] [من البسيط وهو الشاهد السابع والأربعون بعد المئة]:

لَوْ لَمْ تَكُنْ غَطَفانٌ لا ذُنُوبَ لَها
إليَّ لامتْ ذَوُو أحسابِها عُمَرا[3]

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الآية ٤٢] وأمر الله كله مفعول؛ ولكن أراد أن يقصّ الاحتجاج عليهم، وقَطْعَ العذرِ قبل إهلاكهم.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الآية ٣٥] بالنصب على خبر «كان».

وقرأ بعضهم: ﴿لِيُمَيِّزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الآية ٣٧][4] جعله من «مَيَّزَ» مثقلة وخففها آخرون فقالوا ﴿لِيَمِيزَ﴾[5] من «مازَ» «يَمِيزُ» وبها نقرأ.

وقرأ بعضهم: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية ٤٢][6] وقرأ آخرون: «بالعِدْوَةِ»[7] وبالأولى نقرأ، وهما لغتان[8]. وقال بعض العرب الفصحاء: «العُدْيَةِ» فقلب الواو ياء، كما تقلب الياء واواً في نحو «شَرْوى» و«بلْوى»، لأنّ ذلك يفعل بها فيما هو نحوٌ من ذا، نحو «عَصِيّ» و«أرض

(١) نقله في إعراب القرآن ١/ ٤٠٥، والمشكل ١/ ٣١٤ و٤/ ٤٩٠.

(٢) هو الفرزدق همّام بن غالب. ديوانه ١/ ٢٨٣، والخزانة ٢/ ٨٧.

(٣) في الديوان: لام بدل لامت، وفي الخزانة «إذن للام»، وفي الديوان بـ «أحلامهم» بدل أحسابها.

(٤) القراءة بالتضعيف، هي في السبعة ٣٠٦ إلى حمزة والكسائي، والتشديد لهجة بدو الجزيرة اللهجات العربية ٥٣٦.

(٥) هي قراءة نسبت في السبعة ٣٠٦ إلى ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأبيّ؛ وعليها رسم المصحف.

(٦) في الطبري ١٠/ ١٠ إلى عامة قرّاء المدنيين والكوفيين، حملاً على لغة مشهورة. وفي السبعة ٣٠٦ إلى نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي؛ وفي الكشف ١/ ٤٩١ والتيسير ١١٦ والبحر ٤/ ٤٩٩ إلى غير ابن كثير وأبي عمرو.

(٧) في الطبري ١٠/ ١٠ نسبت إلى بعض المكيين والبصريين حملاً على لغة مشهورة، وفي السبعة ٣٠٦ إلى ابن كثير وأبي عمرو، وفي الكشف ١/ ٤٩١ والتيسير ١١٦ والبحر ٤/ ٤٩٩ إلى ابن كثير وأبي عمرو.

(٨) الضم لغة تميم وعليها رسم المصحف. المزهر ٢/ ٢٧٧ ولهجة تميم ١٥٩ واللهجات العربية ١٨٣، وأضيف إليها في الأخير البيئات البدوية الأخرى، كأسد وبكر بن وائل وقيس عيلان؛ وأما الكسر، فكما جاء فيها لغة الحجاز وقريش.

مَسْنِيَّة» وفي قولهم «قِنْيَة» لأنها من «قَنَوْتُ».

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ [الآية ٤٢] بجعل «الأسْفَل» ظرفاً، ولو شئت قلت: «أسفلُ منكم»(١) اذا جعلته صفة «الرَّكْب» ولم تجعله ظرفاً.

قال تعالى: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ [الآية ٤٢](٢) بإلزام الإدغام، إذ صار في موضع يلزمه الفتح، فصار مثل باب التضعيف. فإذا كان في موضع لا يلزمه الفتح، لم يدغم نحو ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾ [الأحقاف/ ٣٣ والقيامة/ ٤٠] إلاّ أن تشاء تخفي، وتكون في زنة متحرك، لأنها لا تلزمه، لأنك تقول «تُحْيي» فتسكن في الرفع وتحذف في الجزم، فكل هذا لا يمنعه الإدغام. وقرأ بعضهم: «مَنْ حيِيَ عنْ بَيِّنَةٍ»(٣) ولم يدغم إذا كان لا يدغمه في سائر ذلك. وهذا أقبح الوجهين، لأنّ «حَيِيَ» مثل «خَشِيَ» لمّا صارت مثل غير التضعيف، أجرى الياء الاخرة مثل ياء «خَشِيَ».

وتقول للجميع «قد حَيُوا» كما تقول «قَدْ خَشُوا» ولا تدغم لأن ياء «خَشُوا» تعتل هٰهنا. وقال الشاعر(٤) [من الطويل وهو الشاهد الثاني والعشرون بعد المئتين]:

وَحَيٌ حَسِبْنَاهُمْ فَوارِسَ كَهْمَسٍ
حَيُوا بَعْدما ماتُوا من الدَّهْرِ أعْصُرا(٥)

وقد ثُقِّل بَعضُهم وتركها على ما كانت عليه، وذلك قبيح. قال الشاعر(٦) [من مجزوء الكامل وهو

---

(١) في البحر ٤/ ٥٠٠ هي قراءة زيد بن علي.

(٢) القراءة بياء واحدة في «حي» هي في معاني القرآن ١/ ٤١١ قراءة أكثر القراء، وفي السبعة ٣٠٦ إلى ابن كثير في رواية. وإلى أبي عمرو وابن عامر حمزة والكسائي، وفي الكشف ١/ ٤٩٢ والتيسير ١١٦ والبحر ٤/ ٥٠١ إلى غير نافع والبزي وأبي بكر من السبعة، وأبدل في الجامع ٨/ ٢٢ أهل المدينة بنافع.

(٣) القراءة بياءين هي في السبعة ٣٠٦ و٣٠٧ إلى عاصم في رواية، وفي أخرى إلى ابن كثير؛ وفي الكشف ١/ ٤٩٢ والتيسير ١١٦ والبحر ٤/ ٥٠١ إلى نافع والبزي وأبي بكر، وفي الجامع ٨/ ٢٢ أبدل أهل المدينة بنافع.

(٤) هو أبو حُزابة الوليد بن حنيفة. الأغاني ١٩/ ١٥٦، وهامش ٩١ فهرس شواهد سيبويه.

(٥) في الكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ٣٨٧ بـ «وكنا» بل «وحي». وشرح المفصل لابن يعيش ١٠/ ١١٦.

(٦) هو عبيد بن الأبرص. ديوانه ١٢٦، وتحصيل عين الذهب ١/ ٣٨٧ وشرح المفصل لابن يعيش ١٠/ ١١٥، واللسان «حيا» و«عيا». وقيل هو ابن مفرغ، الصحاح «حيا».

الشاهد الثالث والعشرون بعد المئتين]:

عَـــبُـــوا بِـــأَمْـــرِهِـــمْ كَـــمَـــا
عَـيَّـتْ بِـبَـيْـضَـتِـهَـا الـحَـمَـامَـهْ[1]

جَـعَـلَـتْ لَـهُ عُـودَيْـنِ مِـنْ
نَـشَـمٍ وآخَـرَ مِـنْ ثُـمَـامَـهْ[2]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ بإضمار الخبر، والله أعلم. وقال الشاعر [من الخفيف وهو الشاهد الحادي والثلاثون بعد المئة]:

إنْ يَـكُـنْ طِـبُّـكِ الـدَّلَالُ فَـلَـوْ فِـي
سَـالِـفِ الـدَّهْـرِ والـسِّـنِـينَ الـخَـوَالِـي

يريد بقوله «فَلَو في سالِفِ الدَهْرِ» أن يقول: «فلو كان في سالف الدهر لكان كذا وكذا» فحذف هذا الكلام كلّه.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الآية ٦١] بتأنيث «السَّلْم»[3] وهو «الصُلْح» وهي لغة لأهل الحجاز، ولغة العرب الكسر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٦٢] «حسبُك» اسم.

قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الآية ٧٢] وهو في الولاءِ. أما في السلطان فـ «الوِلاية»؛ ولا أعلم كسر الواو في الأخرى إلاّ لغة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الآية ٧٥] بجعل الخبر بالفاء كما تقول: «الذي يأتِيني فَلَه دِرْهَمان»، فتلحق الفاء لما صارت في معنى المجازاة.

---

(١) في الديوان: برمت بنو أسد كما برمت، وفي المنصف ٢/ ١٩١ بـ «النعامة» بدل الحمامة. وهو في المغرب ٢/ ١٥٣.

(٢) في الديوان: «لها» بدل «له». وفي شرح المفصّل لابن يعيش ١٠/ ١١٧، وضعت لها عودين من ضعة.

(٣) المذكر والمؤنث للفراء ٨٤، والتذكير والتأنيث للسجستاني ١٥.

لكل سؤال جواب في سورة «الأنفال»(*)

إن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية ٢] إلى آخر الآيتين، يدل على أن من لم يتصف بجميع تلك الصفات، لا يكون مؤمناً، لأن كلمة «إنما» للحصر.

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما المؤمنون إيماناً كاملاً، وإنما الكاملون في الإيمان، كما يقال الرجل من تصبَّر على الشدائد، يعني الرجل الكامل.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الآية ٤] ينفي إرادة ما ذكرتم.

قلنا: معناه أولئك هم المؤمنون إيماناً كاملاً حقاً، وقيل إنّ «حقاً» متعلق بما بعده لا بما قبله، والمؤمنون تمام الكلام.

فإن قيل: كيف يقال: إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الآية ٢]؟

قلنا: المراد هنا آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك، لأن تظاهر الأدلة على المدلول مما يزيده رسوخاً في العقائد وثبوتاً؛ فأما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحدانية الله تعالى، وكما أن الإلهية الوحدانية لا تقبل الزيادة والنقصان، فكذا الإقرار بها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٥] تشبيه، فأين المشبَّه والمشبَّه به؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

قلنا: معناه: امض على ما رأيته صواباً، من تنفيل الغزاة في قسمة الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت في خروجك من بيتك للحرب بالحقّ، وهم كارهون. وقيل معناه: فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فهو خير لكم، وإن كرهتم، كما كان إخراجك من بيتك بالحقّ؟

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الآية ٨] وكلاهما متعذّر، لأنه تحصيل حاصل؟

قلنا: المراد بالحق الإيمان، والباطل الشرك، فاندفع السؤال.

فإن قيل ما الحكمة من التكرار في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾؟

قلنا: إنّما ذكر أوّلاً، لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة، التي كانت فيها الغنيمة، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التي في قهرها نصرة الدين، فذكره أوّلاً للتمييز بين الإرادتين، ثم ذكره ثانياً لبيان الحكمة في قطع دابر الكافرين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الآية ١٧] ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفار، ورماهم النبي (ص) بكفٍّ من حصا الوادي في وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلاّ وقع في عينيه شيء من ذلك، فشغلوا بعيونهم وانهزموا، فتبعهم المؤمنون يقتلون ويأسرون؟

قلنا: لمّا كان السبب الأقوى في قتلهم، إنّما هو مدد الملائكة وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم، وذلك كله فعل الله تعالى، نفى الفعل عنهم ونسبه إليه، يعني إن كان ذلك في الصورة منكم فهو في الحقيقة مني، فسبيلكم الشكر دون العجب والفخر، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله (ص) لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يوجد مثله عن رمي البشر، فعل الله تعالى. ونظير هذا، قولك لمن يصدر عنه قول حسن أو فعل مكروه، بتسليط من هو أعلى رتبة منه: هذا ليس قولك ولا فعلك. وقيل معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الآية ١٧] وما رميت الرعب في

قلوبهم إذ رميت الحصا في وجوههم، ولكن الله رمىَ الرعب في قلوبهم. ولأهل الحقيقة في هذه الآية وفي نظائرها من الكتاب والسنة، مباحث لايحتملها هذا المختصر، وهي مستقصاة في كتب التصوف.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الآية ٢٠] ثنّى في الأمر، ثم أفرد في النهي؟

قلنا: كما يذكر في لغة العرب الاسم المفرد ويراد به الاثنان والجمع، فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنين كقولهم: إنعام فلان ومعروفه يغشيني، والإنعام والمعروف لا ينفع مع فلان، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة/ ٦٢] أي يرضوهما، فكذا هنا معناه: ولا تولوا عنهما. الثاني أنه إن أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده لأنه الأصل، مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان، قال الله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء/ ٨٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح/ ١٠] فكان الإعراض عن الرسول (ص) إعراضاً عن الله تعالى، فاكتفي بذكره.

الثالث أن معناه: ولا تولَّوْا عن هذا الأمر وعن أمثاله فالضمير للأمر لا للرسول (ص). الرابع: إنه إنما لم يقل ولا تولّوا عنهما، لئلا يلزم منه الإخلال بالأدب من النبي (ص) عند نهيه للكفار، في قرانه بين اسمه واسم الله تعالى، في ذكرهما بلفظ واحد، من غير تقديم اسم الله، كما روي، «أن خطيباً خطب فقال: من أطاع الله ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى، فقال له النبي (ص): «بئس خطيب القوم أنت، هلاّ قلت: ومن عصى الله ورسوله فقد غوى»؟

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الآية ٢٣]؟

قلنا: معناه ولو علم الله فيهم تصديقاً وإيماناً في المستقبل، لأسمعهم سماع فهمٍ وقَبولٍ؛ أو لأنطق لهم الموتى، يشهدون بصدق نبوّتك كما طلبوا. وقيل: معنى ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾: لرزقهم الفهم والبصيرة، وأسمعهم وحالهم هذه الحال، وهو أنه لم يعلم فيهم الخير، لتولّوا وهم معرضون، لعنادهم وجحودهم الحق، بعد ظهوره.

فإن قيل: التولّي والإعراض واحد،

فما الحكمة في قوله تعالى ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾؟

قلنا: معناه لتولّوا عن الإيمان، وأعرضوا عن البرهان، فلا تكرار.

فإن قيل: فما الحكمة في ذكر السماء في قوله تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ٣٢] والمطر إنما يكون من السماء؟

قلنا: الجواب الاول المطر المطلق، إنما يكون من السماء؛ ولكن المطر المضاف هنا، وهو مطر الحجارة، قد يكون من رؤوس الجبال، ومن حيطان المساكن والقصور وسقوفها؛ فكان ذكر السماء مفيداً، لأنّ الحجارة إذا نزلت من السماء، كانت أشدّ نكاية، وأكثر ضرراً. الجواب الثاني، أنه لما كانت الحجارة المسوّمة للعذاب، وهي السّجيل معهودة النزول من السماء، ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود من الحجارة، كأنه قال: فأمطر علينا حجارة من سجّيل؛ فوضع قوله من السماء، موضع قوله من سجيل، كما يقول: صُبَّ عليه مسرودة من حديد، يعني دِرْعاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الآية ٣٣] ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر، وهو فيهم؟

قلنا: معناه وأنت مقيم فيهم بمكة، وكان كذلك، لأن النبي (ص) ما دام بمكة لم يعذّبوا، فلما أخرجوه من مكة وخرجوا لحربه عذّبوا. وقيل معناه: وما كان الله ليعذّبهم عذاب الاستئصال، وأنت فيهم. وقيل معناه: وما كان الله ليعذّبهم العذاب الذي طلبوه، وهو إمطار الحجارة، وأنت فيهم.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى أوّلاً ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الآية ٣٣]، ثم قال جلّ وعلا ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٣٤]، وهو يوهم التناقض؟

قلنا: معناه وما لهم أن لا يعذّبهم الله بعد خروجك من بينهم، وخروج المؤمنين والمستغفرين. وقيل: المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال، وبالثاني عذاب غير الاستئصال، وقيل: المراد بالأول عذاب الدنيا، وبالثاني عذاب الآخرة.

فإن قيل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الآية ٣٥] والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وهما ليسا بصلاة؟

قلنا: معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية، مقام الصلاة، كما يقول القائل زرت فلاناً، فجعل الجفاء صلتي: أي أقام الجفاء مقام صلتي، ومنه قول الفرزدق:

أخافُ زياداً أنْ يكونَ عطاؤُهُ
أداهِمَ سوداً أوْ مُحَدْرجَةً سُمْراً

أراد بالأداهم القيود وبالمحدرجة السياط، ووضعهما موضع العطاء.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ لم يَنْتَهِ الكافرون عن الكفر، فلمَ قال سبحانه ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ [الآية ٣٨] والعود إلى الشيء، إنما يكون بعد تركه والإقلاع عنه؟

قلنا: معناه إن ينتهوا عن عداوة رسول الله (ص) ومحاربته، يغفر لهم ما قد سلف من ذلك؛ وإن يعودوا إلى قتاله وعداوته، فقد مضت سنة الأولين منهم، الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر، أو فقد مضت سنة الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية. وقيل معناه: إن ينتهوا عن الكفر بالإيمان، يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي، كما قال النبي (ص) «الإسلام يجبّ ما كان قبله» وإن يعودوا إلى الكفر بالارتداد بعد ما أسلموا، فقد مضت سنة الأولين من الأمم، من أخذهم بعذاب الاستئصال.

فإن قيل: الفائدة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة، وهي زوال الرعب من قلوب المؤمنين، وتثبيت أقدامهم، وزيادة اجترائهم على القتال؛ فما فائدة تقليل المؤمنين في أعين الكفّار، حتى قال الله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الآية ٤٤] مع أن في ذلك زوال الرعب من قلوب الكافرين، وتثبيت أقدامهم، واجتراؤهم على القتال؟

قلنا: فائدته أن لا يستعد الكفّار كلّ الاستعداد، فيجترئوا على المؤمنين معتمدين على قلّتهم، ثم تَفْجَؤُهُم الكثرة فيدهشوا ويتحيّروا؛ وأن يكون ذلك سبباً يتنبه به المشركون على نصرة الحق، إذ رأوا المؤمنين مع قلّتهم في أعينهم، منصورين عليهم. وفي التقليل من الطرفين معارضة، تُعرف بالتأمل.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الآية ٤٦] يدلّ على حرمة المنازعة والجدال أيضاً،

لأنه منازعة، فكيف تجوز المناظرة، وهي منازعة وجدال؟

قلنا: المراد بالمنازعة هنا: المنازعة في أمر الحرب والاختلاف فيه، لا المنازعة في إظهار الحق، بالحجة والبرهان، والدليل عليه أن ذلك مأمور به.

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/١٢٥] لكن للجواز شروط، يندر وجودها في زمننا هذا: أحدها، أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان أيّ الخصمين، كما كانت مناظرة السلف، وعلامة ذلك أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه، أكثر ممّا يفرح بظهوره على لسان خصمه.

فإن قيل: كيف قال إبليس كما ورد في التنزيل ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الآية ٤٨، والمائدة/ ٢٨] وهو لا يخاف الله، لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضلّ عبيده؟

قلنا: قال قتادة، لقد صدق وعد الله في قوله كما روى القرآن ذلك، حكايةً عنه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الآية ٤٨] يعني جبريل والملائكة (ع) معه نازلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر، وكذب في قوله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم. وقيل لمّا رأى نزول الملائكة على صورة لم يرَها قط، خاف قيام الساعة التي هي غاية إنظاره، فيحل به العذاب الموعود. وقيل معنى ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: أعلم صدق وعده لنبيّه النصر، وقد جاء الخوف بمعنى العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٢٢٩] ويحتمل عندي أن يكون خاف أن يحل به الملائكة ما دون الإهلاك من الأذى إذ لم يخف الإهلاك، ثم أقول: كيف تؤخذ عليه كذبة واحدة وهو أفسق الفسقة، وأكفر الكفرة، فلا عجب في كذبه، وإنما العجب في صدقه.

فإن قيل: أي مناسبة بين الشرط والجزاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾؟

قلنا: لما أقدم المؤمنون، وهم ثلاث مِائة وبضعة عشر، على قتال المشركين، وهم زهاء ألف، متوكّلين على الله، وقال المنافقون: غرّ هٰؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عدداً، أو أكثر، قال الله تعالى ردّاً على المنافقين، وتثبيتاً للمؤمنين: ﴿وَمَن

يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٩﴾﴾ أي غالب يسلّط القليل الضعيف، على الكثير القوي وينصره عليه، حكيم في جميع أفعاله.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴿٥١﴾﴾ ولم يقل ليس بظالم، وهو أبلغ في نفي الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال، وجوابه في سورة آل عمران.

فإن قيل: قوله عز وجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الآية ٥٣] وذلك إشارة إلى إهلاك كفار مكة وآل فرعون، ولم تكن لهم حال مرضية غيّروها؟

قلنا: كما تغير الحال المرضية الى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأسوأ؛ وأولئك كانوا، قبل بعث الرسول (ص) اليهم، عباد أصنام. فلما بعث الرسول (ص) إليهم بالآيات البينات، فكذّبوه، وعادوه، وَسَعَوا في قتله، غيّروا حالهم إلى أسوأ منها، فغيّر الله تعالى، ما أنعم به عليهم من الإمهال، وعاجلهم بالعذاب.

فإن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٥٥] بعد قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴿٥٥﴾﴾؟

قلنا مراده، أن يبيّن أنّ شرّ الكفّار الذين كفروا، واستمرّوا على الكفر إلى وقت الموت.

فإن قيل: ما الحكمة من تكرار المعنى الواحد في مقاومة الجماعة، لأكثر منه، قبل التخفيف وبعده، في قوله تعالى ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الآية ٦٥] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿٦٦﴾﴾؟

قلنا: فائدته، الدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت؛ بل كما ينصر الله تعالى العشرين على المِائتين، ينصر المِائة على الألف؛ وكما ينصر المِائة على المِائتين، ينصر الألف على الألفين.

فإن قيل: لِمَ أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة، ونحن نشاهد الأمر بخلافها؛ فإن المِائة من الكفار، قد تغلب المِائة من المسلمين، بل المِائتين في بعض الأحوال؟

قلنا: إنما أخبر الله عز وجل عن هذه الغلبة، بشرط الصبر، الذي هو

الثبات في موقف الحرب؛ او الذي هو الموافقة بين المسلمين ظاهراً وباطناً، فمتى وجد الشرط تحقّقت الغلبة للمسلمين، مع قلتهم لامحالة. ولقائل أن يقول إن هذه الغلبة، مخصوصة بطائفة كان النبي (ص) أحدهم، وسياق الآية يدل عليه.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الآية ٦٧] مع أنه يريد الدنيا أيضاً، لأنه لولا إرادته إيّاها لما وجدت، فما فائدة هذا التخصيص؟

قلنا: المراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبة، لا إرادة الوجود والكون، فالمعنى أتحبّون عرض الحياة الدنيا وتختارونه، والله يختار ما هو سبب الجنة، وهو إعزاز الإسلام، بالإثخان في القتل.

المعاني المجازية في سورة «الأنفال»(*)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الآية ٧].

وهذه استعارة عجيبة: لأن ذات الشوكة هٰهنا، إحدى الطائفتين التي فيها سلاح الأبطال وآلة النزال؛ وذلك أنّ النبي (ص) خرج بالمسلمين يطلب عير قريش، المقبلة من الشام مع أبي سفيان بن حرب، وفيها أموالها وذخائرها وعرفت قريش خروجه (ص)؛ لذلك فخرجت لتمنع عيرها، وتقاتل دونها. فلما عرف المسلمون خبر خروج قريش للقتال، كانوا يتمنّون أن يخالفوهم إلى العير فيغنموها، ويكون ظفرهم بالطائفة التي فيها الغنم، لا الطائفة التي فيها الجد والحد. فجمع الله بينهم وبين قريش على بدر، وكانت الحرب المشهورة التي قتل فيها صناديد المشركين، واشتدّت أعْضاد المؤمنين. والكناية بذات الشوكة، عن ذات السلاح والعُدّة، من أشرف البلاغة وأوقع الاستعارة، تشبيهاً بالشوكة[1] تَخِزُ[2]، والمدية التي تَخِزُ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الآية ٢٤].

وهذه استعارة، على بعض التأويلات المذكورة في هذه الآية؛ والمعنى أنّ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) سياق الكلام يقتضي أن يكون: بالشوكة التي تخز، ولعل لفظة «التي» سها عنها الناسخ.

(٢) مِن خَزَ: خَزَه بالرمح أي طعنه.

الله تعالى أقرب إلى العبد من قلبه، فكأنه حائل بينه وبين قلبه من هذا الوجه؛ أو يكون المعنى: أنه تعالى قادر على تبديل قلب المرء، من حال الى حال، إذا كان سبحانه موصوفاً، بأنه مقلّب القلوب؛ والمعنى انه ينقلها من حال الأمن إلى حال الخوف، ومن حال الخوف الى حال الأمن، ومن حال المساءة إلى حال السرور، ومن حال المحبوب الى حال المكروه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الآية ٣٧].

وهذه استعارة، والمراد بها: العمل الخبيث وهو ما يستحق العقاب، ولا يصح فيه أن يركم بعضه على بعض، وإنما يصح ذلك في الأجسام والأجرام؛ فالمراد، إذا وصفت العمل الخبيث بالكثرة، كثرة فاعله، ومن صفات الكثرة تراكم الشيء بعضه على بعض، كالرمل الهَيام[1] والسحاب الرُكام، ومعنى (جَعْلِه في جهنم) العقاب ينزل عليه بنار جهنم؛ وقد قيل في ذلك وجه آخر، يُخرج الكلام من باب الاستعارة، وهو أن يكون المراد بالخبيث هٰهنا المال الذي أخذ من غير حق، وأنفق في غير حقه. فإنّ الله سبحانه، يجعله في نار جهنم مع آخذيه، من الوجوه المحرّمة، ومنفقيه في الوجوه المذمومة، على طريق العقوبة لهم؛ والتجديد لخسرانهم، كلما كثر إليه نظرهم، كما قال سبحانه، في صفة الأموال المكنوزة الممنوعة من إخراج الزكاة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الآية ٤٦].

وهذه استعارة، لأنه لا ريح هناك على الحقيقة، وإنما ذلك على مخرج قول العرب: «قد هبّت ريح فلان» إذا تجددت له دولة، أو ظهرت له نعمة، ويقولون: «الريح مع فلان» أي الإقبال معه، والأقدار تساعده. وأصل ذلك أن الريح في الحرب، إذا كان مجراها مع

(١) الرَّمْل الهَيام: ما لا يتماسك.

إحدى الطائفتين، كان عوناً لها على أعدائها، في تفريق جموعهم وتقويض صفوفهم، وإثارة القتام[1] والغبرة في عيونهم ووجوههم؛ وهذه الأحوال كلها، أعوان عليها مع عدوهم، فما جاء في هذا المعنى، قول ضرار بن الخطاب الفهري:

«قد أيقنوا يوم لاقونا بأنَّ لنا
ريح القتال وأصلاب الذين لقوا»

أراد لنا دولة القتال وقوة الاستظهار.
ومما جاء في هذا المعنى:

أتنظران قليلا ريث غفلتهم
أم تعدوان فإنّ الريح للعادي

وهذا قول بعض حراب[2] العرب يخاطب صاحبه[3] كأنه قد تنتظران[4] غفلة الحي مراقبة، أم تقدمان على استلاب إبلهم مزالبة[5]. فإن الدولة للمقدم، والغنيمة للمصمم، والعدو في الأصل هو السلوك بالظلم والبغي. يقال: عَدْو وعُدْوان، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس/ ٩٠].

وقال بعضهم قول الشاعر: «ههنا تعدوان» إنما أراد به عدو الأقدام، فكأنه قال أن تنجوا سالمين، ولا تتعرضا لشوكة الحي محاصرين؛ فإنّ الاقبال للناجي بِحُشاشَتِهِ، والرابح بسلامته، إذ كانت السلامة هي الغنيمة التي حازها، والطريدة التي استقاها. والقول الأول هو المعتمد، وهو بغرض الشاعر أليق؛ ألا ترى إلى البيت الأول كيف حقر فيه شأن علوف[6] الحي إطماعاً لصاحبه فيهم، واعتداداً كنا أما عليهم[7]، وذلك حيث يقول:

---

(١) القتام: الغبار الأسود، غبار الحرب.

(٢) كذا في النسخة، ولعل الأصل خراب جمع خارب، وهم سراق الإبل.

(٣) ربما كانت العبارة في الاصل صاحبية لأن السياق يقتضي ذلك.

(٤) لعل الأصل (كأنه قال).

(٥) كذا في النسخة، ولعلها «مُذَائبة» أخذاً من فعل الذئب. ورد في اللسان (مادة زلب): زلب الصبي بأمه لزمها، ولم يفارقها، عن الجرشي والليث: لزدلب في معنى استلب. قال: وهي لغة رديئة.

(٦) كذا في النسخة، وقد تكون في الأصل خلوف.

(٧) كذا جاء في النص.

يـا صـاحـبـي ألا لا حـيّ بـالـوادي
إلاّ عـبـيـداً[1] وإمـاء بـيـن أوتـادي

وقـولـه تـعـالـى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الآية/ ٦١].

وهـذه اسـتـعـارة، والـمـراد بـهـا: فإن مـالـوا إلى الـسـلـم مـيـل ثـبـات عـلـيـه، وركـون إلـيـه، لا مـيـل مـكـر ومـخـادعـة وإدهـان ومـواربـة، فـسـالمهم على هـذا الوجه الذي طلبوا السلم عليه، وأنث السياق «السّلْم»، لأنه بمعنى المسالمة والمخادعة، وما يجري مجرى ذلك.

وقـولـه تـعـالـى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٦٧].

وهذه استعارة، والمراد بها: تغليظ الحال وكثرة القتل؛ وذلك مأخوذ من قول القائل: قد أثخنني هذا الأمر، أي بلغ أقصى المبالغ في الثقل عليّ، والإيلام لقلبي.

(١) البيتان لأعشى طُرُودٍ كما في ديوان الأعشين وقد جاء عجز ثانيهما الذي هو الأول «سوى عبيد وآم بين أذواد» والإماء: جمع أمة. [وعجز البيت كما ورد في المتن، لا يستقيم وزنه إلاّ بحذف الواو، قبل «إماء».

سورة التوبة

٩

أهداف سورة «التوبة»(*)

أسماء السورة

عرفت سورة التوبة من العهد الأول للإسلام بجملة أسماء، تدل بمجموعها على ما اشتملت عليه من المبادئ والمعاني، التي يجب مراعاتها في معاملة الطوائف كلها، مؤمنيهم ومنافقيهم، وكتابيّهم ومشركهم.

وأشهر هذه الأسماء «سورة التوبة»، وهو يشير إلى ماتضمنته السورة من تسجيل توبة الله، وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين، الذين أخلصوا في مناصرة الدعوة، وصدقوا في الجهاد مع النبي (ص)، حتى وصل بهم إلى الغاية المرجوّة، وذلك في قوله تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

ولا ريب في أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين ـ بعد أن كابدوا الجهد والمشقات في سبيل نصرة الحق ـ لَمَا يقوّي روح الإيمان في قلوبهم، ويبعد بهم عن مزالق المخالفة، أو التقصير.

وقد تَخلّف ثلاثة من المسلمين عن الاشتراك في الجهاد، ولم يسهموا في

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمد شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

أعباء جيش العسرة، فأمر النبي (ص) بمقاطعتهم ومعاقبتهم، ومكثوا فترة من الزمن في عزلة تامة بغرض تأديبهم وتهذيبهم، ثم تاب الله عليهم، وقَبِل توبتهم. وكان ذلك درساً للمسلمين حتى لا يتخلّفوا عن الجهاد ولا يقصّروا في القيام بأعباء الدين وتعاليمه.

ومن أسماء السورة «براءة»، وهي تشير الى غضب الله ورسوله على من أشرك بالله، وجعل له سبحانه، نِدّاً، وشريكاً؛ وإعلام الناس في يوم الحج الأكبر.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية ٣].

وقد عرفت السورة بعد ذلك، بأسماء أخرى، فكانت تسمّى «الكاشفة» و«المثيرة» و«الفاضحة» و«المنكِّلة»، وغير ذلك مما حفلت به كتب التفسير، وهي ألفاظ أطلقت عليها، باعتبار ما قامت به، من كشف أسرار المنافقين، وإثارة أسرارهم، وفضيحتهم بها، وتنكيلها بهم.

وَرَدَ أنّ ابن عباس رضي الله عنه قال: سورة التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل في المنافقين وتنال منهم حتّى ظننّا أنّها لا تبقي أحداً إلاّ ذكرته بقولها: ومنهم، ومنهم، ومنهم.

وهو يشير إلى ما جاء في هذه السورة من أصناف المنافقين مثل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [الآية ٤٩].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

أين البسملة؟

من خصائص سورة التوبة، أنه لم يذكر في أولها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لأنها تبدأ بإعلان الحرب الشاملة، ونبذ العهود كافّةً، والبسملة تحمل روح السلام والطمأنينة، لذلك لم تبدأ بها سورة الحرب والقتال.

وربما كان سبب عدم وجود البسملة في أولها، الاشتباه في أنها جزء من

سورة الأنفال، خصوصاً أن سورة الأنفال تحكي جهاد المسلمين في معركة بدر، وسورة التوبة تصف جهاد المسلمين في معركة تبوك. فقصة الأنفال شبيهة بقصة سورة التوبة، من ناحية الهدف العام، والتحريض على الجهاد، والتحذير من التخلّف عن أمر الله ورسوله. لذلك تُرِكَت سورة التوبة مع سورة الأنفال. ووضع بينهما فاصل السورة،ولم يكتب في أوّل التوبة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، احترازاً من الصحابة أن يضيفوا أي شيء إلى رسم القرآن، إلاّ بتوجيه من النبي (ص).

روى التّرمذي بإسناده عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى «الأنفال» وهي من المثاني، وإلى «براءة» وهي من المئين، وقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟

فقال عثمان: كان رسول الله (ص) ممّا يأتي عليه الزمان، وهو ينزل عليه السور ذات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت «الأنفال» من أوّل ما نزل بالمدينة، وكانت «براءة» من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصّتها شبيهة بقصّتها، وخشيت أنها منها. وقبض رسول الله (ص)، ولم يبيّن لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتها في السبع الطوال.

أهداف سورة التوبة

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، وهي من السور المدنية، وقد نزلت في أواخر السنة التاسعة من الهجرة. وهي السنة التي خرج فيها النبي (ص) بالمسلمين إلى تبوك، بقصد غزو الروم، كما خرج أبو بكر في أواخر سنة تسع على رأس المسلمين، لحجّ بيت الله الحرام.

هدفان أصليان

وقد كان للسورة، بحكم هذين الحادثين العظيمين، في تاريخ الدولة

الإسلامية، هدفان أصليان:

أحدهما: تحديد القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام. وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركي العرب، بإلغاء معاهدتهم، ومنعهم من الحج، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس في قَبُول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب، وإباحة التعامل معهم.

ثانيهما: إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي (ص) حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزو الروم، وفي هذه الدائرة تحدّثت السورة عن المتثاقلين منهم، والمتخلّفين والمبطئين؛ وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد، وما قاموا به من أساليب النفاق.

وقد عرضت السورة من أوّلها للهدف الأول. واستغرق ذلك سبعاً وثلاثين آية في أول السورة، وقد تضمنت هذه الآيات ما يأتي:

(أوّلاً) تقرير البراءة من المشركين، ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم.

(ثانياً) منحهم هدنة، مقدارها أربعة شهور.

(ثالثاً) إعلام الناس جميعاً، يوم الحج الأكبر (وهو يوم عيد الأضحى) بهذه البراءة.

(رابعاً) إتمام مدة العهد، لمن حافظ منهم على العهد.

(خامساً) بيان ما يعاملون به، بعد انتهاء أمد الهدنة، أو مدة العهد.

(سادساً) تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله.

(سابعاً) بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم، وصدور الأمر بقتالهم.

(ثامناً) إزالة وساوس قد يخطر في بعض النفوس، أنها تبرّر مسالمة المشركين، أو الإبقاء على عهودهم.

رحمة الله بالعباد

لقد برئ الله من المشركين ومن فعالهم، لأنّ الشرك والكفر ظلم عظيم، وجحود بحق الله الخالق الرازق، الذي يستحق العبادة وحده، لكن الله سبحانه أمهل المشركين مدة أربعة أشهر، لتمكينهم من النظر والتدبير، لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم، من الدخول في الإسلام، أو الاستمرار على العداء.

ولعل الحكمة في تقدير تلك المهلة، بأربعة أشهر، أنها هي المدة التي كانت تكفي لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة في الأرض، والتقلّب في شبه الجزيرة، على وجه يمكّنهم من التشاور والأخذ والرد، مع كل من يريدون أخذ رأيه، في تكوين الرأي الأخير. قال تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

ومن رحمة الإسلام أيضاً، إباحة تأمين المشرك، وتقرير عصمة المستأمن، وقد أوجب الله على المسلمين حماية المستأمن، في نفسه وماله، ما دام في دار الإسلام، وجعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان، (فالمسلمون عُدُول يسعى بذمتهم أدناهم).

والإسلام يبيح، بهذا الأمان، التبادل التجاري والصناعي والثقافي، وسائر الشؤون مالم يتصل شيء منها بضرر الدولة. وقد كان للاسلام من مشروعية الأمان، وسيلة قوية لنشر دعوته، وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية، من غير حرب ولا قتال. قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

فالإسلام يمنح الجوار والأمان للمشرك، الذي يبحث عن الحقيقة، ويريد أن ينظر في الإسلام نظر تأمل ودراسة، فيسمح له بالدخول فيما بين المسلمين والتعامل معهم، والاختلاط بهم، حتى يفهم حكم الله ودعوته. فإن اطمأن ودخل الإيمان في قلبه، التحق بالمؤمنين، وصار في الحكم كالتائبين. وإن لم يُشْرَحْ صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى جماعته، حرم اغتياله، ووجبت المحافظة عليه، حتى يصل مكان أمنه واستقراره.

وبذلك بلغ الإسلام شأواً بعيداً في حماية الفكر والنظر، وتذليل الطريق أمام الباحثين والمفكّرين، وحمايتهم حتى يصلوا إلى مواطن الأمان، أيّاً كانت معتقداتهم، وصدق الله العظيم:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

غزوة تبوك

في السنة التاسعة من الهجرة، وصلت للرسول (ص) أنباء، تفيد أن

الروم قد جمعوا جموعهم، واعتزموا غزو المسلمين في بلادهم، فأمر النبي (ص) أن يتجهز المسلمون، وأن يأخذوا عُدَّتَهُمْ، ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم في بلادهم، قبل أن يفاجئوه في بلده.

أعلن النبي (ص) النفير العام، وكان قَلَّما يخرج إلى غزوة، إلا ورّى بغيرها، مكيدة في الحرب، إلا ما كان من هذه الغزوة ـ غزوة تبوك ـ فقد صرّح بها لبعد الشُقَّةِ، وشدة الزمان، إذ كان ذلك في شدة الحرّ، حين طابت الظلال، وأينعت الثمار، وحبّب إلى الناس المقام.

عندئذ وجد المنافقون فرصة سانحة، للتخذيل فقالوا: لا تنفروا في الحر، وخوّفوا الناس بُعْدَ الشُقَّةِ وحذروهم شدّة بأس الروم. وكان لهذا كله، أثره في تثاقل بعض الناس، عن الخروج للجهاد.

كذلك أخذ المنافقون يستأذنون في التخلف عن الغزو، معتذرين بالأعذار الكاذبة الواهنة، كما دبّر بعضهم المكائد للنبي (ص) في ثنايا الطريق.

ولم يكن بدٌّ من هذا الامتحان ليكشف الله المنافقين، ويثبّت المؤمنين الصادقين، فالشدائد هي التي تكشف الحقائق، وتظهر الخبايا.

وقد ظهر الإيمان الصادق، من المؤمنين المخلصين، فسارعوا إلى تلبية الدعوة بأموالهم وأنفسهم، يجهّزون الجيش، ويعدون العُدّة، وقد خرج أبو بكر حينئذ عن كل ما يملك، كما قام بنصيب الأسد في التجهيز عثمان بن عفان، بذل الآلاف، وجهّز المئات من البعير والخيل، وجهّز هو وغيره الفقراء الأقوياء، الذين جاءوا إلى النبي(ص) بأنفسهم، ليحملهم، فقال لهم كما ورد في التنزيل:

﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [الآية ٩٢].

ثم يستمر سياق سورة «التوبة» في الحديث عن المنافقين، وما يظهر منهم من أقوال وأعمال تكشف عن نواياهم، التي يحاولون سترها فلا يستطيعون؛ فمنهم من ينتقد النبي (ص) في توزيع الصدقات، ويتّهم عدالته في التوزيع، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم؛

ومنهم من يقول هو أُذُنٌ يستمع لكل قائل، ويصدّق كل ما يقال. ومنهم من يتخفّى بالقولة الفاجرة الكافرة، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف، ليبرئ نفسه من تبعة ما قال؛ ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة، تفضح نفاقهم، وتكشفهم للمسلمين.

ثم تقارن «السورة» بين المنافقين والمؤمنين، لتبيّن الفرق الواضح بين صفات المنافقين، وصفات المؤمنين الصادقين، الذين يخلصون للعقيدة ولا ينافقون؛ فقد خرج المؤمنون للجهاد مع رسول الله (ص) وقطعوا مسافة طويلة في الصحراء الجرداء، تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو متراً. وكان المؤمنون يتدافعون إلى الجهاد، ويشتاقون إلى الشهادة. ولمّا أحس الروم بقدوم المسلمين، انسحبوا من أطراف بلادهم الى داخلها، فلمّا وصل المسلمون إلى تبوك، لم يجدوا للروم أثراً. وقد عقد النبي (ص) معاهداتٍ مع أمراء الحدود، وعاد إلى المدينة مرهوب الجانب، محفوظاً بعناية الله.

وقد استقبل النبي (ص) المتخلّفين عن الجهاد في غزوة تبوك، فمنهم أصحاب الأعذار الحقيقية، وهؤلاء معذورون مُعْفَوْنَ من التَّبِعَةِ؛ ومنهم القادرون الذين قعدوا بدون عذر، فعليهم تَبِعَةُ التخلف، وَوِزْر النكوص عن الجهاد.

ثم تمضي سورة التوبة، فتتحدث عن الأعراب، فَتَذْكُر طبيعتهم، وصنوفهم، ومواقفهم من الإيمان والنفاق.

ثم تقسم الجماعة الإسلامية كلّها عند غزوة تبوك، وبعدها، إلى طبقاتها ودرجاتها، وفق مقياس الإيمان والأعمال:

فهناك السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان؛

وهناك المنافقون الذين تمرّسوا بالنفاق، وتعوّدوا عليه، سواء أكانوا من الأعراب، أم من أهل المدينة؛

وهناك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيّئاً، واعترفوا بذنوبهم؛ وهناك الذين أخطأوا وأمرهم متروك لله، إمّا يعذّبهم، وإمّا يتوب عليهم؛ وهناك فئة أخلصت لله في الإيمان، وتخلّفت من غير عذر، ثم ندمت ندماً عميقاً، وضاقت الدنيا في وجهها، ولجأت إلى

الله، تطلب مغفرته ورحمته، فتاب الله عليهم، وألهمهم طريق التوبة والسداد، إن الله هو التواب الرحيم.

علاقات المسلمين بغيرهم

سورة التوبة، هي آخر سُوَر القرآن نزولاً؛ وفي هذه السورة نجد القول الفصل في علاقات الأمة المسلمة بالمشركين، وبأهل الكتاب، وبالمنافقين؛ وهذا هو موضوعها الذي تدور حوله.

لقد كانت بين المسلمين وبعض المشركين عهود، ولم يكن المشركون يحافظون على عهودهم، إلاّ ريثما تلوح لهم فرصة، يحسبونها مؤاتية للكرّة على المسلمين، وكان المشركون، حتى بعد فتح مكة، يطوفون بالبيت عرايا، على عادتهم في الجاهلية، ويصفّقون، ويصفرون، مُخلّين بكرامة البيت العتيق، فلم يكن بدّ من أن تُخلِص الجزيرة العربية للإسلام، وأن تتخلّص من الشرك.

والجهاد، هو الوسيلة لتطهير الجزيرة من رجس المشركين والمنافقين؛ ثم تناولت السورة موضوع الجهاد بالنفس، والمال، وبيّنت شرفه وأجره. وأنحت على المتخلّفين القاعدين، واستجاشت وجدان المسلمين الى قتال الكفار المنافقين، بما صوّرت من كيدهم للمسلمين، وحقدهم عليهم، وتمني الشر لهم، وما تحمله نفوسهم من الخصومة والبغضاء، وما وقع منهم للرسول (ص) ومن معه من المؤمنين؛ وبذلك كانت سورة التوبة، تحمل القول الفصل في علاقات المسلمين بغيرهم، وتحدّد موقفهم الحاسم الأخير.

وقد لوّنت السورة أساليب الدعوة إلى الجهاد، فحيناً تنكر على المؤمنين تثاقلهم وإخلادهم إلى الأرض، وحيناً آخر تهتمّ بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان، ومرة أخرى توضح أن سنة الله ماضية لا تتخلّف؛ وأن من قوانين الحق سبحانه، أنّ البقاء والعزة والسلطان، إنّما هو يكون للعاملين المجاهدين؛ أمّا المتباطئون والمتثاقلون، الذين يؤثرون حياتهم، ويضنّون بأنفسهم وأموالهم، ويخلدون إلى الأرض، ويعرضون عن دعوة الجهاد في سبيل حريتهم وبقائهم، فإنهم لا بُدَّ ذاهبون، وهم لا محالة مستذلّون مستعبدون.

فضل الرسول الأمين

تعرّضت سورة التوبة، لبيان فضل رسول الله (ص) ومكانته السامية، ومناقبه الكريمة؛ فذكرت أن الله سبحانه أنزل السكينة عليه، وأيّده بجنود من الملائكة في يوم «حُنين»، حين انهزم المؤمنون، وَوَلّوا مُدْبِرين.

ومن كرامة الرسول (ص) أن الله نصره عند الهجرة مع صاحبه الصِّدّيق، وكان الله معهما بتأييده وإنزاله الطمأنينة والأمان عليهما؛ وحِفْظِهما في الغار، حتّى عميت عنهما عيون الكفار؛ وجَعَلَ الله كلمة المؤمنين في ارتفاع وانتصار، وشأن الكافرين في هزيمة واندحار؛ وقد فرضت سورة التوبة على المؤمنين عدة واجبات، تجاه نبيهم منها:

١ ـ محبّته (ص) والتزام هديه، والعمل بسنّته، كما نجد ذلك في الآية ٢٥.

٢ ـ تحرّي مرضاته، لأن رضاه من رضا الله سبحانه، ونجد ذلك في الآية ٦٢.

٣ ـ وجوب طاعته، والنصح له، ووجوب نصره.

٤ ـ تحريم إيذائه، وتحريم معاداته، وتحريم القعود عن الخروج معه في الجهاد.

وتختم السورة آياتها بذكر صفات رسول الله (ص). فهو الرحمة المُهْداة، لتطهير المؤمنين، وتَزْكِيَتهم، وتعليمهم، والدعاء لهم؛ فحبُّه فريضة، وبغضه كفر وحرمان. وقد تَكَفَّل الله بنصر رسوله، حتى ولو تخلى عنه جميع الناس، فإن معه الله القوي القدير، قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «التوبة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة التوبة بعد سورة المائدة، وكان نزولها في ذي القعدة أو ذي الحجّة من السنة التاسعة للهجرة، وكان النبي (ص) أرسل أبا بكر في أخريات ذي القعدة لِيَحُجَّ بالناس، فنزلت هذه السورة بعد سفره، وفيها نبذ العهود للمشركين جميعهم الذين لم يفوا بعهودهم، فأرسل بها عليّاً ليبلّغها إلى الناس في يوم الحج الأكبر، فلحق أبا بكر في الطريق، ثم أبلغها الناس في ذلك اليوم، ثم نادى: لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيتِ عُريان. فتكون سورة التوبة، من السور التي نزلت بين غزوة تبوك ووفاة النبي (ص).

وقد سميت هذه السورة باسم التوبة، لأنه ذكر في الآيتين: ١١٧ و١١٨، توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة، بعدما ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ١١٧]، وعلى الثلاثة الذين خلّفوا في غزوة تبوك، وتبلغ آياتها تسعاً وعشرين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت هذه السورة لتحديد علاقة المسلمين بأعدائهم في آخر عهد النبوّة، وكان أعداؤهم على ثلاثة أقسام: أوّلها مشركو العرب، وقد نبذت في هذه السورة عهود الذين لم يفوا بعهودهم منهم، وأمهلوا فيها أربعة

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز - المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

أشهر يسيحون في الأرض، وأتمّ فيها عهد من وفى بعهده إلى مدته، لتخلص جزيرة العرب للمسلمين وحدهم. وثانيها من حاربهم من اليهود والنصارى، وقد أمروا فيها بقتالهم وقبول الجزية منهم إذا سالموهم. وثالثها المنافقون، وقد فضحوا فيها، وكشفت أسرارهم، وأمر المسلمون بمقاطعتهم والبعد عنهم. وتنقسم هذه السورة في ذلك الى قسمين: أوّلهما في الكلام على المشركين وأهل الكتاب، وثانيهما في الكلام على المنافقين؛ وقد استُطرِدَ في أثناء ذلك إلى بعض الحوادث التي وقعت في تاريخ نزول هذه السورة، كغزوة حنين وغزوة تبوك.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة الأنفال، لِمَا سبق من أنهما يُعَدّان كسورة واحدة تُتَمّم السبع الطوال؛ وقد ذهب كثير من الصحابة إلى أنهما سورة واحدة، وجعل هذا هو السبب في ترك التسمية في أول هذه السورة؛ ومما يذكر في المناسبة بين السورتين، أن سورة الأنفال ذُكرت فيها العهود، وسورة التوبة ذُكر فيها نَبْذُ العهود؛ وأن سورة الأنفال، خُتِمت بفرض الموالاة بين المؤمنين، وقطعها بينهم وبين الكفار؛ وقد افتُتحت بهذا سورة التوبة؛ وأن قصة سورة التوبة، تشبه قصة سورة الأنفال، لأن كلاًّ منهما نَزَلَ في القتال.

الكلام على المشركين وأهل الكتاب
الآيات (١ ـ ٣٧)

قال الله تعالى ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١)﴾.

فأوجب البراءة من عهود المشركين، وأباح لهم أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر، وأمر أن يؤذنوا بهذا يوم الحجّ الأكبر؛ فإن تابوا في مدة إمهالهم فهو خير لهم، وإن أصرُّوا على كفرهم فلن يعجزوا الله في دنياهم، ولهم في الآخرة عذاب أليم؛ ثم استثنى منهم الذين كان لهم عهد ولم ينقضوه، فأمر أن يتمّ لهم عهدهم إلى مدّتهم، ثمّ أمر بقتالهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم حيث وجدوا، فإن تابوا كفّ عن قتالهم؛ ثم أمر النبي (ص) أن يجير من استجاره منهم حتّى يسمع كلامه، وأن يبلغه بعد هذا مأمنه من دار قومه، ويكون حكمه في القتال كحكمهم؛ ثم أنكر السياق أن يكون لأولئك المشركين عهد عند

النبي (ص)، واستثنى منهم الذين عاهدهم عند المسجد الحرام، فأمر سبحانه أن يستقيموا لهم ما استقاموا لهم، ثم عاد السياق فأنكر أن يكون لأولئك المشركين عهد، وهم إن يظهروا على المؤمنين لا يَرْعَوْا فيهم عهداً، لأنهم غير مخلصين في عهدهم، وأكثرهم فاسقون لاقيمة للعهد عندهم؛ ثم ذَكَر من فسقهم أنهم آثروا الكفر على الإيمان بثمن قليل من متاع الدنيا، وأنهم لا يرقبون في مؤمن عهداً، وأنهم هم المعتدون على المسلمين؛ ثم ذكر أنهم إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فهم إخوانهم في الدين؛ وأنهم، إن نكثوا أيمانهم من بعدهم وجب قتالهم ونَقْضُ عهدهم، لأنهم لا أيمان لهم.

ثم ذكر في تسويغ قتالهم، أنهم نكثوا أَيمانَهم وهمُّوا بإخراج الرسول من مكة، قبل أن يهاجر منها، وبدأوا المسلمين بالقتال ظلماً وعدواناً؛ ثم أمرهم بقتالهم ليعذّبهم سبحانه بأيديهم ويخزيهم، وينصرهم عليهم، ويشفي صدورهم منهم؛ وذكر أنه لم يكن ليتركهم، من غير أن يميز بالجهاد بين الصادقين في إيمانهم وغيرهم، ولم يكن ليترك المشركين يعمرون المسجد الحرام بكفرهم، لأن الأحقّ بعمارته الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة؛ ثم أنكر على المشركين أن يُسَوُّوا بين ذلك، وما يقومون به من سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام؛ وحكم بأن المؤمنين أعظم درجة عنده منهم.

ثم نهى المؤمنين بعد البراءة من عهود الكفار، أن يتّخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء، إن آثروا الكفر على الإيمان؛ وأوعدهم إن آثروا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم وتجارتهم، عليه وعلى رسوله والجهاد في سبيله، أن يتربّصوا حتى يأتي سبحانه بأمره؛ ثم ذكر أنه جلّ جلاله نَصَرَهم في مواطن كثيرة لِيؤْثِروه على غيره؛ وخصّ من هذه المواطن يوم حُنَين، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تُغنِ عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت ثم ولُّوا مدبرين. ثم أنزل سكينته على النبي ومن ثبت معه، وهزم أعداءهم؛ ثم ذكر أنه يتوب على من يشاء منهم، والله غفور رحيم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿...ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أمرهم أن يقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحقّ من أهل الكتاب، حتى يُعْطوا الجزية؛ وكانوا قد حاربوهم، وانضموا إلى المشركين عليهم؛ ثم أثبت ما ذكره من كفرهم، بأن اليهود يقولون عزير ابن الله، والنصارى يقولون المسيح ابن الله، يضاهئون المشركين قبلهم، في زعمهم أن له أولاداً من الملائكة وغيرهم؛ وأثبته أيضاً باتّخاذهم أحبارَهم ورهبانهم أرباباً يطيعونهم من دونه سبحانه، ثم ذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نوره، وهو دين الإسلام، بأفواههم، لِيُسوِّغ ما أمر به من قتالهم؛ ثم ذكر أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم لَيأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدونهم عن سبيله؛ وأن الذين يكنزون منهم الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيله، لهم عذاب أليم ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ختم الكلام على الفريقين، ببيان ما يَحِلُّ القتال فيه، وما يَحْرُم من شهور السنة، فذكر أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً، وأنّ منها أربعةً حُرُماً، يُحَرّم القتال عليهم فيها، ويجب عليهم قتال المشركين كافّة فيما عداها، كما يقاتلونهم كافة؛ ثم حُرّم عليهم النَّسِيء، وهو تأخير الأشهر الحرم عن مواضعها من السنة، إذا صادفتهم وهم في حرب، أو لم يوافق الحج فيها موسم تجارتهم، ليواطئوا عدة ما حَرّم الله ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية ٣٧].

الكلام على المنافقين
الآيات (٣٨ ـ ١٢٩)

ثم قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٣٨]، فذكر ما حصل من المنافقين في غزوة تَبُوك، وكانت في وقت الصيف وشدّة الحر؛ وما حصل في غزو

الروم، وهي دولة قوية ليست كمن قاتلوهم من قبائل العرب، فتثاقل عنها المنافقون واستعظموا غزو الروم، وأثروا في بعض المؤمنين، وقد بدأ بلومهم على تثاقلهم، إذا قيل لهم انفروا في سبيله، وإيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ ثم ذكر أنهم إلاّ ينفروا يعذّبهم، ويستبدل قوماً غيرهم، ولا يضرّوا النبي (ص)، وأنهم إلاّ ينصروه فقد نصره في هجرته من مكة ثاني اثنين، وقد جَزِع رفيقه وهما في الغار أن يدركهما المشركون، فقال له كما ورد في التنزيل ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [الآية ٤٠] فأنزل سكينتَهُ عليه، وأيّدهُ بجنود من عنده، وجعل كلمةَ الكافرين السّفلى، وكلمتَهُ هي العُلْيا؛ ثم أمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم؛ ورغّبهم في ذلك، بأنه خير لهم لو كانوا يعلمون؛ ثم عاد السياق إلى توبيخهم على تثاقلهم، فذكر سبحانه، أنه لو كان دعاهم إلى عَرَضٍ قريب من الدنيا، أو سفر سهل لاتّبعوه طمعاً في منافع الدنيا، ولكن طال السفر عليهم في هذه الغزوة، وأيِسُوا من الفوز بالغنائم، فتثاقلوا عنها، وسيحلفون بالله، أنهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الآية]، ثم عاتب تعالى النبي (ص) على إذنه لهم بالقعود، وكان من الخير ألاّ يأذن لهم، حتّى يعلم الصادقين في عذرهم من الكاذبين؛ ثم ذكر أن الذين يؤمنون به وباليوم الآخر، لا يستأذنون في الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأنهم يعلمون عظيم ما أُعِدّ لهم في ذلك اليوم، إذا استُشْهِدُوا في الجهاد، وإنما يستأذن في الجهاد الذين لا يؤمنون بذلك من المنافقين؛ ولو أنهم أرادوا الخروج، لأعدوا له عُدَّتَهُ، وخرجوا مع المجاهدين؛ ولكنه علم المصلحة في عدم خروجهم، فثبّطهم عن الخروج؛ ولو خرجوا، لأوقعوا الفتنة في صفوف المسلمين، وأطْلَعوا أعداءهم على أسرارهم، كما فعلوا مثل هذا من قبل، في غزوة أُحُد وغيرها.

ثم قسّمهم في النفاق إلى أقسام، أولها: الذين إذا طُلبوا للجهاد ذهبوا إلى النبي (ص) وعرضوا عليه أن يعينوه بأموالهم، على أن يأذن لهم في القعود، ولا يفتنهم بعدم الإذن؛ فسقطوا في الفتنة من حيث يُظْهِرون البراءة منها. ثم ذكر السياق بعد هذا،

أنـه إن أصـاب الـرسـول (ص) فـوزٌ ساءَهُم، وإن أصيب بمكروه، فرحوا بـحـذرهـم وعـدم خـروجـهـم؛ وأمـر الـنـبي (ص) أن يـذكـر لـهـم، أنـه لـن يصيب المسلمين إلا ما كُتِبَ لهم؛ وأنـهـم لا يـتـربـصـون بـهـم إلا إحـدى الحسنيين: النصرة أو الشهادة؛ أمّا هم فسيـصـابون بعذاب من عند الله، أو بأيدي المسلمين؛ ثم ذكر لهم أنّ ما ينفقونه طوعاً أو كَرْهاً، ليقعدوا في نظيره عن القتال، لن يتقبله منهم لِفِسْقهم، وكفرهم، وعدم إخلاصهم في صلاتـهـم وإنـفـاقـهـم؛ ثـم نَـهَـى الـنـبيَّ (ص) أن تـعـجـبـه أمـوالـهـم وأولادهم، لأنه يريد أن يُعذِّبهم بها في الدنيا، بإنفاقها فيما يكرهون، وهو أشَقّ شيءٍ عليهم؛ وَتَزْهَقَ أنفسهم، وهـم كـافرون، فيـعـذبون في الآخـرة أيضاً. ثم ذكر أنهم، مع هذا، يحلفون أنهم من المسلمين، وما هم منهم، ولكنهم قوم جبناء، يَفْرَقُونَ من الجهاد ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وثـانـيـهـا: الـذيـن يـطـعـنـون عـلـى النبي (ص) في الصدقات المفروضة، ويزعمون أنه يخص بها أقاربه وأهل مودته؛ فإن أعطوا منها، رضوا؛ وإن لم يعطوا، سخطوا؛ ولو أنهم رَضُوا بقسمة الله ورسوله فيها، ونصيبهم منها، لكان خيراً لهم؛ ثم ذكر في الجواب عن طعنهم، أنّ هذه الصدقات لها مصارف معلومة، من الفقراء ومَنْ ذكرهم، وهي مصارف لا تراعى فيها قرابة ولا مودة، وإنّما تراعى فيها المصلحة والحاجة.

وثالثها: الذين يُؤْذون النبي (ص) ويقولون هو أُذُنٌ، لأنه يسمع ما يقال فيهم؛ وقد أمره سبحانه أن يذكر لهم أنه أذنُ خيرٍ لهم، لأنه يؤمن بالله ويخافه، فلا يقدم على أذى أحد، ولا يسمع إلا للمؤمنين الصادقين، الذين يريدون المصلحة بنقل أخبارهم؛ ثم ذكر أنهم إذا بلغ عنهم ما يقولون، يحلفون للمسلمين أنهم لم يقولوه لِيُرْضُوهم، والله ورسوله أحق أن يرضوه، بترك ما يقولونه من الإثم؛ ثم ذكر أنهم حين يفعلون ذلك، يحذرون أن تنزل عليهم سورة تفضحهم به؛ وأَمَرَ النبيَّ (ص) أن يأمرهم بأن يفعلوا ما يفعلونه من الاستهزاء به وغيره، فإن الله مُخْرِجٌ ما يحذرون من أسرارهم،

بهذه السورة التي أنزلها فيهم؛ ثم ذكر أنه إذا سألهم عما يبلغ عنهم، اعتذروا عنه، بأنه كان على وجه اللعب لا على وجه الجِدّ، وردّ عليهم بأنه لا محلّ لِلّعب في أمر الله وآياته ورسوله، إلى غير ذلك ممّا ذكره في الردّ عليهم؛ ثم ذكر أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض، فلا يوالي بعضهم إلاّ بعضاً، لأنهم يستأمرون بالمنكر ويَنْهَوْن عن المعروف، إلى غير هذا ممّا لا يصحّ موالاتهم عليه.

ثم ذكر سبحانه، أنه أعدّ لهم على ذلك نار جهنّم خالدين فيها؛ وذكر أنه سينالهم ما نال مَنْ كان قبلهم، ممّن كانوا أشدّ منهم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وغيرهم.

ثم ذكر أن المؤمنين يجب أن يكون بعضهم أولياء بعض، لأنهم يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر على عكس ما يفعله المنافقون؛ وذكر ما أُعدّ لهم من الثواب، كما ذكر ما أُعدّ للمنافقين من العذاب؛ ثم أمر النبي (ص) أن يجاهدهم بالتغليظ والتشديد عليهم، ثم أعاد السياق ما ذكره سبحانه، من حلفهم وإنكارهم ما يقولونه بعد الأمر بجهادهم، ليؤكد ثانياً أنهم قالوه.

ورابعها: الذين عاهدوا الله إن أغناهم أن يتصدّقوا من أموالهم، فلمّا آتاهم ما طلبوا بَخِلُوا بصدقاتهم، فجازاهم على ذلك بأن أعقبهم نفاقاً لا يفارقهم الى يوم القيامة، وهددهم بأنه يَعْلَم سرّهم ونجواهم ولا يخفى عليه، جلّت قدرته، شيء من أحوالهم؛ ثم ذكر أنهم مع بخلهم بالصدقات يطعنون المطّوعين من المؤمنين فيها، والذين لا يجدون ما يتصدقون به إلا جُهْدَ المقلّ، فَيَسْخَرون منهم ويزعمون أنهم يقصدون الرياء والسمعة، وأن الله غنيّ عن صدقة المقلّ منهم؛ ثم ذكر أنه جازاهم سخرية بسخرية، ولهم عذاب أليم، ونهى النبي (ص) أن يستغفر لهم كما يستغفر للمسلمين؛ وذكر أنه لا يغفر لهم، ولو استغفر لهم سبعين مرة، لأنهم كفروا به وبرسوله وهو لا يهدي القوم الفاسقين.

ولما انتهى السياق من بيان أقسامهم، عاد إلى أصل الكلام في تثاقلهم وتخلّفهم عن غزوة تبوك، فذكر ما كان من فرحهم بتخلّفهم، وكراهتهم للجهاد

بأموالهم وأنفسهم، وتثبيطهم الناس عن هذه الغزوة؛ وأوعدهم الله وسبحانه، على ذلك بما أوعدهم به، ثم أمر النبي (ص) ألاّ يأذن لهم في الخروج بعد ذلك إذا استأذنوه فيه، وألاّ يشركهم معه في قتال عدو، ونهاه نهياً قاطعاً أن يصلّي على أحد منهم مات، وأن يقوم على قبره؛ وأن تمتدّ عينه إلى أموالهم وأولادهم، كما كان يفعل قبل ذلك من أخذ أموالهم، وقبول تخلفهم؛ ثم وبّخ أصحاب الأموال منهم على ما كانوا يفعلونه من ذلك، ورضاهم بأن يقعدوا مع الخوالف من النساء والولدان؛ ثم ذكر أن الرسول والمؤمنين على خلاف ما يفعل أولئك المنافقون، وأنه أعدّ لهم على ذلك ما أعدّ من جنات النعيم.

ثم شرع السياق في بيان ما حصل من منافقي الأعراب في تلك الغزوة، وكان ما سبق في منافقي المدينة، فذكر، جلّت قدرته، أن المعذِّرين منهم جاءوا لِيؤذَنَ لهم في القعود، وهم الذين يعتذرون بلا عذر، وأن بعضهم قعد ولم يعتذر جراءة على الله ورسوله؛ فأوعدهم سبحانه، بأنهم سيصيبهم عذاب أليم؛ ثم نفى الحرج عَمَّن قعد بعذر لضعفه أو لأنه لا يجد الأهبة والزاد والراحلة، فهؤلاء ليس عليهم من سبيل، والله غفور رحيم، إنما السبيل على الذين يستأذنون وهم أغنياء، ولا ضعف فيهم؛ ثم ذكر أنهم سيعتذرون إليهم بعد رجوعهم من الغزو، ونهى النبي (ص) عن قبول عذرهم؛ وذكر أنهم سيحلفون لهم أنهم لم يقدروا على الخروج، ليعرضوا عنهم ولا يوبّخوهم؛ وأمرهم أن يعرضوا عنهم، إعراض مقت وسخط؛ ثم ذكر أن منافقي الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وجهلاً من منافقي المدينة؛ وأن منهم من يعتقد أن ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، ويتربص بالمسلمين الدوائر بظهور أعدائهم عليهم؛ ثم ذكر أن من الأعراب من يُخْلص في إيمانه، وأنه سيدخلهم في رحمته؛ وأن السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان، لهم درجات أعلى منهم، لأن الأعراب، وإن أخلصوا في إيمانهم، ليس لهم مثل سبقهم وجهادهم.

ثم ذكر أن من الأعراب وأهل

المدينة منافقين مَرَدُوا على النفاق؛ وأن النبي (ص) لا يعلمهم، وهو سبحانه، يعلمهم، وسيعذّبهم مرتين في الدنيا والآخرة؛ وأن منهم آخرين اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً؛ وذلك بخروجهم مع النبي (ص) في سائر الغزوات، وتخلّفهم في هذه الغزوة؛ وأنه قد قَبِل توبتهم، وغفر لهم؛ وكانوا قد تأخّروا عن تقديم زكواتهم قبل توبتهم، فأمر النبي (ص) أن يأخذها منهم، لتتمّ توبتهم بها؛ ثم ذكر أنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات ترغيباً فيها لمن لم يَتُبْ، وأمرهم أن يعملوا الصالحات، لتكفّر ما مضى من سيئاتهم؛ وأخبرهم بأنه يرى عملهم، ترغيباً وترهيباً لهم؛ ثم ذكر أن منهم آخرين ندموا على ما فعلوا، ولكنهم أحجموا عن الحضور الى النبي (ص)، وإظهار التوبة، خوفاً منه أو خجلاً واستحياءً، وأنهم مُرْجَوْنَ لأمره، فإما يُعذِّبُهم وإمّا يوفّقُهم لتكميل التوبة، لأن الندم وحده لا يكفي فيها، ثم ذكر أن منهم الذين اتخذوا مسجداً قبيل غزوة تبوك، يضارّون به مسجد قباء، ويفرّقون به بين المؤمنين؛ ونهى النبيَّ (ص) أن يُصَلّي فيه، وذكر أن مسجد قباء الذي أسس على التقوى، من أول يوم، أحقّ بذلك وأجدر؛ وكان قد أمر النبي (ص) بتخريبه، فذكر أنه لا يزال بنيانهم بعد تخريبه ريبة في قلوبهم، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ولما انتهى من ذكر ما فعلوه في تلك الغزوة، ذكر أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، بأنّ لهم الجنة، فلا يصحّ لمسلم أن يبخل بنفسه ومالِه في الجهاد، كما يبخل أولئك المنافقون، وأنه وعد المجاهدين بذلك وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ولا يوجد من هو أوفى بعهده منه. ثمّ أمرهم أن يستبشروا بذلك البيع الرابح، وأخبرهم بأن ذلك هو الفوز العظيم، ومدحهم بأنهم التائبون العابدون، إلى غير ذلك من الصفات التي امتازوا بها على المنافقين، وجعلتهم يبذلون أنفسهم وأموالهم، في سبيل الله، راضين مطمئنين.

ثم نهى النبي (ص) والمؤمنين عن الاستغفار لأولئك المنافقين بعد أن بيّن ما حصل منهم، لأن هذا أشد

عقوباتهم، فكرر النهي عنه تأكيداً له، وذكر انه لا يصح أن يقتدوا، في هذا، باستغفار إبراهيم لأبيه، لأنه لم يستغفر له إلاّ بعد أن وعده أن يؤمن ، فلما لم يَفِ بوعده تبرّأ منه، وترك الاستغفار له؛ ثم ذكر أنه لا يؤاخذهم بما سبق منهم فيضلّهم، لأنه لا يؤاخذ قوماً بعد إذ هداهم، حتى يُبَيِّنَ لهم ما يتّقون، ثم ذكّرهم بكمال علمه، وواسع ملكه، لينقادوا لنهيه، ويستغنوا به، عن أولئك المنافقين.

وكان قد حصل من النبي (ص) والمؤمنين بعض ما يؤاخَذون عليه في تلك الغزوة، كإذنه (ص) للمنافقين في القعود، وتأثر بعض المؤمنين بتثبيط المنافقين. فذكر أنه تاب عليهم من تلك الزلات؛ وعلى الثلاثة الذين تخلّفوا منهم، ثم ندموا وتابوا، وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، فتاب عليهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنّوا أنْ لا ملجأ من الله إلاّ إليه؛ وأمرهم بأن يتّقوه، ويكونوا مع الصادقين.

ثم ذكر أنه ما كان لأهل المدينة، ومن حولهم من الأعراب، على العموم، أن يتخلفوا عن النبي (ص)، لأنهم لا يصيبهم شيء في الجهاد، ولا ينالون ظَفَراً على العدو، إلاّ كُتِبَ لهم به عمل صالح، ولا ينفقون نفقة، ولا يقطعون وادياً إلاّ كُتِبَ لهم؛ ثم ذكر أنه لا يكلفهم كلّهم أن ينفروا إلى النبي (ص)، وإنّما يكلفهم أن تنفر من كل فرقة منهم طائفة إليه، ليتفقّهوا في الدين، ويشاركوه في الجهاد، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ثم أمر المؤمنين أن يقاتلوا الذين يَلُونَهم من الكفار، وهم المنافقون؛ وقد أمر النبي (ص) بجهادهم فيما سبق، فأعاده تأكيداً له، والمراد من قتالهم، أن يظهروا العداوة لهم بالتشديد والتغليظ عليهم كما سبق؛ ثمّ حرّضهم عليهم، فذكر أنهم إذا أُنزلت سورة من القرآن، فمنهم من يقول: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [الآية ١٢٤] وأجاب عن قولهم بأن المؤمنين يزدادون بها إيماناً. وأما هم فيزدادون بها نفاقاً إلى نفاقهم؛ ثم وبّخَهُمْ بأنهم يفتنون في نفاقهم ﴿كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ

يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ . ومنهم من ينظر عند نزولها، هل يراه أحد إذا انصرف كراهة لسماعها، ثم ينصرفون إلى دورهم ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ .

ثم ذكر لهم من أمر النبي (ص) ما لا يصحّ معه أن ينافقوه، وهو أنه رسول لهم من أنفسهم، عزيز عليه ما هم فيه من العنت، حريص عليهم بالمؤمنين، رؤوف رحيم ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ .

أسرار ترتيب سورة «التوبة»[*]

أقول: قد عرف وجه مناسبتها، ونزيد هنا أن صدرها[1] تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال/ ٥٨]. وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله سبحانه هناك: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/ ٦٠]. ولذا قال هنا في قصة المنافقين: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا﴾ [الآية ٤٦].

ثم إن بين السورتين تناسباً من وجه آخر، وهو: أنه سبحانه، في الأنفال، تولّى قسمة الغنائم، وجعل خُمُسَها خَمْسة أخماس[2]، وفي براءة تولّى قسمة الصدقات، وجعلها لثمانية أصعاف[3].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

(١) صدر السورة: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ إلى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [الآيات ٣ ـ ٥].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال/ ٤١].

(٣) وذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾.

مكنونات سورة «التوبة»(*)

١ - ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ①﴾.

سَمَّى مِنْهم مُجاهِدٌ: خُزاعة، ومُدلجاً. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[1].

٢ - ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الآية ٢].

قال الزُّهري: نَزلَتْ في شوّال؛ (الأربعة أشْهُرٍ)[2] شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم[3].

وقال مُجاهد: هي من عشرين من آخر ذي الحِجّة، الى عَشَرَة تخلو من ربيع الآخر.

أخرجهما ابن أبي حاتم.

ويؤيد الأولى قوله تعالى ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [الآية ٥].

٣ - ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [الآية ٣].

فُسِّرَ في أحاديث مرفوعة بـ «يَوْم النَّحْرِ».

أخرج ذلك التِّرمذي من حديث

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) وابن جرير ١٠, ٤٤، وابن أبي شيبة، وابن المنذر. «الدر المنثور» ٣/ ٢٠٩. وسقط من هذه الفقرة حتى نهاية الفقرة رقم ٢١٩ من النسخ المطبوعة.

(٢) زيادة من «الدر المنثور» ٣/ ٢١١. و«الطبري».

(٣) أخرجه ابن جرير ١٠/ ٤٥، وعبد الرزاق، والنحّاس. «الدر المنثور».

عَلِيّ، وعَمْرو بنِ الأحْوص[1]؛ وابنُ جرير[2] من حديث ابن عمر.

وأخْرَجَهُ عن ابن عباس، والمُغيرة بن شُعْبَة موقوفاً.

وروى ابن أبي حاتم عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة أنه: يوم عرفة.

وأخرج مثله عن عمر، وابن عباس موقوفاً.

وأخرجه ابن جرير[3] عن علِيّ، وابن الزُّبَيْر.

وقال سعيدُ بن المُسَيّب: هو: اليوم الثاني من يوم النَّحْر.

أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٤ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية ٤].

قال ابنُ عباس: هم قريش.

وقال محمد بنُ عباد بن جعفر: هم بنو جذيمةَ بن عامر، من بني بكر بن كنانة[4].

وقال مجاهد: بنو مَذْحج، وخُزاعة.

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

٥ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الآية ٧].

قال ابن عباس: هم قريش. أخرجه بن أبي حاتم.

٦ ـ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [الآية ١٢].

قال قتادة: هم أبو سفيان، وأبو جهل، وأميّة بن خلف، وسهيل بن عمرو، وعُتْبة بن ربيعة. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[5].

---

(١) حديث علي في الترمذي برقم (٣٠٨٨) ورجح أنه موقوف، وفي إسناده (الحارث الاعور) متكلم فيه. وحديث ابن الاحوص في الترمذي برقم (٣٠٨٧) أيضاً وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٠٥٥) وانظر «فتح الباري» ٨/ ٣٢٠.

(٢) ١٠/ ٥٢ ـ ٥٣، والبخاري ٣/ ٥٧٤ تعليقاً، وأبو داود (١٩٤٥)، وابن ماجه (٣٠٥٨)، والبَيْهقي ٥/ ١٣٩، والحاكم ٢/ ٣٣١، والطَّبراني في «المعجم الصغير» ٢/ ١١٩.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وأقره الذهبي.

(٣) ١٠/ ٤٩.

(٤) المثبت من «الدر المنثور» وانظر: «جمهرة النسب» للكلبي ١/ ٢٠٨، و«تفسير الطبري» ١٠/ ٥٨.

(٥) والحاكم ٢/ ٣٢٢ عن ابن عمر وصححه، وأقره الذهبي. قال الحافظ في «فتح الباري» ٨/ ٣٢٣: «وتعقب بأن أبا جهل وعتبة قتلا ببدر، إنما ينطبق التفسير على من نزلت الآية المذكورة، وهو حيّ، فيصحّ في أبي سفيان، وسهيل بن عمرو، وقد أسلما».

٧ - ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾.

قال مجاهد، والسُّدِّي، وعكرمة: هم خُزاعة.

أخرج ذلك ابن أبي حاتم[1].

٨ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [الآية ٢٨].

هو سنةُ تسعٍ من الهجرة[2].

٩ - ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٠].

سُمِّي منهم: سلام بن مِشْكَم، ونُعمان بن أوفى، ومحمد بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصَّيْف.

أخرجه ابن أبي حاتم[3] عن ابن عباس.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج[4] قال: قالها رجل واحد اسمه فِنْحاص.

١٠ - ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [الآية ٣٦].

قال (ص): «ثلاث[5] متواليات: ذو القعدة، وذو الحِجَّة، والمحرم، ورجب مضر: الذي بين جمادى وشعبان».

أخرجه الشيخان[6]، من حديث أبي بَكْرَة.

١١ - ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [الآية ٤٠].

هو غارُ ثَوْرٍ، جبلٍ بمكة.

١٢ - ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [الآية ٤٠].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» ١٠/ ٦٤.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» ١٠/ ٧٥، و «تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٤٦.

(٣) وابن جرير في «تفسيره» ١٠/ ٧٨، وليس فيه «محمد بن دحية».

(٤) في «تفسير الطبري» ١٠ / ٧٨: «عن ابن جريج قال: سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير».

(٥) انظر توجيه الرواية من حيث اللغة في «فتح الباري» ٨/ ٣٢٥.

(٦) البخاري (٤٦٦٢) في التفسير، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شُعَب الإيمان».

هو أبو بكر رضي الله عنه[1].

١٣ - ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [الآية ٤٧].

قال مجاهد: هم عبد الله بن أبيّ بن سلول، ورفاعة بن التابوت، وأوس بن قَيْظِيّ. أخرجه ابن أبي حاتم[2].

١٤ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [الآية ٤٩].

هو الجد بن قيس، كما أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس[3].

١٥ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [الآية ٥٨].

هو ذو الخويصرة. كما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري[4].

١٦ - ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية ٦٠].

سُمّي من المؤلّفة في عهده (ص):

أُبيّ بن شَريق، وأُحَيْحَة بن أمية بن خلف، وأسد[5] بن حارثة، والأقرع بن حابس، وجبير بن مُطْعِم، والحارث بن هشام، وحرملة بن هَوْدة، وخالد بن هودة[6]، وحكيم بن حزام، وحكم[7] بن طليق، وحُويطب بن عبد العُزّى، وخالد بن قيس السهمي، وزيد الخيل، والسائب بن أبي السائب،

---

(١) ثبت ذلك في: البخاري (٣٦٥٣) في مناقب المهاجرين، و(٤٦٦٣) في التفسير، ومسلم ٥/ ٢٤٢ في الفضائل (بشرح النووي)، والترمذي (٣٠٩٥) في التفسير، وأحمد في «المسند» برقم (١١)، و(٣٢٥١) = ١/ ٣٤٨. وانظر «المسند» لأحمد ١/ ٣٣٠- (٣٠٦٣) و١/ ٣٣١ - (٣٠٦٣).

كما خرج ذلك الإمام الحافظ القاضي: أبو بكر أحمد بن علي الأموي المروزي، المولود نحو سنة (٢٠٢) هـ والمتوفى سنة (٢٩٢هـ)، شيخ النِسائي والطّبراني وغيرهما، في جزئه المسند الذي أفرده في أحاديث أبي بكر الصديق، المسمى بـ «مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه» والذي يعتبر من أجمع ما أفرد في أحاديث أبي بكر خاصة، وذلك في الأحاديث ذات الأرقام: (٤٢)، (٥٦)، (٦٢)، (٦٥)، (٧١)، (٧٢)، (٧٣)، (٨٢).

(٢) والطبري ١٠/ ١٠٢، وفي «تفسير مجاهد» ١/ ٢٨٠ زيادة «عبدالله بن نبتل».

(٣) في إسناده: يحيى الحماني، وهو ضعيف. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٣٠، وأخرجه الطبري أيضاً ١٠/ ١٠٤.

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٩٣٣) في استتابة المرتدّين.

(٥) والمثبت من «الاصابة».

(٦) في «سيرة ابن هشام»: «هَوْذة». بالذال المعجمة والمثبت من «الإصابة».

(٧) في «الإصابة»: «حكيم».

وسُهَيل بن عمرو، وشَيْبَة بن عثمان، وسفيان بن عبد الأسد[1]، وأبو سفيان بن حرب، وابناه: معاوية، ويزيد، وأبو السنابل بن بَعْكَك، وصفوان بن أمية، وعبد الرحمن بن يربوع، وعيينة بن حصن الفزاري، وعمرو بن الأهتم التميمي، والعباس بن مرداس السُّلَمي، ومَخْرَمَة بن نوفل، وسعيد بن يربوع، وقيس بن عدي، وعمرو بن وهب، وهشام بن عمرو، والنَّضر بن الحارث ومطيع بن الأسود، وأبو جَهْم بن حذيفة، وعلقمة بن علاثة، وعمير بن مِرْداس، وقيس بن مخرمة، وعكرمة بن عامر، وعمرو بن ورقة، ولَبيد بن ربيعة، والمغيرة بن الحارث، وهشام بن الوليد المخزومي.

١٧ - ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [الآية ٦١].

نزلت في نَبْتل بن الحارث. كما أخرجه ابن ابي حاتم، عن ابن عباس[2].

١٨ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [الآية ٦٥].

نزلت في عبدالله بن أُبَيّ. كما أخرجه ابن أبي حاتم[3] من حديث ابن عمر.

وقيل: هو وَديعة بن ثابت[4] ذكره السُّهَيلي.

١٩ - ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [الآية ٦٦].

هو مخْشِي[5] بن حُمَيِّر. كما أخرجه ابن أبي حاتم، عن كعب بن مالك.

وأخرج من طريق الضّحاك، عن ابن عباس قال: الطائفة، الرجل، والنَّفر[6].

---

(١) في كونه من المؤلفة قلوبهم، فيه نظر. قاله الحافظ ابن حجر في ترجمته في «الإصابة».

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٥٢١، و«تفسير الطبري» ١٠/ ١١٦.

(٣) وابن المنذر، والعقيلي في «الضعفاء»، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والخطيب في «رواة مالك». «الدر المنثور» ٣/ ٢٥٤.

(٤) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس. «الدر المنثور» ٣/ ٢٥٤, و«الطبري» ١٠/ ١١٩ عن ابن إسحاق.

(٥) في «الدر المنثور»: «محشي»، وفي «سيرة ابن هشام»: «مَخْشِن»، قال ابن هشام ٢/ ٥٢٤: «ويقال: مَخْشي» وكذا جاء في «تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٦٧ و«الإصابة» و«الإتقان» ٢/ ١٤٦.

(٦) معنى قول الضحاك أن الطائفة قد يراد بها الرجل الواحد، كما هو هنا.

٢٠ ـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [الآية ٧٠].

قال محمد بن كعب القرظي: حُدِّثْتُ أنّهنّ كُنّ خمساً:

ضبعة، ومغيرة، وعمرة، ودوما، وسدُوم: وهي القرية العظمى

أخرجه ابن أبي حاتم.

٢١ ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [الآية ٧٤].

نزلت في الجُلاس بن سُوَيد بن الصامت. أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس وكعب بن مالك[1].

٢٢ ـ ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [الآية ٧٤].

قال ابنُ عباس: هَمَّ رجُلٌ، يقال له: الأسود، بقتل النبي (ص). أخرجه ابن أبي حاتم[2].

٢٣ ـ ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

نزلت في ثعلبة بن حاطب. أخرجه الطُّبَراني، وغيره من حديث أبي أمامة[3].

زاد ابن إسحاق: ومُعَتِّب بن قُشَير.

٢٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ [الآية ٧٩].

سُمِّي من المُطَّوِّعين: عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي.

ومن الذين ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [الآية ٧٩]: أبو عَقيل، ورفاعة بن سعد[4] في آثار أخرجها ابن أبي حاتم.

---

(١) وروى ابن جرير برقم (١٦٩٧٤) عن قتادة أنها نزلت في عبدالله بن أُبَيّ بن سلول.
قال ابن جرير رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى، أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذباً، على كلمة كُفر تكلّموا بها، أنهم لم يقولوها؛ وجائز أن يكون في ذلك القول، ما روي عن عروة، أن الجلاس قاله، وجائز أن يكون قائله عبدالله بن أبي بن سلول، والقول ما ذكر قتادة منه أنه قال، ولا علم لنا بأيّ ذلك من أيّ، إذ كان لا خبر بأحدهما يوجب الحجة، ويتوصل به إلى يقين العلم به، وليس ما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [الآية ٧٤].

(٢) انظر «تفسير الطبري» ١٠/١٢٩.

(٣) وإسناده ضعيف جدا. لأن في إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك. كما في «مجمع الزوائد» ٧/ ٣٢.

(٤) في «فتح الباري» ٨/ ٣٣١: «سهل» كما في رواية عبد بن حميد. قال الحافظ: «فيحتمل أن يكون تصحيفاً، ويحتمل أن يكون اسم أبي عقيل «سهل» ولقبه «حبحاب» أو هما اثنان».
وفي «المطالب العالية» ٣/ ٣٤١ رقم (٣٦٤٧) رواية ابن أبي شيبة. وأثر أبي عقيل، رواه ابن مسعود وأخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٤٦٦٨) في التفسير.

وأبو خيثمة الأنصاري. أخرجه ابن جرير[1].

٢٥ ـ ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [الآية ٨١].

قال ذلك رجل من بني سلمة. أخرجه ابن جرير[2] عن محمَّد بن كعب.

٢٦ ـ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [الآية ٨٣].

قال قَتادة: ذُكِرَ لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً [من المنافقين]. أخرجه ابن جرير[3].

٢٧ ـ ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ [الآية ٩٠].

قال السُّدي: من قرأها خفيفة، [قال]: بنو مُقَرِّن.

ومن قرأها مُشَدَّدة، قال الذين لهم عذر.

وقال ابن إسحاق[4]: ذُكر لي أنهم نفر من بني غِفار.

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم.

٢٨ ـ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾ [الآية ٩٢].

سُمِّي منهم العِرْباض بن سارية. في حديث أخرجه الحاكم في «المستدرك»[5].

وعبد الله بن مُغَفَّل[6] المزني، وعمرو المزني: جد كثير بن عبد الله بن عمرو، وعبدالله بن الأزرق الأنصاري، وأبو ليلى الأنصاري. في آثار أخرجها ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن[7] من مُزَيْنة. أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال محمد بن كعب القُرَظي: هم سبعة نفر: سالم بن عمير، وحرمي بن عمرو ـ ويقال: هرمي، ويقال: حزم ـ

---

(١) ١٠/٣٦.

(٢) ١٠/١٣٩.

(٣) ١٠/١٤١. والزيادة منه.

(٤) «سيرة ابن هشام» ٢/٥١٨.

(٥) والطبري (١٧٠٨٦)= ١٠/١٤٦، والأثر لم أجده في «المستدرك».

(٦) التصويب من «سيرة ابن هشام» ٢/٥١٨.

(٧) والتصويب من «الدر المنثور» و«تفسير الطبري» ١٠/١٤٦.

وأبو ليلى: عبد الرحمن بن كعب، وسلمان بن صخر، وأبو عَبْلة: عبد الرحمن بن زيد[1]، وعمرو بن غَنَمة[2]، وعبد الله بن عمرو المزني، أخرجه ابنُ جرير[3].

وسمِّي منهم: عُلْبَة بن زيد الحارثي[4]؛ في أثر عند ابن مَرْدوية.

وثعلبة بن زيد الأنصاري من بني حرام؛ في أثر في «تفسير عبد الغني بن سعيد الثقفي».

٢٩ - ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [الآية ٩٩].

قال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن من مُزَيْنة. أخرجه ابن أبي حاتِم.

وكانوا عشرة؛ فيما أخرجه ابن جرير[5].

٣٠ - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [الآية ١٠٠].

قال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيِّب: هم الذين صَلَّوا القبلتين.

وقال الشَّعْبي: هم أهل بيعة الرضوان.

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم.

وقال محمد بن كعب، وعطاء بن يسار: هم أهل بدر.

وقال الحسن: هم من أسلم قبل الفتح.

أخرجهما سُنَيْد[6].

٣١ - ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ [الآية ١٠١].

قال مولى ابن عباس: هم جُهَيْنة، ومُزَيْنة، وأشجع، وأسلم، وغِفار، أخرجه ابنُ المنذر.

٣٢ - ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الآية ١٠٢].

قال ابنُ عباس: هم سبعة، أبو لُبابة وأصحابه.

---

(١) وقع في «الطبري» ط شاكر: يزيد.

(٢) التصويب من «الطبري».

(٣) ١٠/١٤٦.

(٤) التصويب من «الدر المنثور».

(٥) ١١/٥ عن عبدالله بن مغفل.

(٦) سنيد بن داود: صاحب «التفسير»، ضعّفه المحدثون على الرغم من إمامته ومعرفته، توفي سنة (٢٢٦) هـ. انظر لتخريج الآثار «تفسير الطبري» ١١/٦.

وقال زيد بنُ أسلم: ثمانية، منهم: أبو لُبابة، وكَرْدم، ومِرْداس.

وقال قتادة: سبعة من الأنصار، منهم: جد بن قيس، وأبو لُبابة، وجُذام، وأوْس.

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

٣٣ - ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٠٦].

قال مُجاهد: هم هلال بنُ أميّة، ومُرارة، وكعب بن مالك.

أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٣٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ [الآية ١٠٧].

هم أناس من الأنصار.

٣٥ - ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الآية ١٠٧].

هو أبو[1] عامر الراهب. أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وأخرج من وجه آخر عنه، قال: هم رجال من الأنصار، منهم: بُخْزُج[2]: جدّ عبد الله بن حنيف، ووديعة بن خِذام، ومُجَمِّع بن جارية الأنصاري.

وأخرج عن سعيد بن جُبَيْر قال: هم حي، يقال لهم: بنو غَنْم.

وقال ابن إسحاق: الذين بنوا [مسجد الضرار] اثنا عشر رجلاً: خِذام[3] بن خالد، من بني[4] عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، [ومن

---

(١) المثبت من «تفسير الطبري»، و«تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٨٧.

(٢) هو اسم، كما في «تاج العروس» مادة (بحزج) ٥/ ٤١٢ ط الكويت. وفي النسخ المطبوعة: «مجدح»، وفي «سيرة ابن هشام»٢/ ٥٣٠، «بَخْزَج» وفي «تفسير الطبري» ١١/ ١٨«بَخْدَج»، وكذا في «المحبر»: ٤٧٠، وكذا ضبطت في «تاج العروس» وفيه أنه اسم شاعر. وفي «تفسير الطبري» ط دار المعارف ١٤/ ٤٧١ علق عليها الأستاذ شاكر قائلاً «ما أدري قوله «جد عبدالله بن حنيف» ولست أدري أهو من كلام ابن عباس - راوي الخبر - أو من كلام غيره - من رجال السند - وإن كنت أرجّح أنه من كلام غيره، لأني لم أجد في الصحابة ولا التابعين «عبدالله بن حنيف»، وجدّه «بحزج»، والمذكور في المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار: «عباد بن حنيف»، وأخو «سهل بن حنيف». فأخشى أن يكون سقط من الخبر شيء، فاختلط الكلام. وفي نسب «سهل بن حنيف»، و«عمرو، وهو بحزج بن حنش بن عوف بن عمرو» (انظر «طبقات ابن سعد» ٣/ ٢/ ٣٩، ثم ٥: ٥٩، و«جمهرة الأنساب» لابن حزم: ٣١٦)؛ ولكن هذا قديم جداً في الجاهلية، وهو بلا شك غير «بحزج»، الذي كان من أمره ما كان في مسجد الضرار».

(٣) في سائر الأصول: «جذام» والمثبت من «تفسير الطبري» بتحقيق شاكر.

(٤) الطبري ١١/ ٢٣ ط الحلبي: «خالد بن عبيد»، والمثبت من «تفسير الطبري» ط شاكر.

داره أُخْرِجَ مسجد الشقاق][1]؛ وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن زيد، ومُعَتِّب بن قشير، من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حُنَيْف، أخو سهل بن حُنَيْف، من بني عمرو بن عوف؛ وجارية بن عامر، وابناه: مُجَمِّع بن جارية، وزيد بن جارية؛ ونَبْتَل بن الحارث، وهو من بني ضُبَيْعة، وبُخْدُج، وهو من بني ضُبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية [ابن زيد][2] رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[3].

٣٦ ـ ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ [الآية ١٠٨].

أخرج مسلم[4] عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أنه: المسجد النبويّ.

وأخرجه أحمد[5] عن أُبَيّ بن كعب، وسهل بن سعد مرفوعاً، وأخرجه ابن جرير عن ابن عمر وزيد بن ثابت، وأبي سعيد موقوفاً.

وأخرج عن ابن عباس أنه: مسجد قُباء[6].

---

(١) زيادة من «الطبري» و«سيرة ابن هشام».

(٢) زيادة من «سيرة ابن هشام».

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ٢/ ٥٣٠.

(٤) برقم (١٣٩٨) = ٣/ ٥٤٢ «شرح النووي» في أواخر الحج، وأحمد في «المسند»، والطبري في «تفسيره» ١١/ ٢١، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٣٤, ونص الحديث كما في «صحيح مسلم»: «حميد الخراط، قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن، قال: مرّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، قال: قلت له كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أُسس على التقوى قال: قال أبي: دخلت على رسول الله (ص) في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أيّ المسجدين الذي اسس على التقوى؟. قال، فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الارض، ثم قال «هو مسجدكم هذا» لمسجد المدينة.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «هذا نصّ بأنه المسجد الذي أُسس على التقوى المذكور في القرآن، ورد لما يقول بعض المفسرين أنه مسجد قباء، وأمّا أخذه (ص) الحصباء، وهي الحصى الصغار وضربها في الأرض، فالمراد به المبالغة في الإيضاح، لبيان أنه مسجد المدينة».

وقال الحافظ بن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٨٦ في موضع من تفسير سورة الأحزاب: «إنّ الآية، إنّما نزلت في مسجد قباء، كما ورد في الأحاديث الأخر؛ لكن اذا كان ذاك أُسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله (ص) أولى بتسميته بذلك، والله أعلم».

(٥) «مسند أحمد» ٥/ ١١٦.

(٦) قال الطبري رحمه الله في «تفسيره» ١٤/ ٤٧٩ ط شاكر: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال هو مسجد الرسول (ص) لصحة الخبر بذلك عن رسول الله».

٣٧ ـ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [الآية ١٠٨].

هم بنو عمرو بن عوف من الأنصار، منهم: عويم بن ساعدة.

قال ابن جرير[(١)]: لم يَبْلُغنا أنه سُمّي منهم غيرُه.

٣٨ ـ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [الآية ١١٨].

هم هلال، ومرارة، وكعب[(٢)].

٣٩ ـ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾.

قال ابنُ عمر: مع محمد (ص)، وأصحابه.

وقال الضَّحَّاك: مع أبي بكر، وعمر، وأصحابهما.

وقال السُّدِّي: مع هلال، ومرارة، وكعب.

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم.

٤٠ ـ ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [الآية ١٢٣].

قال الحسن: يعني [الرُّومَ، و][(٣)] الدَّيْلَمَ. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

---

(١) ٩/ ١٢٧، والحديث نحوه عن ابن خزيمة في «صحيحه» برقم (٨٣) وفي هامشه: «إسناده ضعيف». وله شاهد في «المستدرك» ١/ ١٥٥، وانظر: «الفتح الرباني» ١/ ٢٨٤، ورواه الطبراني في المعاجم الثلاثة، كما في «مجمع الزوائد» ١/ ٢١٢ وقال: «رواه أحمد والطبراني في الثلاثة، وفيه شرحبيل بن سعد، ضعّفه مالك وابن معين وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان».

(٢) انظر هذا الكتاب الآية (١٠٦) من سورة التوبة (براءة) وانظر «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك رقم (٤٤١٨).

(٣) زيادة من «الدرّ المنثور» ٣/ ٢٩٣.

لغة التنزيل في سورة «التوبة»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾، أي: لم يعاونوا عدواً لكم.

أقول: والمظاهرة: المعاونة، والتظاهر التعاون.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ [التحريم/٤]، أي تعاونا، والظهير العون.

وقوله تعالى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ [البقرة/٨٥]، أي تتعاونون.

وقوله تعالى: ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة/٩]، أي: عاونوا.

واستظهر عليه بالأمر: استعان.

وفي حديث علي رضي الله عنه، يُسْتَظْهَرُ بحُجَجِ الله وبنعمته على كتابه.

أقول: وقد اجتهد المعاصرون في إثبات «التظاهرة»، و«المظاهرة»، لتكون مؤدية لما هو في اللغات الغربية الحديثة Démonstration أو Manifestation: لأن الفعل في هذين الاسمين الأعجميين يعني في العربية، «أظهرَ، وأبان، وأعلنَ» فكانت «التظاهرة» أو «المظاهرة» في العربية الجديدة يقابلون بها الكلمتين الأعجميتين.

وهذا يعني، أن هذين المولّدين

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لابراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

الجديدين، ليس فيهما من فكرة «التعاون»، التي هي في «تظاهر» و«ظَاهَرَ».

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [الآية ٥].

المراد بقوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: وَأْسِرُوهُمْ، والأخيذُ: الأسير.

أقول: وهذا من معاني الفعل «أخذ»، الذي ينصرف إلى عدة معان.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [الآية ٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، أي: يغلبوكم، أقول، ولم يكن لهذا الفعل معنى الغلبة والفوز إلا بمجيء (عليكم) بعده، فاستعمال «على» يشعر بهذا.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾، أي: لا يُرَاعُوا حِلْفاً، وقيل: قرابةً، وأنشد لحسّان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ من قريشٍ
كإِلِّ السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعامِ

وقيل: إنه بمعنى «الإله»، وقُرِئ «إيلاً» وهو بمعناه.

أقول: إن «الإلّ» مضاعفاً، و«الإيل» بالمدّ، والإله بمعنًى، وكلّه واحد في الأصل، وهو من المواد القديمة في مجموعة اللغات السامية. وقد كنا أشرنا إلى هذه المادة في آية سابقة.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [الآية ١٦].

ووَلِيجَةُ الرجل: بِطانَتُهُ وخاصَّتُه ودِخْلَتُه، وقال أبو عبيدة: الوليجة البطانة، وهي مأخوذة من وَلَجَ يَلِجُ وُلُوجاً وَلِجَةً إذا دَخَل، أي: ولم يتّخِذُوا بينهم وبين الكافرين، دخيلة مودّة.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٢٦].

وقالوا: المعنى: رحمته التي سكنوا بها، وآمنوا.

أقول: والسكينة من كَلِم القرآن الخاصّ، بمعنًى اختصّ به، وهي بهذا المعنى في ثلاث آيات، ومنها أيضاً:

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الآية ٤٠].

والسكينة: الوَداعة والوقار، وقوله،

عــز وجــل: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ [البقرة/ ٢٤٨].

قال الزجاج: معناه فيه ما تسكنُون به، إذا أتاكم.

وفي الحديث: نَزَلَت عليهم السكينة، تحملُها الملائكة، أي: الرحمة.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [الآية ٣٠].

المضاهاة مُشاكلة الشيء بالشيء، وقد يُهمَزُ «ضاهَأ»، ومنه القراءة المشهورة، في الآية التي وقفنا عليها.

وضاهَيْتُ الرجلَ: شاكلته وعارضتُه، وفلان ضَهِيُ فلان، أي: نظيره وشبيهه.

وقد استعملت المضاهاة بمعنى المعارضة والمماثلة في الأدب، ومن ذلك «مضاهاة كليلة ودمنة» لابن الهَبّارية، أي: أن الشاعر نظم الحكايات نظماً.

ومن الحق، أن نلاحظ أن «المهموز» في العربية تُسهَّل همزته غالباً، فيتحوّل الهمز إلى مدٍّ، نحو أومَأ وأومىٰ، ورَبأ ورَبا وغير ذلك.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [الآية ٣٧].

النسيءُ: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات؛ فإذا جاءَ الشهر الحَرامُ وهم محاربون، شقّ عليهم ترك المحاربة، فيُحِلّونه ويُحرّمون مكانه شهراً آخر، حتّى رفضوا تخصيص الأشهر الحُرُم بالتحريم، فكانوا يحرّمون من شقّ شهور العام أربعة أشهر، وذلك قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٣٧]، أي: ليوافقوا العِدّة التي هي الأربعة ولا يُخالِفوها، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين، وربما زادوا في عَدَد الشهور فجعلوها ثلاثة عشر، أو أربعة عشر ليتّسع لهم الوقت. ولذلك قال عزّ وعلا ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [الآية ٣٦].

أقول:

ونَسَأ الشيءَ: يَنْسَأه نَسْاة وأنسَأه: أخّرَه، والاسمُ النَّسيئةُ والنسيء ونَسأ الله في أجَله، وأنسَأ أجَلَه: أخّرَه.

وفي الحديث عن أنس بن مالك: من أَحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه، ويُنْسَأَ في أجله، فلْيَصِلْ رَحِمَهُ.

والنَّسء: التأخير يكون في العُمر والدَّيْن.

ومن هذه الدلالة اللغوية، أي: التأخير، أخذ العرب الجاهليون مادة «النسيء»، فصارت من رسومهم ومصطلحهم، وإليها أشارت الآية الكريمة.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [الآية ٤٢].

العَرَضُ: ما عَرَض لك من منافع الدنيا. يقال: الدنيا عَرَضٌ حاضرٌ، يأكُلُ منه البَرُّ والفاجِرُ، أي: لو كان ما دعوا إليه غُنماً قريباً سهل المنال، و«سفراً قاصداً» أي: وسطاً مقارباً.

أقول في قوله تعالى: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ لا أرى أن المراد به «الوسط المقارب»، إذ لا يمكن أن يأتلف مع «العرض القريب»، الذي يسبقه في الآية، ولكني أرى أن يكون «السفر القاصد» هو ما يعَبَّر عنه في اللغة المعاصرة بـ «السفر المباشر»، وسنأتي إلى المباشر بعد هذا.

ألا ترى أنه قال: إنهم سيتبعونك لو دعوتهم الى مغنم قريب من عرض الدنيا، وسفر مباشر (يريد أقرب منه)، ولَهُرِعوا إليك؟

أقول: لو أن المعاصرين أطالوا النظر في كلمات الله، لرأوا فيها ما يسدّ حاجاتهم اللغوية، وما يضطربون فيه من مصطلح حديث.

إنهم قالوا: سفر مباشر، وبداية مباشرة، وطريقة مباشرة، كما قالوا سفر غير مباشر، وبداية غير مباشرة، وطريقة غير مباشرة، ويريدون بالنمط الأول ما يشرع فيه على الفور أو في الحال، وبالنمط الثاني ما لا يُشْرَعُ فيه في الحال، بل يُتَمَهَّل فيه ويتريَّث.

ولا أدري كيف فهموا «المباشرة» على هذا النحو، ذلك بأن فصيح «المباشرة» أن تلي الأمر بنفسك.

وعلى كل حال لا نستطيع أن نحمل وصف الشيء بـ «المباشر» في عربيتنا المعاصرة على الخطأ، ولكننا، نقول: إنها لغة جديدة مولّدة، أدّى إليها التطور في الدلالة، وهذا شيء يعرض لجميع اللغات، فقد تتغيّر المعاني، فيظهر جديد، ويختفي قديم.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [الآية ٤٧].

الخبال: الفسادُ والشر.

والخَبْل والخُبْل والخَبَل والخَبال: الجُنون، ويقال به خَبال، أي: مسٌ.

وهذا هو المعروف المشهور، ممّا بقي من الكلمة في اللغة المعاصرة. وأما الخبال بمعنى الفساد والشر، كما في الآية فنظيره قوله تعالى:

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران/ ١١٨].

قال الزجاج: هو الفساد وذهاب الشيء، وأنشد بيت أوس:

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمْ بِيَدٍ
إلا يَداً مخبولةَ العَضُدِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾، بمعنى ولَسَعَوْا بينكم بالتضريب والنمائم، وإفساد ذات البين.

وقال الفرّاء: الإيضاع السّيرُ بين القوم.

والأصل من قول العرب: أوضع الراكب ووضعت الناقة، وهو السير والعدو، فكأنّ الآية: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾، تلمح الى هذا الأصل، لأنّ الموضع يسعى بالإفساد، ففي الكلمة «سعي» بمعنى السير والعدو.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [الآية ٦١].

الأذن: الرجل الذي يُصَدِّقُ كُلَّ ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمّي بالجارحة التي هي آلة السماع؛ كأنّ جملته أذنٌ سامعة، ونظيره قولهم للربيئة «عين». وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه « هو أذن».

وأذنُ خيرٍ كقولك: رجل صدق، تريد الجودة والصلاح، كأنه قيل: نَعَمْ هو أذنٌ، ولكن نِعْمَ الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق، وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك.

أقول: واستعارة الأذن لهذا النوع من المعاني الشريفة، ما زال معروفاً في العربية المعاصرة، فيقال: هو أذن صاغية، أي: مطيعٌ، ولكن هذه «الأذن الصاغية» تكون في الخير والشر على السواء.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الآية ٦٣].

المحُادّة: المخالفة ومنع ما يجب عليك، والمعاداة والمنازعة وهي مفاعلة من الحدّ، وحادَّ يُحادُّ. وقد فُكَّ الإدغام في الآية، وحقه أيضاً ألا يفكَّ، لغرض صوتي، لأن الفعل مجزوم، وينبغي تحريكه بالكسر لمكان سكون اللام بعده.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [الآية ٧٩].

أي: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾، أي: المتطوعين المتبرعين.

والمُطَّوِّعة: الذين يتطوّعون للجهاد، أدغمت التاء في الطاء، كما في ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة/٨٣] وهو التفعّل من الطاعة.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ [الآية ٨٣].

أقول: الفعل «رجع» في هذه الآية متعدٍّ، والكاف هي المفعول به، فكما يكون «رَجَعَ» لازماً كقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة].

وقد جاء الفعل لازماً في طائفة كبيرة من الآيات، أمّا مجيئه متعدّياً، فهو قليل، منه الآية التي أثبتناها، وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه/٤٠] وفي ست آيات أخرى.

أقول: وليس في العربية المعاصرة إلا الفعل اللازم، فإذا أريد المتعدي صير إلى المزيد بالهمزة «أرجَعَ».

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الآية ٩٠].

المُعَذِّرون: هم الذين لا عذر لهم، ولكن يتكلّفون عذراً؛ وأما المُعْذِرون فهم الذين لهم عذر. وقرأها ابن عباس ساكنة العين، وكان يقول: : والله لكذا أنزلَت.

وذهب إلى أن المُعذِرين الذين لهم عذر، ، والمعَذِرين الذين يعتذرون بلا عذر، كأنهم المقصِّرون الذين لا عذر لهم؛ فكأن الأمر عنده أن المعَذِّر بالتشديد، هو المظهر للعذر اعتلالاً من غير حقيقة له في العذر، وهو لا عذر له، والمُعْذِر الذي له عذر.

والمُعَذِّرُ الذي ليس بِمُحِقّ على جهة المُفَعِّل، وهو في الأصل

المعتذر، فأدغمت التاء في الذال، لقرب المخرجين.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۙ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [الآية ١٠١].

قوله تعالى: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: تمَهَّرُوا فيه، وهو من مَرَن فلان عَمَلَه، ومَرَد عليه: إذا دَرِبَ به وضَرِي، حتى لانَ عليه، ومَهَرَ فيه.

أقول: ودلالة «مَرَدَ» على المرانة والتمهّر، من لغة التنزيل العزيز، التي لا نجدها في غير هذه الآية الكريمة.

المعاني اللغوية في سورة «التوبة»(*)

قال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [الآية ٣] ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية ٣] أي: بأنّ الله بريء ورسوله كذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية ٢] أي: بأن الله.

وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [الآية ٥] فجمع السياق على أدنى العدد لأنّ معناها «الأربعة» وذلك أن «الأشهر» إنّما تكون إذا ذكرت معها «الثَلاثَةَ» الى «العَشَرة» فإذا لم تذكر «الثلاثة» الى «العَشَرة» فهي «الشُهُور».

وقال تعالى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [الآية ٥] وألقى السياق «على»، قال الشاعر [من الوافر وهو الشاهد السادس والخمسون]:

نُغالِي اللَحْمَ للأضيافِ نِيْئاً
وَنَبْذُلُه إذا نَضِجَ القُدُورُ

أراد: نُغالِي باللحم(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [الآية ٦] فابتدأ بعد «إنْ»، وأنْ يكون رَفْعُ أحدٍ على فعل مضمر أقيس الوجهين، لأنّ حروف المجازاة لا يبتدأ بعدها. إلاّ أنهم قد قالوا ذلك في (أنْ) لتمكّنها وحسنها إذا وليتها الأسماء، وليس بعدها فعل مجزوم في اللفظ، كما قال الشاعر [من البسيط وهو الشاهد الثامن والسبعون بعد المئة]:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) قد نقل رأي الاخفش، في زاد المسير٣/ ٣٩٨.

عاوِذ هراةَ وأنَّ مَعْمُورَها خَرِباً[1].

وقال[2] الآخر [من الكامل وهو الشاهد الرابع والعشرون بعد المئتين]:

لا تَجْزَعِي أنْ مُنْفِساً أهلَكْتُهُ
وإذا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذلِكَ فاجْزَعي

وقد زعموا أن قول الشاعر[3] [من الطويل وهو الشاهد الخامس والعشرون بعد المئتين]:

أتَجْزَعُ أنْ نَفْسٌ أتاها حِمامُها
فَهَلاَّ الَّتِي عَنْ بينِ جَنْبَيْكَ تَدْفَعُ[4]

لا ينشد إلا رفعاً، وقد سقط الفعل على شيء من سببه. وهذا قد ابتدئ بعد «أنْ» وإنْ شئت جعلته رفعاً بفعل مضمر.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ [الآية ٧] فهذا استثناء خارج من أول الكلام. و﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع نصب.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ [الآية ٨] فأضمر «كيف لا تقتلونهم» والله أعلم[5].

وقال تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [الآية ١٣] لأنك تقول «هَمَمْتُ بكذا» و«أَهَمَّني كذا».

وقال تعالى: ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [الآية ٢٥] لا تنصرف. وكذلك كل جمع ثالث حروفه ألف، وبعد الألف حرف ثقيل، أو اثنان خفيفان فصاعداً، فهو لا ينصرف في المعرفة ولا النكرة، نحو «محاريب» و«تماثيل» و«مساجد» وأشباه ذلك، إلاّ أن يكون في آخره الهاء، فإن كانت في آخره الهاء انصرف في النكرة نحو «طيالِسَة» و«صياقِلَة». وإنما منع العرب من صرف هذا الجمع، أنه مثال لا يكون للواحد ولا يكون إلاّ للجمع؛ والجمع أثقل من الواحد. فلما كان هذا المثال لا يكون إلاّ للأثقل لم

(١) سبق الكلام على الشاهد.

(٢) هو النمر بن تولب. ديوانه ٧٢، وتحصيل عين الذهب ١/ ٦٧.

(٣) هو زيد بن رزين «ذيل الأمالي ١٠٦ و١٠٧، وسمط اللآلي ٤٩ وشرح شواهد المغني ١٤٩.

(٤) في شرح شواهد المغني: «فهل أنت عمّا بين جنبيك تدفع». وفي المحتسب ١/ ٢٨١ بـ «أتدفع عن» بدل «أتجزع أن».

(٥) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٤١٩.

يصرف. وأمّا الذي في آخره الهاء، فانصرف لأنّها منفصلة كأنّها اسم على حيالها. والانصراف إنّما يقع في آخر الاسم فوقع على الهاء، فلذلك انصرف فشبه بـ «حَضْرَموت»، و«حَضْرَمَوْتَ» مصروف في النكرة.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [الآية ٢٨] وهو «الفَقْر»، تقول: «عالَ» «يَعِيلُ» «عَيْلَةً» أي: «افْتَقَر». و«أعَالَ» «إعالَةً»: إذا صار صاحب عيال[١]. و«عالَ عِيالَهُ» و«هو يَعُولُهم» «عَوْلاً» و«عِيالَةً». وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝﴾ أي: ألاّ تَعُولُوا العِيالَ. و«أعالَ الرجلُ» «يُعِيلُ» إذا صار ذا عِيالٍ[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٠] وقد طرح بعضهم التنوين، وذلك رديء، لأنه إنّما يترك التنوين، إذا كان الاسم يستغني عن الابن، وكان ينسب الى اسم معروف. فالاسم هٰهنا لا يستغني. ولو قلت «وَقَالَتِ اليَهودُ عُزَيْرٌ» لم يتمّ كلاماً إلاّ أنه قد قرئ وكثر وبه نقرأ على الحكاية[٣] كأنهم أرادوا «وَقَالَتِ اليَهودُ نَبِيُّنا عُزَيْرُ ابنُ اللهِ».

وقال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [الآية ٣٢] لأن ﴿أَن يُتِمَّ﴾ اسم كأنه «يَأبَى اللهُ إلاّ إتمامَ نُورِهِ».

وقال تعالى: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [الآية ٣٤] ثم قال: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الآية ٣٥] فجعل الكلام على الآخِر. وقال الشاعر[٤] [من المنسرح وهو الشاهد الستون]:

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راضٍ والرأي مُختلِفُ

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى

(١) نقله في الصحاح «عيل»، وزاد المسير ٣/ ٤١٧ و٤١٨.

(٢) نقله في اللسان «عيل».

(٣) القراءة بالتنوين، نسبت في معاني القرآن، إلى الثقات؛ وفي الطبري ١٤/ ٢٠٤ إلى بعض المكيين والكوفيين؛ وفي السبعة ٣١٣ إلى عاصم والكسائي، والى ابن عمرو في رواية؛ وفي الكشف ١/ ٥٠١، والتيسير ١١٨، والجامع ٨/ ١١٦، والبحر ٥/ ٣١ اقتصر على عاصم والكسائي. أمّا القراءة بلا تنوين، فنسبت في معاني القرآن ١/ ٤٣١ إلى الثقات؛ وفي الطبري ١٤/ ٢٠٥ إلى عامة قراء أهل المدينة، وبعض المكيين والكوفيين؛ وفي السبعة ٣١٣ الى ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وحمزة؛ وفي الجامع ٨/ ١١٦ أهمل حمزة؛ وفي البحر ٥/ ٣١ الى السبعة، إلا عاصماً والكسائي؛ وفي الكشف ١/ ٥٠١، والتيسير ١١٨، الى غير عاصم والكسائي.

(٤) سبق الكلام على القائل والقول.

ٱلْكُفْرِ﴾ [الآية ٣٧] وهو التأخير.

وتقول «أَنسَأْتُهُ الدَّيْنَ» إذا جعلته إليه يؤخره هو. و: «نَسأْتُ عَنهُ دَيْنَهُ» أي: أَخَّرْتُهُ عَنهُ. وإنّما قلت: «أَنسَأْتُهُ الدَّيْنَ» لأنّكَ تقول: «جعلته لَهُ يؤخِّرُهُ» و«نَسأْتُ عَنهُ دَيْنَه» «فَأَنَا أَنسَؤُهُ» أي: أؤخِّره. وكذلك «النَّساءُ في العُمْر» يقال: «مَنْ سَرَّهُ النَّساءُ في العُمُر»[١]، ويقال «عِرْق النَّسَا» غير مهموز.

وقال تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا﴾ [الآية ٣٧] لأنّها من «وَاطَأَ» ومثله (هيَ أَشَدُّ وِطَاءً)[٢] أي: مواطأة، وهي المواتاة وبعضهم قرأ ﴿وَطْـًٔا﴾[٣] أي: قياماً.

وقال تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٣٨] لأنّهُ مِن «تَثَاقَلْتُمْ»، فأدغمت التاء في الثاء، فسكنت، فأحدث لها ألِفاً، ليصل إلىَ الكلامِ بها.

وقال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [الآية ٤٠] لأنه لم يحمله على (جَعَلَ) وحمله على الابتداء.

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [الآية ٤٦] جُعِلَ من «بَعَثْتُهُ» فـ «انْبَعَثَ» وسمعت من العرب، من يقول: «لَوْ دُعِينا لأَنْدَعَيْنا». وتقول: «انْبَعَثَ انبِعاثاً» أي: «بَعَثْتُهُ» فـ «انْبَعَثَ أنبِعاثاً» وتقول: «انْقُطِعَ بِهِ» إذا تكلّم، فانقطع به، ولا تقول «قُطِعَ بِهِ».

وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [الآية ٤١] في هذه الحال، إن شئت قرأت «انْفِروا» في لغة من قال «يَنْفِر» وان شئت (انْفُرُوا).

وقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [الآية ٤٣] لأنّه استفهام، أي: «لأيِّ شيء».

وقال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [الآية ٥٧] لأنه من

---

(١) نقله في الصحاح «نسأ» وفيه «مَنْ سَرَّهُ النَّساءُ ولا نَساءَ فَلْيُخَفِّفِ الرِّداءَ، وليباكِرِ الغداءَ، وليُقِلَّ غِشيانَ النّساءِ» وكذلك جاء القول في اللسان، والتاج «نسأ» مسبوقاً بقولهم «قال فقيه العرب».

(٢) المزمل ٧٣/٦، وهي قراءة نسبت في الطبري ٢٩/١٢٩ الى بعض قراء البصرة، ومكة، والشام، في السبعة ٦٥٨، والكشف ٢/ ٣٤٤، والتيسير ٢١٦، الى أبي عمرو وابن عامر؛ وفي الجامع ١٩/ ٤٠ زاد أبا العالية، وابن أبي اسحاق، ومجاهداً، وحميداً، وابن محيصن، والمغيرة، وأبا حيوة، واختارها أبو عبيد.

(٣) نسبت في الطبري ٢٩/١٢٩ الى عامة قراء مكة، والمدينة، والكوفة؛ وفي السبعة ٦٥٨ الى ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وفي الكشف ٢/ ٣٤٤، والتيسير ٢١٦، الى غير أبي عمرو، وابن عامر؛ وفي الجامع ١٩/ ٤٠ الى غير من أخذ بالقراءة الأخرى. وعلى هذه القراءة رسم المصحف.

«ادَّخَلَ» «يَدَّخِلُ»[1] وقال بعضهم: (مَدْخَلا)[2] جعله من «دَخَلَ» «يَدْخُلُ» وهي فيما أعلم أردأ الوجهين. ويذكرون أنها في قراءة أُبيّ[3] (مُنْدَخَلاً)[4] أراد شيئاً بعد شيء. وإنما قرئت (مُغَارَاتٍ)[5] لأنها من «أَغَارَ» فالمكان «مُغارٌ»[6] قال الشاعر [من البسيط وهو الشاهد الحادي والسبعون بعد المئة]:

الحمدُ للهِ مُمْسانا ومُصبَحُنا
بالخَيْرِ صبَّحنا ربّي ومَسّانا

لأنها من «أَمْسَى» و«أَصْبَحَ». وإذا وقفت على «مَلْجَأً» قلت «مَلْجَأا» لانه نصب منوّن، فتقف بالألف، نحو قولك «رأيتُ زيدَا».

وقال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [الآية ٤٠] وكذلك ﴿ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة/ ٧٣] وهو كلام العرب. وقد يجوز «ثاني واحدٍ» و«ثالثُ اثْنينِ» وفي كتاب الله ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة/ ٧] وقال ﴿ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف/ ٢٢] و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف/ ٢٢] و﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف/ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ [الآية ٥٨][7] وقرأ بعضهم: (يَلْمُزُكَ)[8].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [الآية ٦١] أي: هُوَ أُذُنُ خَيرٍ لا أُذُنُ شَرٍ[9]. وقرأ بعضهم (أُذُنٌ خَيْرٌ

(١) في الجامع ٨/ ١٦٥، والبحر ٥/ ٥٥ نسبت هذه القراءة إلى الجمهور.

(٢) في الشواذ ٥٣، نسبت هذه القراءة الى عبدالله بن مسلم؛ وفي الجامع ٨/ ١٦٥ الى الحسن، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن؛ وزاد في البحر٥/ ٥٥ سلمة بن محارب، ويعقوب، وابن كثير، بخلاف عنه.

(٣) هو أبيّ بن كعب. ترجمته في طبقات الذهبي ١/ ٣٢، وطبقات ابن الخياط ٣٠١، وتعريب التهذيب ١/ ٤٣.

(٤) نسبت هذه القراءة الى أبيّ في الشواذ ٥٣، والمحتسب ٢٩٥، والجامع ٨/ ١٦٥، والبحر ٥/ ٥٥.

(٥) في الشواذ ٥٣، نسبت هذه القراءة الى عبد الرحمن بن عوف، وفي البحر ٥/ ٥٥، الى سعد بن عبد الرحمن بن عوف.

(٦) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٤٣٢، والجامع ٨/ ١٦٥.

(٧) في السبعة ٣١٥ نسبت الى كل القراء، وفي البحر ٥/ ٥٦ نسبت الى الجمهور.

(٨) في السبعة ٣١٥، نسبت الى ابن كثير وأهل مكة؛ وفي الشواذ ٥٣، الى الحسن وابن كثير؛ وفي البحر ٥/ ٥٦ زاد يعقوب وحماد بن سلمة، عن ابن كثير وأبا رجاء، وهي قراءة المكّيين، ورويت عن أبي عمرو.

(٩) القراءة بالإضافة، هي في الطبري ١٤/ ٣٢٥ الى عامة قرأة الأمصار؛ وفي حجة ابن خالويه ١٥١ الى القراء جميعاً، عدا نافعاً.

لَكُم)[1] والاولى أحسنهما، لأنك لو قلت «هو أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُم» لم يكن في حسن ﴿هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ وهذا جائز على ان تجعل (لكم) صفة «الأُذن».

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [الآية ٦١] أي: وهو رحمة.

وقرأ بعضهم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ﴾ [الآية ٦٣]. بكسر الألف، لأنّ الفاء التي هي جواب المجازاة، ما بعدها مستأنف[2].

وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [الآية ٦٢] و«سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُم لِيُرْضُوكُمْ»[3] ولا أعلمه إلاّ على قوله «لَيُرضُنَّكُم» كما قال الشاعر[4] [من الطويل وهو الشاهد السادس والعشرون بعد المئتين]:

إذا قُلْتُ قَدْني قالَ باللهِ حِلْفَةً
لَتُغْنِيَ عَنّي ذا أنائِكَ أجْمَعا[5]

أي: لَتُغْنِيَنْ عني. وهو نحو ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام/١١٣] أي: ولَتُصْغِيَنَّ.

وقال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٨١] أي: مُخالَفَةً. وقرأ بعضهم (خَلْفَ)[6]

---

(١) القراءة بتنوين «أذن» في الطبري ١٤/ ٣٢٥، نسبت الى الحسن البصري، وفي حجة ابن خالويه ١٥١، الى نافع وحده؛ وفي الجامع ٨/ ١٩٢، الى الحسن وعاصم في رواية أبي بكر؛ وفي البحر ٥/ ٦٢ الى الحسن، ومجاهد، وزيد بن علي، وأبي بكر، عن عاصم.

(٢) نقله في المشكل ١/ ٣٣٣، وإعراب القرآن ٢/ ٤٣٤ و٤٣٥، والجامع ٨/ ١٩٥، وفي البحر ٥/ ٦٥ اشْتَرَكَ معه الفراء، والهمزة في المصحف مفتوحة، وهي قراءة العامة، القرطبي ٨/ ١٩٥.

(٣) لا توجد في المصحف الكريم آية بهذا المنطوق، وإنما فيه: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [الآية ٤٢] و﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ [الآية ٩٥] و﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ [الآية ٩٦].

(٤) هو حريث بن عناب الطائي، شرح الأبيات للفارقي ١٨٧؛ وشرح شواهد المغني ١٩٠، والخزانة ٤/ ٥٨٠؛ والمقاصد النحوية ١/ ٣٥٤ و٣/ ٣٦٠؛ والدرر اللوامع ٢/ ٤٤.

(٥) في شرح المفصّل لابن يعيش ٣/ ٨، قال بدل قلت؛ وفي الخزانة ٤/ ٥٨٠، بـ «قال قطني» بدل «قلت قدني»، و«لتغنن»؛ وفي المقاصد النحوية ١/ ٣٥٤ و٣/ ٣٦٠، بـ «قال بدل قلت»؛ وفي الدرر ٢/ ٤٤ بـ «قيل» بدل «قلت»، وفي شرح شواهد المغني للسيوطي ١٩٠، بـ «إذا قال قدني قلت آليت».

(٦) في الشواذ ٥٤، والكشاف ٢/ ٢٩٦، نسبت قراءة الى أبي حيوة؛ وفي البحر ٥/ ٧٩، زاد ابن عباس، وعمرو بن ميمون.

و(خِلافَ) أصوبهما، لأنهم خالفوا مثل «قَاتَلُوا قِتالاً» ولأنه مصدر «خَالَفُوا».

وقـرأ: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ [الآيـة ٩٠] خفيفة لانها من «أعْذَرُوا»[١] وقرأ بعضهم ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ ثقيلة يريد: «المُعْتَذِرونَ»[٢]. ولكنه ادغم التاء في الذال كما قال ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ [يس] وبها نقرأ. وقد يكون (المُعِذِّرُون)[٣] بكسر العين، لاجتماع الساكنين، وإنّما فتح لأنه حوّل فتحة التاء عليها. وقد يكون أن تضم العين تتبعها الميم[٤] وهذا مثل ﴿مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال][٥].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الآية ٩٨][٦] كما تقول: «هذا رَجُلُ السَّوْءِ» وقال الشاعر[٧] [من الطويل وهو الشاهد السابع والعشرون بعد المئتين]:

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمّا رَأى دَماً
بِصاحِبِهِ يَوْماً أحارَ عَلَى الدَّمِ

وقد قرئت (دائِرَةُ السُّوءِ)[٨]، وذا ضعيف لأنك إذا قلت «كانت عليهم دائرة السُّوءِ» كان أحسن من «رجل السَّوْءِ» ألا ترى أنك تقول: «كانت عليهم دائرة الهزيمة» لأنّ الرجل لا

(١) في معاني القرآن ١/٤٤٨، نسبت إلى ابن عبّاس، وكذلك في الطبري ١٤/٤١٦، وأضاف في ٤١٨ أن مجاهداً وقتادة تأوّلا بها. وفي الشواذ ٥٤، الى ابن عباس؛ وفي الجامع ٨/ ٢٢٤، الى الأعرج والضحّاك، ورويت عن عاصم وابن عباس؛ وفي البحر ٥/ ٨٣ و٨٤، الى ابن عباس، وزيد بن علي، والضحّاك، والأعرج، وأبي صالح، وعيسى بن هلال، ويعقوب، والكِسائي.

(٢) وفي الطبري ١٤/ ٤١٨، والبحر ٥/ ٨٣، أنها القراءة المجمع عليها عند الجمهور؛ وعليها رسم المصحف.

(٣) أورد في الجامع ٨/ ٢٢٤، هذا الوجه، ولم ينسبه قراءة.

(٤) نقل هذا في إعراب القرآن ٢/ ٤٣٩، والجامع ٨/ ٢٢٤، والبحر ٥/ ٨٣.

(٥) وفيها وردت الكلمة بلا «أل» ولا يُعلم ما المقصود من التشبيه المذكور.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٤٩، أنها قراءة أكثر القراء، وفي الطبري ١٤/ ٤٣١؛ إلى عامّة قرّاء أهل المدينة والكوفة؛ وفي السبعة ٣١٦، إلى نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكِسائي، وابن كثير، في رواية، وفي البحر ٥/ ٩١، إلى السبعة غير ابن كثير، وأبي عمرو، وفي الكشف ١/ ٥٠٥، والتيسير ١١٩، والجامع ٨/ ٢٣٤، إلى غير ابن كثير، وأبي عمرو.

(٧) هو الفرزدق. ديوانه ٢/ ٧٤٩.

(٨) في معاني القرآن ١/ ٤٤٩، نسبت الى مجاهد، وفي الطبري ١٤/ ٤٣١، الى بعض أهل الحجاز، وبعض البصريين، وفي السبعة ٣١٦، الى ابن كثير، وأبي عمرو، وابن محيصن، وفي الكشف ١/ ٥٠٥، والتيسير ١١٩، والجامع ٨/ ٢٣٤، والبحر ٥/ ٩١، اقتصر على ابن كثير، وأبي عمرو.

يضاف إلى السُّوء، كما يضاف هذا، لأنّ هذا يفسر به الخير والشر، كما نقول: «سلكتُ طريقَ الشرّ» و«تركتُ طريقَ الخَيْر»[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [الآية ١٠٠][2] وقرأ بعضهم: (والأنصارُ)[3] رفعٌ عَطَفَه على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ والوجه هو الجرّ، لأن السابقين الأولين كانوا من الفريقين جميعاً.

وقال تعالى: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ [الآية ١٠٩] فذكروا أنه من «يَهُورُ» وهو مقلوب وأصله «هائِرٌ» ولكن قُلِب مِثْلَ ما قُلِب «شاكِ السِّلاح» وإنما هو «شائِك».

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [الآية ١٠٣] فقوله تعالى ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ على الابتداء، وإن شئت جعلته من صفة الصدقة، ثم جيء بها توكيداً. وكذلك ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٦١] أي: يُصَدِّقُهم كما تقول للرجل «أنا ما يُؤمِنُ لي بأنْ أقولَ كذا وكذا» أي: ما يصدقني.

وقال تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ﴾ [الآية ١٠٨].

أي: «مُنْذُ أوّلِ يَوْم» لأنّ من العرب من يقول «لَمْ أرَهُ مِنْ يَوْم كَذا» يريد «مُنْذُ أوّلِ يَوْم» يريد به «مِنْ أوّلِ الأيّام» كقولك «لَقِيتُ كُلَّ رَجُلٍ» تريد به «كُلّ الرِّجالِ»[5].

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ [الآية ١٠٦][6] (من أرْجَيتُ)[7]. وقرأ

(١) نقل في إعراب القرآن ٢/ ٤٤٠، والجامع ٨/ ٢٣٨.

(٢) هي في الطبري ١٤/ ٤٣٩؛ والبحر ١٤/ ٩٢ قراءة العامة والجمهور.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٥٠، الى الحسن البصري؛ وكذلك في الطبري ١٤/ ٤٣٩؛ وفي الشواذ ٥٤، الى عمر بن الخطاب، والحسن، وقتادة، ويعقوب بن طلحة؛ وفي المحتسب ١/ ٣٠٠، زاد سلاماً، وسعيد بن سعد، وعيسى الكوفي. وزاد في البحر ٥/ ٩٢، طلحة؛ واقتصر في الجامع ٨/ ٢٣٥، على عمر بن الخطاب.

(٤) نقله في إعراب القرآن ١/ ٤٤١.

(٥) نقله في الصحاح «يوم».

(٦) في الطبري ١٤/ ٤٦٤، أنّ القراءة قرأت بها ولم يُعَيِّن، وفي الكشاف ١/ ٥٠٦، إلى نافع، وحفص، وحمزة، والكِسائي؛ وفي البحر ٥/ ٩٧، زاد الحسن، وطلحة، وأبي جعفر، وابن نصاح، والأعرج؛ وفي التيسير ١١٩، إلى غير ابن كثير، وأبي عمرو، وأبي بكر، وابن عامر؛ واقتصر في الجامع ٨/ ٢٥٢، على الكسائي وحمزة.

(٧) هي لغة أهل الحجاز، حملاً على طبيعتهم في ترك الهمز؛ اللهجات العربية ٢٥٤ وما بعدها.

بعضهم: (وآخرون مرجئون) من «أرجأت»(1).

وقال ﴿بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ [الآية 110](2) و(تُقْطَعَ)(3) في قول بعضهم وكل حسن.

وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [الآية 112] إلى رأس الآية ثم فسر ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن قوله سبحانه ـ والله أعلم ـ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ إنما هو تفسير لقوله جلّ وعلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية 111] ثم فسّر فقال «هُمْ التَّائِبُونَ».

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية 113] أي «وما كانَ لَهُمْ استِغْفارٌ لِلْمُشْرِكِينَ» وقال ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس/100]. أي ما كان لها الايمان إلاّ بإذن الله.

وقال: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [الآية 114] يريد «إلاّ مِنْ بَعْدِ مَوْعِدَةٍ» كما تقول: «ما كانَ هذا الشرُّ إلاّ عَنْ قَوْلٍ كانَ بَيْنَكُمَا» أي: عن ذلك صار.

وقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ﴾ [الآية 117](4) وقرأ بعضهم: (تَزِيغُ)(5) جعل السياق في

(1) في الطبري 14/464، مثل ما قال في السابقة؛ وفي الكشف 1/506، إلى غير نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي؛ وفي البحر 5/97، الى من لم يأخذ بالأخرى من السبعة؛ وفي التيسير 119 الى ابن كثير، وأبي بكر، وأبي عمرو، وابن عامر.

(2) في الطبري 14/498، الى بعض قرأة المدينة، والكوفة؛ وفي السبعة 319، إلى ابن عامر، وحمزة، والى عاصم في رواية؛ وفي الكشف 1/508، والتيسير 120، والبحر 5/101، أهمل عاصماً؛ وزاد في الجامع 8/266، يعقوب.

(3) قراءة نسبت في الطبري 14/497، الى بعض قرأة الحجاز، والمدينة، والبصرة، والكوفة؛ وفي السبعة 319، إلى ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، والكسائي، وإلى عاصم، في رواية؛ وفي الكشف 1/508، والتيسير 120، الى غير ابن عامر، وحفص، وحمزة؛ وفي البحر 5/101، الى غير من أخذ بالأخرى من السبعة؛ وفي الجامع 8/266، إلى الجمهور.

(4) القراءة بالياء، نسبت في السبعة 319، إلى حمزة، وحفص، عن عاصم؛ وفي التيسير 120، والبحر 5/109، إلى حفص، وحمزة؛ وزاد في الجامع 8/ 280، الأعمش. وعليها رسم المصحف.

(5) نسبت في السبعة 319، إلى غير حمزة، وإلى عاصم في رواية، قرأ بها أبو بكر؛ واقتصر في التيسير 120، والبحر 5/109، على نسبتها إلى غير حمزة وحفص.

(كادَ) و(كادَتْ) اسماً مضمراً، ورفع القلوب على (يَزِيغُ)، وان شئت رفعتها على (كادَ) وجعلت (يَزِيغُ) حالاً، وإن شئت جعلته مشبهاً بـ «كانَ» فأضمرت في (كادَ) اسماً، وجعلت ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾ في موضع الخبر.

وقال تعالى ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ [الآية ١١٨] وهي هكذا اذا وقفت عليها، ولا تقول (ملجأ ا) لانه ليس هٰهنا نون. ألاٰ ترى أنك لو وقفت على «لا خَوْفَ» لم تلحق ألفاً. وأمّا «لَوْ يَجدُونَ مَلْجأ» فالوقف عليه بالألف، لأن النصب فيه منوّن.

وقال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [الآية ١٢٣][1] وبها نقرأ، وقرأ بعضهم (غُلْظَةً)[2] وهما لغتان[3].

وقال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [الآية ١٢٤][4] فـ «أيُّ» مرفوع بالابتداء، لسقوط الفعل على الهاء، فان قلت: «ألا تضمر في أوّله فعلاً» كما في قوله تعالى ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ [القمر/ ٢٤] فلأن قبل «بشر» حرف استفهام وهو أولى بالفعل و(أيّ) استغني به عن حرف الاستفهام فلم يقع قبله شيء هو أولى بالفعل فصارت مثل قولك «زيدٌ ضَرَبْتُه». ومن نصب «زيداً ضربتُه» في الخبر نصب «أيّ» هٰهنا[5].

وقال تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الآية ١٢٧].

كأنه قال: «قالَ بعضُهم لبَعْضٍ» لأنّ نظرهم في هذا المكان، كان إيماء أو شبيهاً به، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

(١) في السبعة ٣٢٠، هي قراءة غير عاصم.

(٢) في الشواذ ٥٥، هي قراءة أبان بن عثمان؛ وفي البحر ٥/ ١١٥، زاد أبا حيوة، والسلمي، وابن أبي عبلة، والمفضّل.

(٣) في البحر، كما سبق، والجامع ٨/ ٢٩٨، أن كسر الفاء لغة أسد؛ وزاد في الأخير، أنها لغة لأهل الحجاز، وأنّ ضمّها لغة تميم.

(٤) ضم «أي» في البحر ٥/ ١١٥ قراءة الجمهور.

(٥) في البحر ٥/ ١١٦، أنّها قراءة زيد بن علي، وعبيد بن عمير؛ واقتصر في الكشاف ٢/ ٣٢٤، على عبيد بن عمير.

﴿عَنِتُّمْ﴾ [الآية ١٢٨] بجعل (ما) اسماً و﴿عَنِتُّمْ﴾ من صلته.

وقال تعالى ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [الآية ١٠٢] فيجوز في العربية أن تكون «بآخَرَ» كما تقول: «اسْتَوىَ الماءُ والخَشَبَةَ» أي: «بالخَشَبَةِ» و«خَلَطْتُ الماءَ واللَّبَنَ» أي «باللَّبَنِ».

لكل سؤال جواب في سورة «التوبة»(*)

إن قيل: لأي سبب تُرِكت كتابة البسملة في أول هذه السورة، بخلاف سائر السور؟

قلنا: لمّا تشابهت، هي والأنفال، واختلفت الصحابة في كونهما سورتين أو سورة واحدة، تركت بينهما فرجة، عملاً بقول من قال هما سورتان؛ وتركت البسملة بينهما، عملاً بقول من قال هما سورة واحدة. وممّن قال بذلك قتادة رحمه الله. الثاني: أن اسم الله تعالى سلام وأمان، و«براءة» فيها قتل المشركين، ومحاربتهم، فلا يناسب كتابتها.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [الآية ١٢] وخصّ الأمر بالقتال بأئمة الكفر، مع أنّ النكث والطّعن ليس مخصوصاً بهم، بل هو مسند إلى جميع المشركين؟

قلنا المراد بأئمّة الكفر، رؤوس المشركين وقادتهم. وقيل كفّار مكة، لأنهم كانوا قدوة جميع العرب في الكفر؛ فكأنّ النكث والطعن لم يوجد إلاّ منهم، لمّا كانوا هم الأصل فيه، فلذلك خصّهم بالذكر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٠] ونحن نسأل اليهود والنصارى عن ذلك فينكرونه ويجحدونه؟

قلنا: طائفة من اليهود، وطائفة من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

النصارى، هم الذين يقولون ذلك لا كلّهم، فالألف واللام للعهد، لا للجنس، ولا للاستغراق، أو أطلق اسم الكل وأريد البعض، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ [آل عمران/ ٤٥] وإنّما قال لها جبريل وحده.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الآية ٣٠] وقول كل أحد، إنّما يكون بفمه.

قلنا: معناه أنه قول لا تعضده حجة أو برهان، إنما هو مجرد لفظ لا أصل له. وقيل ذكر ذلك للمبالغة في الرد عليهم، والإنكار لقولهم، كما يقول الرجل لغيره، أنت قلت لي ذلك بلسانك.

فإن قيل: دين الحق هو من جملة الهدى، فما الحكمة في عطفه على الهدى في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٣٣]؟

قلنا: المراد بالهدى هنا القرآن، وبدين الحق الإسلام، وهما متغايران.

الثاني أنه، وإن كان داخلاً في جملة الهدى، ولكنّه خصّه بالذكر تشريفاً له، وتفضيلاً، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة/ ٩٨].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الآية ٣٣]، ولم يقل على الأديان كلّها، مع أنه أظهره على الأديان كلها؟

قلنا: المراد بالدّين هنا اسم الجنس، واسم الجنس المعرّف باللام، يفيد معنى الجمع، كما في قولهم: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٤] والمذكور الذهب والفضة، فأعاد الضمير على أحدهما؟

قلنا: أعاد الضمير على الفضّة لأنها أقرب المذكورين، أو لأنها أكثر وجوداً في أيدي الناس، فيكون كنزها أكثر؛ ونظيره قوله تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة/ ٤٥]. الثاني: أنه أعاد الضمير على المعنى، لأن المكنوز دنانير ودراهم وأموال، ونظيره قوله تعالى ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات/ ٩] لأنّ كل طائفة مشتملة على عدد كثير، وكذا

قوله تعالى ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج/١٩] يعني المؤمنين والكافرين. الثالث: أن العرب إذا ذكرت شيئين يشتركان في المعنى، تكتفي بإعادة الضمير على أحدهما، استغناء بذكره عن ذكر الآخر، لمعرفة السامع باشتراكهما في المعنى، ومنه قول حسان بن ثابت:

إنَّ شَرخَ الشَّبابِ والشَّعَرِ الأسْوَدِ
مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونَا

ولم يقل مالم يعاصيا؛ وقول الآخر:

فَمَنْ يكُ أمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ
فَإنِّي وقَيَّارٌ بِها لَغَرِيبُ

ولم يقل لَغَريبان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [الآية ٦٢] وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ [الأنفال/ ٢٠] وليس قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة/ ١١] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء/ ١١٢] من هذا القبيل: لأن الإضمار جُعِلَ عن أحدهما لوجود لفظة أو، وهي لإثبات أحد المذكورين، فمن جعله نظير هذا فقد سَهَا، إلا أن يثبت أنّ أو في هاتين الآيتين بمعنى الواو، وفي هاتين الآيتين لطيفة، وهي أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده في الآية الأولى على التجارة، وإن كانت أبعد، ومؤنثة أيضاً لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من اللهو، لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو، أو لأنها أكثر نفعاً من اللهو، أو لأنها كانت أصلاً، واللهو تبعاً، وأعاده في الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [الآية ٣٦] وهي عند الناس أيضاً كذلك في كل ملة، سواء أكانت الشهور قمرية أم شمسية؟

قلنا: الحكمة فيه، أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس، وابتدعوه بعقولهم من ذات أنفسهم، وإنما هو أمر أنزله الله سبحانه، في كتبه على ألسنة رسله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [الآية ٣٦] خصّ الأربعة الحرم بذلك، وظلم النفس منهي عنه في كل زمان ؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما، الضمير في قوله تعالى

﴿فِيهِنَّ﴾ راجع إلى قوله سبحانه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ لا الأربعة الحرم فقط، فاندفع السؤال. الثاني: أن الضمير راجع إلى الأربعة الحرم فقط، إمّا لأنها أقرب، أو لما قاله الفراء: إن العرب تقول في العشرة وما دونها لثلاث ليال خَلَوْنَ، وأيام خلون، فإذا جاوزت العشرة قالت خلَت ومضت، للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها، وبين الكثير وهو ما زاد عليها، ولهذا قال في الاثني عشر: منها، وقال في الأربعة: فيهن. فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكْر، إمّا لمزيد فضلها وحرمتها عندهم في الجاهلية، فيكون ظلم النفس فيها أقبح، ونظيره قوله تعالى ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة/ ١٩٧] وإن كان ذلك منهياً عنه في غير الحجّ أيضاً، أو لأن المراد بالظلم النسيء، وهو كان مخصوصاً بها، أو قتال الكفار فيها ابتداء، أو ترك قتالهم إذا ابتدأوا، وذلك كلّه مخصوص بها؟

فإن قيل: الشهر مذكّر فقياسه فيها؟

قلنا: الضمير بالهاء والنون، لايختص بالمؤنث، ولو اختص، فالمراد بقوله ﴿فِيهِنَّ﴾ ساعات الأشهر، وهي مؤنثة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [الآية ٣٦] والإنسان لا يظلم نفسه، بل يظلم غيره؟

قلنا: لا نسلّم أنه لا يظلم نفسه، قال الله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء/ ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق/ ١]. الثاني، أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضاً كما قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة/ ٨٤] وقال تعالى ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة/ ٥٤] وقال تعالى ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات/ ١١]. الثالث، أن معناه فلا تنقصوا حظ أنفسكم من الآخرة بالمعصية؛ فإنّ من عصى، فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها، وتوجيه العقاب والذم إليها، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق/ ١]. الرابع، أنّ كل ظالم لغيره، فهو ظالم لنفسه في الحقيقة؛ لأن ضرر ظلمه في حق المظلوم، ينقطع عن قريب، لأنه لا يتعدى الدنيا، وضرر ظلمه في حق

نفسه، يراه في الآخرة حيث لا ينقطع، أو يكون أشد وأدوم.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [الآية ٣٧] يدل على قبول الكفر للزيادة والنقصان؛ فكذلك الإيمان الذي هو ضده، فيكون حجة للشافعي رحمة الله عليه في قوله: الإيمان يقبل الزيادة والنقصان.

قلنا: معناه زيادة معصية في الكفر.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [الآية ٤٤] إن كان نهياً فأين الجزم؟ وإن كان نفياً فقد وقع المنفي، لأنّ كثيراً من المؤمنين المخلصين استأذنوه في التخلّف عن الجهاد لعذر، ويعضده قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ [النور/ ٦٢] فقيل إن المراد به، كلّ أمر طاعة اجتمعوا عليه، كالجهاد، والجمعة، والعيد، ونحوها؟

قلنا: هو نهي بصيغة النفي، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة/ ١٩٧]. الثاني: قال ابن عباس، رضي الله عنهما، هي منسوخة بقوله تعالى ﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾. الثالث: أنّ المراد بقوله تعالى ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ﴾ [الآيتان ٤٤ - ٤٥] الاستئذان في التخلّف عن الجهاد من غير عذر، وكذا المراد بالآية التي بعدها، وبقوله سبحانه: ﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ إباحة الاستئذان في التخلّف عن الأمر الجامع لعذر، فلا نسخ لإمكان العمل بالآيتين، لأن محل الحكم مختلف، وهو وجود العذر وعدمه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أخبر أنهم أمروا بالقعود، وذمهم على القعود، والتخلف عن الخروج للجهاد، والاستئذان في القعود؟

قلنا: ليس في الآية ما يدلّ على أن الله تعالى، هو الآمر لهم، فقيل الآمر لهم بذلك هو الشيطان بالوسوسة والتزيين. الثاني أنّ بعضهم أمر بعضاً. الثالث أن النبي (ص) قال لهم ذلك غضباً عليهم. الرابع أنه أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم، كقوله تعالى ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت/ ٤٠] يعضده قوله تعالى ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي مع

النساء والصبيان والزَّمْنى[1] الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى، علم أنّ المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ما زادوهم إلاّ خَبالاً: أي فساداً، ولأوضعوا خلالهم: أي ولأسرعوا السعي بينهم بالنمائم، فَلِمَ أمرهم سبحانه، بالخروج مع المؤمنين؟

قلنا: أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجّة، ولإظهار نفاقهم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴿٥٣﴾﴾ يدل على أن الفسق يمنع قبول الطاعات؟

قلنا: المراد بالفسق هنا، الفسق بالكفر والنفاق، لا مطلق الفسق، وذلك محبط للطاعات، ومانع من قبولها؛ ويعضده قوله عز وجل ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ [الآية ٥٤].

فإن قيل: لم عدل في آية الصدقات[2] عن اللام إلى «في» في المصارف الأربعة الأخيرة؟

قلنا: للتنبيه على أنهم أقوى في استحقاق الصدقة ممّن سبق ذكره؛ لأن «في» للظرفية والوعاء، فنبه بها على أنهم أحقّاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مصبّاً لها، لما ورد في فكّ الرقاب من الكتابة أو الرّقّ أو الأسر؛ وفي فكّ الغارمين عن الدَّيْنِ من التخليص والإنقاذ؛ وفي سبيل الله، يشمل السياق الغازي الفقير، أو المنقطع في الحجّ، والفقير البيّن الفقر؛ وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال؛ ولا يرد المؤلّفة قلوبهم، لأن بعضهم كفّار، وبعضهم مسلمون ضعيفو النية في الإسلام، فكيف يعارض بهم من ذكرنا. أو لأن الله تعالى علم أن وجوب إعطائهم سينسخ، فلذلك جعلهم في القسم المقدم الذي هو أضعف.

فإن قيل: لم كرر: «في» في الأربعة الأخيرة ولم يكرر اللام في الأربعة الأولى؟

قلنا: للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الأخيرين على الرقاب

---

(١) الزَّمْنى: مفردها زمين، وهو الذي أصابه ضعفٌ، لكبر سنّ، أو مطاولة علّة.

(٢) هي الآية الستون، من سورة التوبة.

والغارمين، من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة تأكيد، كقولك مررت بزيد وبعمرو.

فإن قيل: لم عدّي فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء، وإلى المؤمنين باللام، في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٦١]؟

قلنا: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به، فعدّاه بالباء كما يعدّى ضدّه بها، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به، لكونهم صادقين عنده، فعدّاه بما يعدّى به التسليم والانقياد، ويعضده قوله تعالى ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)﴾ [يوسف] وقوله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة/٧٥]، وقوله تعالى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس/٨٣] وقوله تعالى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء] وأمّا قوله تعالى ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه/٧١] فمشترك الدلالة، لأنه قال في موضع آخر ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الاعراف/١٢٣] وقال ابن قتيبة في الجواب عن أصل السؤال: إن الباء والـلام زائدتان، والمراد بالإيمان التصديق، فمعناه يصدق الله، ويصدق المؤمنين.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا﴾ [الآية ٦٣] يدلّ على تخليد أصحاب الكبائر في النار، لأن المراد بالمحادّة المخالفة والمعاداة؟

قلنا: قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ [الآية ٦٣] خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم، فيكون المراد به المحادّة بالكفر والنفاق، وذلك موجب للتخليد في النار.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [الآية ٦٤]، وسورة القرآن، إنما تنزل على النبي (ص) لا على المنافقين؟

قلنا: معناه أن تنزل فيهم، «فعلى» هنا بمعنى «في» كما في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة/١٠٢] وقولهم كان ذلك على عهد فلان. الثاني: أنّ الإنزال هنا بمعنى القراءة؛ فمعناه أن تقرأ عليهم.

فإن قيل: الحذر في هذه الآية واقع

منهم على إنزال السورة، فلِمَ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤﴾.

قلنا: قوله تعالى ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤﴾ أي مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم، بإنزال السورة؛ وهو مناسب لقوله تعالى ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الآية ٦٤] الثاني: أن معناه مظهر ومبرز ما تحذرون من إنزال السورة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وإنباؤهم بما في قلوبهم، تحصيل الحاصل، لأنهم عالمون به فما فائدته؟

قلنا: معناه تنبّئهم بأن أسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة، وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا أنه لا يعرفه غيرهم، ولا يطّلع عليه سواهم، وهذا ليس من تحصيل الحاصل.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [الآية ٦٧] وقال بعده ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الآية ٧١] وكلمة «من» أدل على المشابهة والمجانسة، من حيث أنها تقتضي الجزئية والبعضية، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى، لأنهم أشدّ تشابهاً، وتجانساً في الصفات والأخلاق؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم على دين بعض، أي على عادتهم وخلقهم بإضمار لفظة الدين أو الخلق ونحوه، لأن «من» تأتي بمعنى على، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الانبياء/٧٧]؛ وقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة/٢٢٦]؛ أي: يحلفون على وطء نسائهم؛ وهذا هو المعنى المراد في قوله عليه الصلاة والسلام «فمن رغب عن سنّتي فليس مني» وقوله عليه الصلاة والسلام «من غشّنا فليس منا». والمراد بقوله تعالى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي أنصارهم وأعوانهم في الدّين؛ وكل واحدة من العبارتين صالحة، للفريقين؛ إلا أنه خصّ المنافقين بتلك العبارة، تكذيباً لهم في حلفهم السابق، في قوله تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [الآية ٥٦] وتقريراً لقوله تعالى ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [الآية ٥٦].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [الآية ٦٩] مع أن

قوله تعالى ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [الآية ٦٩] بوضع الظاهر موضع الضمير، مُغنٍ عنه، كما قال تعالى ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [الآية ٦٩] من غير تكرار؟

قلنا: الحكمة فيه، تصدير التشبيه بذم المشبه بهم، باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا، واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة الباقية، وطلب الفلاح في الآخرة، وتهجين حالهم، وتقبيح صفتهم، ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ في ذم المشبّهين بأولئك الأوّلين، كما تريد أن تنبّه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير حق، ويظلم ويفسق وأنت تفعل مثل فعله. وأمّا قوله تعالى ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [الآية ٦٩]؛ فإنه لمّا كان معطوفاً على ما قبله وهو التشبيه المصدّر بتلك المقدّمة، أغنى ذلك عن إعادة تلك المقدّمة المذكورة، للتقبيح والتهجين.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية ٦٩]؛ فحبوط العمل، إن كان عبارة عن بطلان ثوابه، فذلك إنّما يكون في الآخرة، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته، فأعمال المنافقين في الدنيا ليست باطلة المنفعة، لأنهم ينتفعون بها في حقن دمائهم وأموالهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم؟

قلنا: المراد بالأعمال، إن كانت نَوْعَي أعمالهم الدينية والدينوية؛ فالحبوط في الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية؛ وهي كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذي كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى، ودفع آياته وبيّناته. ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، فلم ينالوا من ذلك ما أمَّلُوهُ وقصدوه من إبطال دين الله تعالى، وستر نبوّة محمد (ص). والحبوط في الآخرة، راجع إلى أعمالهم الدينية، وهي عباداتهم وطاعاتهم لأنهم فعلوها نفاقاً ورياءً فبطل ثوابها في الآخرة، وإن كان المراد بأعمالهم مجرّد الأعمال الدينية، فحبوطها في الدنيا هو عدم قَبولها، لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا، ثم يثيب عليها في الآخرة، والمراد بحبوطها في الدنيا، عدم قبولها، وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها، كالعبادة والقربة والحسنة، ونحو ذلك؛ وهذا

ضد قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت] فدلّ على أن للطاعات أجراً معجلاً في الدنيا، غير الأجر المؤجل إلى الآخرة، وهو القبول، وحسن الثناء، والذكر، وإلقاء المحبة في قلوب الخلق، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم] قيل معناه: يحبّهم، ويحبّبهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم، ويبغضهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ لِمَ خصّ الأرض بالنفي، مع أن المنافقين ليس لهم وليّ ولا نصير، من عذاب الله في الأرض، ولا في السماء؛ في الدنيا وفي الآخرة؟

قلنا: لمّا كان المنافقون لا يعتقدون الوحدانية ولا يصدّقون بالآخرة، كان اعتقادهم وجود الوليّ والنصير مقصورا على الدنيا؛ فعبر عن الدنيا، بالأرض وخصّها بالذكر لذلك. الثاني أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة فكأنه قال: ومالهم في الدنيا من وليّ ولا نصير.

فإن قيل: لم خصّ السبعين بالذكر في قوله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [الآية ٨٠]؛ مع أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين، ولو استغفر لهم الرسول (ص) ألف مرة، بدليل قوله تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون/٦] ولأنهم مشركون، والله تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء/٤٨]؟

قلنا: جرت عادة العرب، بضرب المثل في الآحاد بالسبعة، وفي العشرات بالسبعين، وفي المئات بسبعمائة، استعظاماً لها واستكثاراً؛ لا أنهم يريدون بذكرها الحصر، فكأنه قال: إن تستغفر لهم أعظم الأعداد وأكثرها، فلن يغفر الله لهم، ويحدّده ما ذكره بعد ذلك، من بيان الصارف عن المغفرة، في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ٨٠].

فإن قيل: لو كان المراد ما ذكرتم، لما خفي ذلك على النبي (ص) وهو

أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، حتّى قال لمّا نزلت هذه الآية: إن الله تعالى قد رخّص لي فسأزيد على السبعين. وفي رواية أخرى. فسأستغفر لهم أكثر من السبعين، لعلّ الله أن يغفر لهم؟

قلنا: لم يخفَ عليه ذلك، وإنّما أراد بما قال إظهار غلبة رحمته ورأفته، بمن بعث إليهم، كما وصفه الله تعالى بقوله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الآية ١٢٨]. وفي إظهار النبي (ص) الرأفة والرحمة لطفٌ لأمته، وحثٌّ لهم على التراحم، وشفقة بعضهم على بعض؛ وهذا دأب الأنبياء (ع)، ألا ترى إلى قول إبراهيم صلوات الله عليه كما ورد في التنزيل ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [ابراهيم].

فان قيل: لِمَ قال تعالى ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾؛ والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين، لا للمحسنين؟

قلنا: معناه والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا، فهو متعلّق بمحذوف لا بالمحسنين، لأنهم قد سدّوا بإحسانهم طريق العقاب والذم، فليس عليهم سبيل فيهما. الثاني، أنّ المحسن من الناس، وإن تناهى في إحسانه لا يخلو من إساءة بينه وبين الله تعالى، أو بينه وبين الناس، لكنه إذا أحسن باجتناب الكبائر، غفر الله له صغائر سيئاته، ورحمه، كما قال تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء/ ٣١].

فإن قيل قوله تعالى ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [الآية ١٠٥] أي سيعلم، لأن السين للاستقبال، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم، والله تعالى عالم بعملهم حالاً ومآلاً؟

قلنا: معناه في حقّ الله، أنه سيعلمه واقعاً موجوداً كما علمه غيباً، لأن الله تعالى يعلم كلّ شيء على ما هو عليه، فيعلم المنتظر منتظرا، ويعلم الواقع واقعاً؛ وأما في حق الرسول (ع) فهو على ظاهره.

فإن قيل: إن الله تعالى، قد وصف العرب بالجهل في القرآن، بقوله سبحانه ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [الآية ٩٧] فكيف يصح الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم، على كتاب الله وسنة رسوله (ص)؟

قلنا: هذا وصف من الله لهم، بالجهل في أحكام القرآن لا في ألفاظه؛ ونحن لا نحتجّ بلغتهم في بيان الأحكام، بل نحتج بلغتهم في بيان معاني الألفاظ، لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم.

فإن قيل لِمَ قال تعالى في صفة المنافقين ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [الآية ١٠١] وقال في موضع آخر ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد/٣٠].

قلنا: هذه الآية، نزلت قبل تلك الآية، فلا تناقض، لأنه نفى علمه لهم في زمان، ثم أثبته بعد ذلك في زمان آخر.

فان قيل: قوله تعالى ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [الآية ١٠٢] قد جعل كلّ واحد منهما مخلوطاً، فأين المخلوط به؟

قلنا: كلّ واحد مخلوط ومخلوط به، لأن معناه: خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كلّ واحد منهما بصاحبه، وفيه من المبالغة ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن ، لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما؛ كأنك قلت: لخلطت الماء باللبن، واللبن بالماء؛ ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء، كقولهم: بعت شاة ودرهماً، يعنون شاة بدرهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الآية ١١٢] بالواو، وما قبلها من الصفات بغير واو؟

قلنا: لأنها صفة ثامنة، والعرب تدخل الواو بعد السبعة إيذانا بتمام العدد، فإن السبعة عندهم هي العقد التام كالعشرة عندنا؛ فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، ونظيره قوله تعالى ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف/٢٢] بعد ما ذكر العدد مرّتين بغير واو؛ وقوله تعالى في صفة الجنة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر/٧٣] بالواو لأنها ثمانية. وقال في صفة النار، نعوذ بالله منها، فتحت أبوابها بغير واو لأنها سبعة. وليس قوله تعالى ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم] من هذا القبيل، لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى، لتناقض الصفتين. وقيل إنّما دخلت الواو على الناهين عن المنكر، إعلاماً بأن الآمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر، في حال أمره بالمعروف؛ فهما

صفتان متلازمتان، بخلاف باقي الصفات المذكورة، فإنها ليست متلازمة؛ ولا ينقض هذا بقوله تعالى ﴿الرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [الآية ١١٢] لأنهما ليستا صفتين متلازمتين، لأن السجود يلزم الركوع؛ أمّا الركوع، فلا يلزم السجود، بدليل سجود التلاوة، وسجود الشكر؛ والزمخشري لم يتكلم على هذه الواو.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي بأحسن الذي كانوا يعملون بإضمار حرف الجر، مع أنهم يجزون بحسنة أيضاً، لقوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة]؟

قلنا: معناه بحسن الذي كانوا يعملون، وهو الطاعات كلها، لا بسيّئه وهو المعاصي، فالأحسن هنا، بمعنى الحسن؛ وسيأتي في سورة الروم، في قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم/ ٢٧] وما يوضح هذا إن شاء الله تعالى. الثاني: أن معناه، ليجزيهم الله أحسن من الذي كانوا يعملون.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الآية ١٢٤] يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة؟

قلنا: قال مجاهد: معناه فزادتهم علماً؛ لأن العلم من ثمرات الإيمان، فجعل مجازاً عنه، والله أعلم.

المعاني المجازية في سورة «التوبة»(*)

.............(1)

على الحقيقة هي التقارب بالحدود مثل المسامتة، وهي المماثلة في السَّمْت الذي هو الجهة، وذلك من صفات الأجسام، وذوات الحدود والأقطار. فالمراد إذن بالمحادّة هُهنا كونُ الإنسان في غير الحدّ الذي فيه أولياء الله سبحانه. فكأنهم في حدّ، وأولياء الله سبحانه في حدّ. وكذلك الكلام في مُشاقّةِ الله تعالى على أحد التأويلين، وهو أن يكون الإنسان في شقّ أعداء الله وحَربه، لا في شقّ أوليائه وحِزْبه.

وحقيقة الكلام أن يكون المراد به مُحادّةَ أولياء الله على الصفة التي ذكرناها فقال تعالى: ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ [الآية ٦٣] كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب/٥٧] أي يؤذون أولياء الله ورسوله، لأنّ الأذى لا يجوز على من لا تلحقه المنافع والمضار، والمساءات والمسارّ.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الآية ٦٤] وهذه استعارة. لأن السورة، نطقها من جهة البرهان، لا من جهة اللسان. فكأنه سبحانه، أراد أنّ الناس يَعْلمون، بهذه السورة، النازلة في المنافقين، بواطن نفوسهم، وعقائد قلوبهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) هنا بداية القسم الموجود من سورة التوبة، أما ما قبل ذلك فمفقود مع آخر قسم من سورة الاعراف.

وقوله سبحانه[1]: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [الآية ٨٧]. [الخوالف النساء[2]] المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال. وإنما سمّي النساء خوالف تشبيهاً لهنّ بالخوالف، التي واحدتهن خالفة، وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحيّ المضروبة. فشُبِّهْنَ ـ لكثرة لزوم البيوت ـ بالخوالف التي تكون في البيوت.

وقد قيل إن الخوالف أيضاً زوايا البيوت، واحدتها خالفة؛ والمعنى واحد. وقد يجوز أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ حقيقة الخوالف التي هي أعمدة البيوت؛ أي رضوا بأن يكونوا في بيوتهم، فيكونوا ـ بالملازمة لها ـ كخوالفها وأعمدتها.

وقد يجوز أيضاً، أن يكون الخوالف هٰهنا جمعَ فرقة خالفة. وهي الجماعة التي تقعد عن الغزو، كالشيوخ، والنساء، وذوي العاهات، والولدان. وممّا يقوي ذلك قوله تعالى أمام هذا الكلام: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾.

وكنت سمعتُ شيخنا أبا الفتح عثمان بن جِنّي[3] النحوي ـ رحمه الله ـ يقول ذلك، ويذهب إلى مثله أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة/ ١٠]. ويقول: هي جمع فرقة كافرة. إلا أنّ الكلام يكون على القول الأول استعارة. ويكون على هذا القول حقيقة.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الآية ٩٨] استعارة. . . . .[4] عليهم أيام السوء، لأن الأيام والشهور قد تسمى دوائر، على طريق الاستعارة. فليس لأنها ترجع بأعيانها، وإنّما تعود أشباهها وأمثالها، فشهر كشهر، ويوم كيوم، وساعة كساعة، وسنة كسنة. يقال دارت السنون، ودارت الشهور على

(١) هذه زيادة ليست بالأصل يقتضيها السياق.

(٢) هذا السطر ممحوّ، وقد استظهرناه من السياق، الذي يفسر الخوالف بالنساء المقيمات في دار الحيّ.

(٣) أبو الفتح عثمان بن جنّي، إمام من أئمة النحو. وقد اشتهر بشرحه لديوان المتنبي، وبكتابه «الخصائص» في اللغة، وهو مشهور. وكان المتنبي يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني»، وقد كان ابن جني أستاذاً للشريف الرّضي، ونقل هٰذا عنه كثيراً في كتابه «المجازات النبوية». توفي سنة ٣٩٢هـ.

(٤) هنا سطران ممحوان محواً تاماً.

هذا المعنى. إلاّ أن هذه اللفظة، أعني الدائرة والدوائر، قد اختص ذكرها بالمواضع المكروهة. فيقال: دارت عليهم الدوائر، إذا أهلكتهم الأيام، وأفنتهم الأعوام. ويقال: دارت لهم الدنيا. إذا وصفوا بمواتاة الإقبال، وانتظام الأحوال. فكأنّ التمييز في الخير أو الشرّ، إنما يقع بقولنا: دارت لهم، ودارت عليهم.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الآية ١٠٩] استعارة. والمراد بها ذكر ما بناه المنافقون من مسجد الضِّرار[1]، بعد ما بنى المؤمنون من المسجد المعروف بمسجد قُباء[2]. لأن المؤمنين وضعوا هذا البناء، وهم مؤمنون متّقون، عارفون موقنون، فكأنهم وضعوه على قواعدَ من الإيمان، وأساسٍ من الرضوان. والمنافقون، إنما وضعوا ذلك البناء كَيْداً للمؤمنين، وإرصاداً للمسلمين. فكأنهم وضعوه على شفا جُرُفٍ هارٍ متقوِّضٍ، وأساسٍ واهٍ منتقضٍ؛ فكأنما انْهَارَ بهِمْ في نار جهنّم، أي أسقطهم ذلك الفعل في عذاب النار، ودائم العقاب. وهذه من أحسن الاستعارات.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية ١١٠] استعارة. ومعناها أن ذكر البنيان الذي بَنَوْه لا يزال ريبة في قلوبهم، يخافون معها إنزال الله بهم ضروب العقاب، أو بَسْطَ المؤمنين عليهم لما ظاهروهم من العناد والشقاق. فهم أبداً بنفوسهم مستريبون، وعليها خائفون مشفقون. فلا يزالون على ذلك، إلا أن تَقَطَّع قلوبهم حسرة، وتَزْهَقَ نفوسهم خيفة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ

---

(١) مسجد الضرار، هو المسجد الذي بناه المنافقون بقباء، لإضرار المسلمين وتفريق كلمتهم، وقد سألوا النبي (ص) عند رجوعه من تبوك، أن يأتي مسجدهم هذا ليصلّي فيه؛ فأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. وقد أمر النبي (ص) بهدم هذا المسجد، الظالم أهله؛ فحرق، وهدم، واتخذ موضعه مكاناً للقمامة.

(٢) مسجد قُباء هو المسجد الذي اسسه النبي (ص) على التقوى من أول يوم نزل فيه قباء، وهي بلدة على بعد ميلين من جنوب المدينة.

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [الآية ١١١] استعارة. وذلك أنه سبحانه لمّا أمرهم ببذل نفوسهم وأموالهم في الجهاد عن دينه، والمنافحة عن رسوله (ص)، وضمن لهم على ذلك الخلود في النعيم، والأمانَ من الجحيم، كانت نفوسهم وأموالهم بمنزلة العُروض المبيعة؛ وكانت الأعواض المضمونة عنها بمنزلة الأثمان المنقودة، وكانت الصفقة رابحة، لزيادة الأثمان على السلع، وإضعاف الأعواض على القيم.

وجملة هذا الباب، أنّ العبادات كلّها كالتجارات، في أنها طَلَبٌ للمنافع. فالعبادات[٣] طلبٌ لمنافع الآخرة، والتجارات طلبٌ لمنافع الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [الآية ١١٧] استعارة. لأن حقيقة الزَّيْغ الاعوِجاج والمَيْل. والمراد: من بعد ما كادت قلوبُهم تزول من عِظَم الخيفة، وتقنط من نزول الرحمة، فتكون بذلك كالشيء الزائغ بعد الاستقامة، والمستمال بعد الثبات والرصانة.

ومن الدليل على ذلك، قوله تعالى، بعد هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [الآية ١١٨] فهذه أيضاً استعارة. لأن النفس بالحقيقة لا توصف بالضِّيق والاتساع، وإنما المراد بذلك المرادُ بالقول الأول، من أنه عبارة عن انضغاط القلوب بشدّة الكرب، وبلوغها منقطع الصبر.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [الآية ١٢٠] وهذه استعارة. فالمراد بها، أنهم لا ينبغي لهم أن يُكرموا أنفسهم، عمّا يبذل النبي (ص) فيه نفسه، ولا يحفظوا مُهجهم في المواطن التي تحضر فيها مهجته، اقتداءً به، واتّباعاً لأثره. وهذه لفظة يستعملها أهل اللسان كثيراً، فيقولون: رغبتُ بنفسي عن الضيم، وأرغب بك يا فلانُ عن القتل، أي أضنُّ بنفسي عن أن تُذَلّ، وأنفس بمثلك عن أن يُقتل.

(٣) في الأصل «بالعبادات»، وهو تحريف من الناسخ.

فالظاهر، يدل على أنهم رَضُوا بنفوسهم عن نفس النبي (ص). والمراد: وما كان لهم أن يرغبوا بالنفوس. عن. . . . .[1] التي ينزلها نفسه، ويعرض فيها مهجته.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ وهذه استعارة ظاهرة. وذلك ان السُّورة لا تزيد الأرجاس[2] رجساً، ولا القلوب مرضاً، بل هي شفاء للصدور، وجلاء للقلوب؛ ولكنّ المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عَمًى وعَمَهاً، وازدادت قلوبهم ارتياباً ومرضاً، حَسُنَ أن يُضاف ذلك الى السورة، على طريقٍ لأهل اللسان معروفة.

وقد استقصينا الكلام على ذلك في عدة مواضع من كتابنا الكبير. فمن أراد بلوغ أقاصي هذه الطريقة، والضرب في أقطارها، والتفسّح في أعطافها، فليتتبّع مواضعها من ذلك الكتاب بمشيئة الله.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [الآية ١٢٨] وهذه استعارة. والمراد بأنفسكم هٰهنا ـ والله أعلم ـ أي من جنس أنفسكم وخَلْقِكم، لتكونوا إليه أسكن، والى القبول منه أقرب. ويجوز أن يكون من أنفسكم أي من قبيلكم وعشيرتكم، كما يقول القائل: فلان من أنفس بني فلان. أي من صميم أنسابهم، وليس من وسطائهم وملاصقهم.

وقد يجوز أن يكون المراد برسول من أنفسكم، أي من أشقائكم وأعزّائكم، كما يقول القائل لِذِي ودّه والقريب من قلبه: أنت من نفسي، وأنت من قلبي. أي أنت شقيق النفس، وقسيم القلب.

ومما يقوّي ذلك، قولُهُ سبحانه:

(١) بياض بالأصل. ويصح أن توضع هنا كلمة المواطن، أو المواضع، أو المنازل، أو ما إليها من هذا الباب.

(٢) في الأصل «لا تزيد الأرجاس إلاّ رجساً» وإلا زائدة من الناسخ بها ينقلب المعنى الى الضد. والصواب حذفها كما أثبتناه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ أي بحبِّه لكم، وميله إليكم، يعزُّ عليه أن تعنتوا وتعاندوا، فتحرموا الثواب، وتستحقوا[1] العقاب، فهو حريص على إيمانكم، رأفة بكم، وإشفاقاً عليكم.

(١) في الأصل «ويستحقوا» بضمير الغائبين، والصواب «وتستحقوا» بضمير المخاطبين كما أثبتناه.

الفهرس

سورة الأنعام

المبحث الأول

أهداف سورة «الأنعام» ٣

١ ـ كيف أنزلت ٣

٢ ـ لم سميت سورة الأنعام ٤

٣ ـ تاريخ نزول السورة ٤

٤ ـ مميزات المكي والمدني ٥

٥ ـ خصائص السور المكية واضحة في سورة الأنعام ٦

٦ ـ الأغراض الرئيسة لسورة الأنعام ٧

(أ) وحدة الألوهية ٧

(ب) قضية الوحي والرسالة ٩

تكذيب المرسلين ٩

نبوة محمد (ص) ١٠

(جـ) قضية البعث والجزاء ١٠

٧ ـ قصة إبراهيم الخليل ١٢

٨ ـ الوصايا العشر ١٤

المبحث الثاني

ترابُط الآيات في سورة «الأنعام» ١٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٧
الغرض منها وترتيبها ١٧
إثبات التوحيد والنبوة ١٨
شُبْهتهم الأولى على التوحيد والنُبوّة ١٨
شُبْهتهم الثانية على التوحيد والنُبوّة ٢٠
شبهتهم الثالثة على التوحيد والنُبوّة ٢٢
شبهتهم الرابعة على التوحيد والنُبوّة ٢٤
إبطال بدعةٍ لهم في الحلال والحرام ٢٤
شبهتهم الخامسة على التوحيد والنُبوّة ٢٥
إبطال بدع لهم في الحلال والحرام ٢٦
شبهتهم السادسة على التوحيد والنُبوّة ٢٧
الخاتمة ٢٨

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الأنعام» ٢٩

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الأنعام» ٣٣

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الأنعام» ٣٩

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الأنعام» ٥٣

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الأنعام» ٦٩

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الأنعام» ٧٩

سورة الأعراف

المبحث الأول

أهداف سورة «الأعراف» ـــــــ ٨٥

١ ـ معنى فواتح السور ـــــــ ٨٥

٢ ـ مقاصد السورة ومزاياها ـــــــ ٨٧

٣ ـ عرض إجمالي لأجزاء السورة ـــــــ ٨٧

٤ ـ قصة آدم ـــــــ ٩١

٥ ـ نعمة الثياب والزينة ـــــــ ٩٢

توسُّط الإسلام في شأن الزينة ـــــــ ٩٢

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الأعراف» ـــــــ ٩٥

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــــ ٩٥

الغرض منها وترتيبها ـــــــ ٩٥

المقدمة ـــــــ ٩٦

قصة آدم وإبليس ـــــــ ٩٦

قصة نوح وقومه ـــــــ ٩٨

قصة هود وقومه ـــــــ ٩٩

قصة صالح وقومه ـــــــ ٩٩

قصة لوط وقومه ـــــــ ٩٩

قصة شعيب وقومه ـــــــ ٩٩

قصية موسى وفرعون وبني إسرائيل ـــــــ ١٠٠

قصة عالِم لم يعمل بعلِمْه ـــــــ ١٠٣

الخاتمة ـــــــ ١٠٤

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الأعراف» ـــــــ ١٠٧

المبحث الرابع
مكنونات سورة «الأعراف» ١٠٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الأعراف» ١١٥
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الأعراف» ١٤١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الأعراف» ١٥٩
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الأعراف» ١٧١

سورة الأنفال

المبحث الأول
أهداف سورة «الأنفال» ١٧٧
صُوَر من معركة بدر ١٧٨
الغنائم ١٧٩
الحرب والسلام ١٨٠
صفات المؤمنين ١٨١
نداءات إلهية للمؤمنين ١٨٢
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الأنفال» ١٨٥
تاريخ نزول السورة ووجه تسميتها ١٨٥
الغرض منها وتسميتها ١٨٥
تفويض قسمة الأنفال لله والرسول ١٨٦
مصرف الأنفال ١٨٨

المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الأنفال» ــــــــــــــــ ١٩١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الأنفال» ــــــــــــــــ ١٩٥
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الأنفال» ــــــــــــــــ ١٩٩
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الأنفال» ــــــــــــــــ ٢٠٧
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الأنفال» ــــــــــــــــ ٢١٣
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الأنفال» ــــــــــــــــ ٢٢١

سورة التوبة

المبحث الأول
أهداف سورة «التوبة» ــــــــــــــــ ٢٢٧
أسماء السورة ــــــــــــــــ ٢٢٧
أين البسملة؟ ــــــــــــــــ ٢٢٨
أهداف سورة التوبة ــــــــــــــــ ٢٢٩
هدفان أصليان ــــــــــــــــ ٢٢٩
رحمة الله بالعباد ــــــــــــــــ ٢٣٠
غزوة تبوك ــــــــــــــــ ٢٣١
علاقات المسلمين بغيرهم ــــــــــــــــ ٢٣٤
فضل الرسول الأمين ــــــــــــــــ ٢٣٥

المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «التوبة» ٢٣٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٣٧
الغرض منها وترتيبها ٢٣٧
الكلام على المشركين وأهل الكتاب ٢٣٨
الكلام على المنافقين ٢٤٠
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «التوبة» ٢٤٩
المبحث الرابع
مكنونات سورة «التوبة» ٢٥١
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «التوبة» ٢٦٣
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «التوبة» ٢٧١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «التوبة» ٢٨٣
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «التوبة» ٢٩٧